د. محمد مرتاض

الأدب المغربي القديم

نشأته وتطوره

دار هومه

د. محمد مرتاض

الأدب المغربيّ القديم

(نشأته وتطوّره)

دار
هومه

- صنف : 4/649
- الإيداع القانوني : **السداسي الأول 2016**
- ردمك : 7-185-03-9931-978: ISBN

www.editionshouma.com
email:Info@editionshouma.com

باسم الله الرّحمن الرّحيم

مقدّمة

إذا كان القدماء وصفوا الفرزدق بأنّه ينحت من صخر، فإنّ هذا التّشبيه يصدق على الباحث في الأدب المغربيّ القديم الذي يتجرّؤ على اقتحام حصْنه وهو واجف متجمجم سادر؛ إذ إنّه لا يملك الوسائل الملائمة لمواجهة عوالم من المثبّطات، وليس تحت جنبه ولا في يده ما يدحَر به الجحود الذي ووجه به هذا الأدب، ولا التّجاهل الذي طاله من ذويه وعشيرته الأقربين قبل الأجانب عنه.

أجل، لقد تغافل الباحثون عن هذا الأدب في بيئتنا المغاربيّة، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء التّنقيب ولا حِمْل الاستقصاء؛ وإنّما راحوا يجترّون ما طَعِم الآخرون، ويناصرون ما زعمه المعارضون، بل ويؤكّدون ماحَكم به على هذا الأدب المُرجفون !!..فسار الجيل اللاّحق على سَنن السّابق، واعتمد المتأخّر على المتقدّم، والجديد على الماضي، وهو ما جعل الباحثين المتوخّين البحث في هذا الأدب يُصابون بالذّهول، ويُصدمون بالقصور، فأجهد بعضهم فكره، وأضنى نفسه لإحياء هذا التّراث، ولإزالة الغشاوة عن الأعلام المغاربة، وإبراز الدّور الذي قاموا به في خدمة الثّقافة العربيّة بعامّة، والأدب العربيّ في هذه الدّيار بخاصّة.

والكتاب الذي بين يدي المتلقّي إنّما هو محاولة متواضعة وجهد مقلّ لإعادة الاعتبار إلى هذا الأدب من وجهة، وإضافة مادّة خامٍ إلى إثراء الأدب المغاربيّ من وجهة أخراة، فباللّبنة التي تنضاف إلى اللّبنة يتراصّ البناء، ويشيّد الصّرح فيقف شامخاً.

ذلك، وقد عدنا في هذا البحث إلى الجذور الأولى لنشأة الأدب المغاربيّ شعره ونثره، وحاولنا أن يكون مع بداية القرن الثاني الهجريّ؛ مستشهدين ببعض النّموذجات التي كانت بحقّ صورة مشرقة له. فكان االبحث الأوّل من هذا الكتاب إذاً، عبارة عن تحدٍّ لمن يتجاهلون البدايات الأولى للأدب المغربيّ في هذا الإقليم. ولست هاهنا أنكر الجهود الرّائعة، ولا الأدوار الرّائدة التي أدّاها رعيل من المثقّفين في هذه الدّيار طَوال القرنين الماضيين، فقد بحثوا وحقّقوا، وحاضروا وكتبوا، وأفادوا التّراث المغاربيّ إفادة لا يدلّسها لهم الفكر المغربيّ، ولاسيّما أنّهم حاولوا التأْريخ لبواكيره الأولى حيث كتب محمد النّيفر من تونس (عنوان الأريب)، وأسهم كلّ من عبد الله كنّون، ومحمد بن شريفة، وعلاّل الغازي، ومحمد لغزيوي، وعباس الجراوي، وعبد الوهاب بن منصور، وغيرهم من المغرب في تحقيق ما هو مخطوط، ونشْر ما هو مُغيّب في الخزائن أو مُلقىً في رفوف المكتبات..وقد أفدت شخصيّاً من هؤلاء جميعا وعدت إلى نتاجاتهم في كثير من البحوث والمقالات ؛ ولاسيّما في أطروحتي الموسومة « الخطاب الشّعريّ عند فقهاء المغرب العربيّ في الخمسيّة الهجريّة الثانية» حيث كانوا كلّهم مصابيح تهديني في كلّ خطوة، وشموعاً منيرة تبدّد من طريقي الدُّجنّات. أمّا في الجزائر فإنّ ثمّة بعض الأسماء التي كان لها الشّرف في تقريب هذا الأدب للمتلقّي على غرار العربي دحو، والشيح بوقربة، وعبد الملك مرتاض، وعمر بن قينة، وعمّار بن زايد، وغيرهم. أضف إلى ذلك أنّ الأمل معقود على طلبة الدّراسات العليا، ولاسيّما الشُّعَب المتخصّصة في الأدب المغربيّ القديم على مستوى جامعات تلمسان، ووهران، وباتنة، وورقلة، وأدرار، وهلمّ جرّاً...حيث نوقشت رسائل متعدّدة عن نشأة

هذا الأدب وظواهره العامّة، فقدّم الباحثون موضوعات في الرّحلة المغربيّة، والأدب على عهد الموحّدين، والأدب على عهد الزّيانيّين، ومفهوم الشّعر عند ابن رشيق، والأدبيّة في النّقد المغربيّ القديم، والشعر في العصر المرابطي، والنثر في العهد العبيدي، والأدب في العهد الحمّادي، والحركة الأدبيّة في الخمسيّة الهجريّة الأولى، ومقامات ابن ميمون، ومنامات الوهراني... وهنالك دراسات انصرفت إلى الاهتمام بالأعلام المنتمين إلى هذه الدّيار على شاكلة «ابن رشيق شاعراً»، و«ابن خلدون شاعراً»، و«ابن خميس وأدبه»، و«التّناصّ في شعر ابن الخلوف القسنطيني»، و«ومنفرجة ابن النّحويّ»... وهذا فضلاً عن مشاريع البحث التي عالجت كثيرا من الظّواهر والعصور الأدبيّة مثل « التّجربة الصّوفية عند شعراء المغرب العربيّ في الخمسيّة الهجريّة الثانية»، و«أعلام تلمسان»، و«الأدب الجزائري القديم وأعلامه في الخمسيّة الهجريّة الثّانية»...بيد أنّ البحوث المذكورة على تنوّعها وقيمتها لم تحظ بماتستحقّه من عناية واهتمام، فلا المطابع فتحت أذرعها لاحتضان هذا الكنز الثّمين، ولا هيئة البحث المناطة أصلا برعاية هذه المشاريع قد حلّت الإشكال فاحتضنت هذه الأعمال، فكان من نتيجة ذلك أن ظلّت هذه البحوث رهينة الحبس تملأ أدراج المكتبات الجامعيّة شرقاً وغرباً من غير طبع !!

وموضوعات هذا الكتاب تناولت الحديث عن المدرّسين الذين زرعوا حبّ الفضيلة والعلم في نفوس النّاشئة والكهول، وسجّلوا أسماءهم بحروف من ذهب في تاريخ الجزائر الثّقافيّ حتّى أعيانا البحث وأنهكنا الاستقصاء حين رمنا إحصاء أسمائهم والتّعريف بسيرهم، فهم علماء أدباء شعراء فقهاء فلاسفة في آن واحد ؛ إنّهم موسوعيّون مقتدرون. وبحسْبنا أن نذكر في هذا الصّدد ابن مرزوق

الحفيد الذي تهتزّ جنبات المنابر لذكره، وتحنّ أصداء الجبال وجلسات الأصائل لخطابه، وتهفو النّفوس إلى استكشاف المخطوطات التي خلّفها أدباً ونقداً وفقهاً.لكنْ واأسفاه!..فقد ضاعت مؤلّفاته واندثرت، ولم يصلنا منها إلاّ القليل، في الوقت الذي دبّج يراعه في حياته ما لايقلّ عن مئة مخطوط في مختلف أصناف الفكر والثّقافة والأدب..هذا إلى جانب التّنسي، وأبناء الإمام، ويحيى بن خلدون، وابن أبي جمعة الوهراني، وابن مخلوف، وأبو عصيدة البجائي والزواوي الجزائري،و السنوسي، والفكون (عبد الكريم) وغيرهم كثير ممّن حاول هذا المبحث أن يقرّبهم إلى المتلقّي ؛ ذلك أنّ السّاحة الرّحبة الواقعة بجانب البلديّة القديمة لتلمسان، والتي كان هؤلاء العلماء يرتادونها ما تبرح شاهدة على تحرّكاتهم الدّائبة، وإنْ كان القوم اليوم يمرّون على آثارهم مُصبحين وباللّيل من دون أدنى مبالاة !. وكلّما جرّتني قدماي إلى سواء تلك السّاحة بقرب المسجد العتيق إلاّ وجالت بمخيّلتي صورهم، ومسّني طيف من تحرّكاتهم، وهمزتني مناجاتهم حتّى توشك يداي أن تتقرّاهم باللّمس!.وما أعبّر عن هذه الخواطر طمعاً في استقطاب المتلقّي ولا إثارة لعاطفته، ولكنّي أنقل ما يجيش به وجداني، وأبثّ ما يكميه صدري لا أكثر.

واشتمل الكتاب أيضا على مطوّلة جميلة أخذت بلبّي، واستأثرت باهتمامي، وما كان في وسعي، وأنا أقلّب صفحات الكتاب الموريتانيّ «الوسيط في أدباء شنجيط» أن أتخلّص من أسر قصائده، بعد الانتهاء من قراءة أوراقه؛ بل رأيت أنّ من العقوق نحو الأدب في تلك الدّيار، ومن الأنانيّة المقيتة ألاّ يشركني المتلقّي في الانتشاق من رياحين ذلك الشّعر، والنّفح من عطر ذلك القريض، عبْر

التّفيّؤ بظُلل الدّوح الباسق، والإيراق السّامق، والحبّ الوامق.فقد اشتمل الكتاب المذكور على طائفة من القصائد تُعدّ بحقّ من عيون الشّعر العربيّ، ولكنّ الدّارسين العرب للأسف الشّديد، والباحثين المغاربيّين لم يُجهدوا أنفسهم في ارتياد رياضه، ولم تطاوعهم نفوسهم في استكشاف دهاليزه المجهولة ؛ متهيّبين من وعورتها، واجفين من صلابتها، واجلين من نتوءاتها والتواءاتها!. ميد أنّهم لو استجابوا لضمائرهم وحرصوا على انتشال تراثهم من الفناء الذي أجهز عليه لأضافوا إلى أدبهم الكثير، ولبلغوا به شأواً لا ينازعهم فيه منازع..ولكنْ لا عجب، فإنّ ما طال الأدب العربيّ في المغرب والجزائر وتونس طال صنوه في موريتانيا، مع أنّ التّجاهل الذي أصاب ينابيع هذا الأدب هو الذي يَشْطأُ منه كلّ جديد غضير عبر حقب الأدب وأزمانه.

وما لابدّ من ذكره، هو أنّ هذه القصيدة بالذّات أعادتني إلى زمان المعلّات، وإلى أيّام الأصمعيّات والمفضّليّات، فاضْطُررْت في كثير منالأحيان إلى أن أقف إزاء بنْية إفراديّة برهةً قبل أن أجلو مغامضها، وأدرك كنهها؛ بل لقد استعنت بالقاموس في التّوصّل إلى معاني بعضها. ومع ذلك كنت سعيدا بالبحث، ولم أكن به شقيّا، وكنت متوقا إلى الارتياض في حديقة الأبيات، والإمساك بتلابيب الأفكار، والقبض على مباني التّخيّلات، ومَهامِه التّصويرات.

أمّا المنهج الذي ارتضيته لتحليلها فقد اتّكأت فيه على دراسة لأحد الباحثين مثلما أبنت عن ذلك هناك، وقد استمالتني تلك الطّريقة، ورأيت أنّها الأليق بتحليل هذا النصّ، وإن لم تكن الأمثل بطبيعة الحال، لأنّ آليات القراءة تختلف ما بين عصر وآخر، ومصر وآخر؛ بل بين شخص وآخر، وهذا يعني أنّ ما يروق شخصا لا يكون

بالضّرورة هو الذي يرتضيه آخر، فالأذواق تختلف، والمشارب تتباين. بيد أنّ هذا الاختلاف في الأحكام، والتّباين في التّقويم؛ ما ينبغي أن تُفسّر بأنّها تَناءٍ عن الذّوق السّليم الذي لا يختلف فيه اثنان؛ إذ إنّ طبيعة الورد والزّهر والطّير ومنابع الماء والنّدى والاخضلال وينع الغصون وخرير السّواقي وسمق الأدواح وأنين النّاي تتّفق حولها الأذواق ولا تتصارع.ومن هذا المنظور، يقرّر القدامى والمحْدَثون أنّ الذّوق السّليم هو الذي يصنع نقّادا ، لأنّ التّأثّر بالعمل الأدبيّ لا يسري مفعوله إلاّ إذا ذاب الوجدان في سبائك النصّ، وانغمس الخيال في دنيا النّاصّ، وذلكم هو السرّ الذي صاحَب كلّ مبحث هاهنا، ويطبع كلّ عمل نقديّ يقدّمه الكتّاب بين الآونة والأخرى مشرقاً ومغرباً وكثيراً مّا يعبّرون عن ذلك في مقولتهم الشّهيرة : «النصّ هو الذي يفرض طبيعة منهجه». فالنص بما يحبل به من رونق وبهاء، وبما يحفل به من تخيّل وتأثير، هو الذي يأسَر المتلقّي ويذهب به إلى حيث يشاء!..

وما كان هذا البحث لتلْتئم جوانبه، وتكْتمل عوالمه من دون توظيف شخصيّة طالما أشاد بها معاصروها، وقرّظها كلّ من صادف قليلاً أو كثيراً من إبداع صاحبها. وكثيراً ما وقف الدّارسون حيالها مدْحورين مذْهولين، يُحاولون التّطاوُل إلى سمكها فتعْييهم الحيلة، وتحْجبهم الأشعّة، فيؤوبون القهْقَرى وهمْ في حَيْرة وسَدر!. نُمهّد بهذه التّقْدمة للشّخصيّة التي وظّفْناها والمتمثّلة في اسم ابن مرزوق الحفيد الذي، وإن أدْمجْناه مع طائفة المدرّسين في تلمسان، فإنّنا سنكون مُقصّرين لو لم نُفْرده بدراسة مستقلّة ومُسْتفيضة نسْبيّاً عن رؤْيته الإبداعيّة.

وعرّجْنا على المديح النّبويّ عند شعراء المغرب العربيّ، حيث تناول الجزء الأوّل من هذا النّوع الأدبيّ فنّ المولديّات في الشّعر المغربيّ القديم، وتناول الآخر المديح النّبويّ في العهد العثمانيّ. وقد تجلّى لنا

مدى اهتمام شعراء المغرب العربيّ بهذا اللّون، وانْصراف كثير منهم إلى ابداع فيه، وانتظار مناسبة الاحتفال بالمولد النّبويّ الشّريف كي يُفجّروا قرائحهم الشّعريّة، ويُنوّعوا في البنْية الفنّية لغةً وأسلوباً وإيقاعاً وتناصّاً وتجْديداً. ويكون من الإجْحاف إبْعاد هذا الفنّ في الدّراسات المخصّصة للأدب المغربيّ القديم، باعْتبار أنّ هذا الفنّ زخم كبير، ورافد عظيم لتاريخ الأدب العربيّ في الدّيار المغاربيّة.

وذيّلنا البحث بملحق سلّطنا فيه الضّياء على تأثير المحلّية والعالميّة في الأدب العربيّ بعامّة، والأدب الحديث بخاصّة، وهو ملحق يغطّي فترة من الأدب المغاربيّ ويركّز على إبداعات كثير منهم، وهو، وإن لم يلتزم بالحديث عن الأدب المغربيّ القديم، فإنّه أشار إلى جوانب كثيرة من هذا الأدب، وذلكم ما جعلنا نؤخّره إلى نهاية هذا البحث كي تكتمل خطوطه، وتتنوّع محاوره، وهو في نهاية الأمر مجرّد ملحق يُكمل ولا ينقص، ويُثْري ولا يُخلّ.

وبعد، فإنّ هذا الكتاب ما هو إلاّ ثمرة بحوث قُدّمت في ندوات وملتقيات، أو نُشرت موادّها في دوريّات؛ وهي لا تزعم لنفسها العِصمة، ولا تُغني ألبتّة عن الدّراسات المغاربيّة المستفيضة، لكنّها تبقى إسهاما يُضاف إلى ما قدّمه غيرنا في هذا الحقل لينتج عن أولئك كلّه ثروة تكون رِكْزا لتاريخ الأدب العربيّ في الدّيار المغاربيّة أسوةً بتاريخ الأدب العربيّ في الدّيار المشرقيّة. وحينئذ، تتكامل خيوط هذا الأدب، ولا يظلّ كسيحا يريد الحَراك صوب جهة معيّنة فلا تطاوعه رجلاه، ولا تُسعفه قوّته الخائرة.

والله من وراء القصد

تلمسان، في 12 ديسمبر 2013م

محمد مرتاض

الأدب المغربيّ القديم

بين النّشْأة والنّهضة

(من الفتح الإسلاميّ إلى نهاية القرن الثّاني الهجريّ)

افتتاحيّة :

لعلّني ألاّ أكون في حاجة إلى وقفة تاريخيّة عند الفتح الإسلاميّ الذي مرّ بمراحل مختلفة قبل أن يتمّ بصورة نهائيّة مع موسى بن نصير سنة 79 هـ .

ومنذ هذا التّاريخ، بدأت الخيوط الأولى لهذا الأدب تأخذ طريقها ولو ببطء، حيث إنّ العوامل المساعدة لها بدأت معالمها تتّضح؛ فقد جاء الإسلام إلى المغرب، ومعه ظهرت عوامل أسهمت في تأسيس هذا الأدب نذكر منها سببين هامّين على الأقلّ :

أمّا أحدهما فهو تقدير المغاربة المسلمين للقرآن الكريم، وإقبالهم على لغته، وتأثّرهم بإعجازه .

وأمّا الآخر : فهو تهجير أفواج من المغاربة إلى المشرق حيث مكثوا زمنا قبل أن يعودوا إلى ديارهم، وقد أتقنوا اللّغة العربيّة وربّما تبحّر بعضهم فيها[1].

نشأة الأدب :

لقد تجاهل الدّارسون والمؤرّخون للأدب في المغرب العربيّ البدايات الأولى لهذا الأدب، فهل كان السرّ في ذلك إهمالا مقصودا أو تجاهلاً وازدراءً ؟!.. إنّ أحدا لا يستطيع أن يجيب إجابة مقنعة، أو يجنح إلى رأي دون آخر، وما ذكره الدّارسون بخصوص هذا الإشكال يكاد يكون تخمينا لا أكثر. وكم نحن متوقون ومتأثّرون في الآن ذاته لهذا الفراغ المهول للقرنين الهجريّيْن الأوّلين

---

[1] - ينظر الأدب المغربيّ من خلال ظواهره وقضاياه د. عباس الجزائري " - مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع - الرّباط.

على الأقلّ، لأنّ الخيوط الأولى لهذا الأدب طفقت تنتشر ابتداءً من تأسيس دولة الأدارسة في المغرب سنة 172 هـ، ودولة الأغالبة بإفريقيّة سنة 184 هـ، ذلك أنّ التّأريخ لهذا الأدب يتطلّب وثائق، ويفترض شجاعة، ويقرّر دقّة نائية عن كلّ تحامل أو تخاذل أو تحايل على هذا الأدب. أضفْ إلى ذلك أنّنا هنا لا نريد إطلاقاً تقرير شيء غير موجود، ولا زعْمَ شيء هو أصلاً غائب !.

أجل، لقد تداولت بعض المظانّ هذه الإشكاليّة، فذهبت إلى القول إنّ هنالك شاعراً بربريّا ظهر في المغرب العربيّ يُدعى (سابق البربريّ) وله شعر ذكره حسني ناعسة في كتابه «شعر الفقهاء» وأورد له قصائد منه في كتابه المذكور[1] كما أوردت ذكرَه وشعره مظانّ أخرى[2] لعلّ آخرها كتابات العلاّمة عبد الله قنّون المختلفة حيث وقف عند مغربيّته وشاعريّته[3].

وسابق البربريّ يدعى أيضا : سابق المطماطي، وكان شاعرا كبيرا؛ ومن شعره ما قاله واعظاً به عمر بن عبد العزيز :

---

[1] - ط . المكتبة العربيّة بحلب ـ سورية ـ ط 1 / 1399 هـ (1979 م) .

[2] - أهمّ هذه الراجع :

- الكامل : للمبرّد .
- الأغاني : للأصفهاني.
- تاريخ ابن خلدون.
- البداية والنّهاية : لابن كثير.
- كتاب الألباب : لابن الأثير.

[3] - كتب عنه مقالة في أحد أعداد مجلّة دعوة الحقّ التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشّؤون الإسلاميّة بالمغرب.

إنّ الأمور إذا استقبلتها اشتبهَت ... وفي تـدبُّرها التَّبْيـانُ والعِبـرُ
والمرْءُ ما عاشَ في الدُّنيا له أمـلٌ ... إذا انقضى سفرٌ منه أتى سَفَـر
لهـا حـلاوةُ عـيش غـير دائمـة ... وفي العواقب منها المدُّ والصَّبَرُ
وليس يزْجُركمْ ما توعظونَ به ... والبَهْمُ يزْجُرها الرّاعي فتنْزجرُ
أصبحتمُ جَزَراً للموت يقْبضكمْ ... كما البهائمُ في الدُّنيا لها جَزر[1]

والمستقطب للانتباه في هذه الرّواية أنّ هذا الشّاعر كان قد بلغ مستوى رفيعا ونُضْجا كبيراً وشهرة فاقت محلّيّته أو رقعته الضّيِّقة حتّى وصلت إلى الشّام، فتأتّى له أن يبلغ درجة أهّلته لهذه المنزلة التي جعلته يكون واعظا لخليفة أمويّ ذوّاقة للأدب والشّعر، فَطِنٍ للخطاب الشّعريّ المتكامل، ولكنّ السّؤال الذي قد يطرحه المتلقّي هو : كيف وصل الشّاعر إلى بلاط الخليفة ؟ أكان ذلك تضايُقاً ببلده، وفراراً من ضيق العيش، ورغْبة في العطاء ؟ أم أنّ الأمر غير ذلك ؟ أو أنّه أصلاً لم يتّصل به إطلاقاً، وما هذا إلاّ نسيج من الخيال ؟!

والقصيدة طويلة في الحثّ على الزّهْد في الدّنيا والعمل لليوم الآخر الذي هو الدّائم، ولكنّ أفكارها مكرّرة، وهي لا تخرج عن معنىً إجماليّ يتمثّل في ضرورة الطّلاق مع الدّنيا والتّزوّد لليوم الموعود، يوم الحساب والجزاء؛ يقول في القصيدة نفسها :

---

[1] - طبقات أبي العرب، ص 36 ـ الجزر : الواحدة " الجَزَرَة " : كلّ شيء مباح للذّبح.

لا تَبْطِروا واهْجُروا الدّنيا فإنَّ لها   غِبّاً وَخيماً وكُفْرُ النِّعْمَـةِ البَطَر
ثمّ اقْتَدوا بالأُلى كانوا لكمْ غُرَراً   وليـــس مــنْ أُمَّــةٍ إلاّ لهــا غُـــرَرُ
حتّى تكونوا على مِنْهاجِ أَوَّلِكُمْ   وتَصْبِروا عنْ هَوى الدُّنيا كما صَبَروا
مـا لـي أرى النّـاسَ والـدُّنْيا مُوَلِّيَـةٌ   وكـلُّ حَبْـلٍ عليهـا سـوفَ يَنْبَتِـرُ
مـنْ عـاشَ أَدْركَ في الأعْداءِ بُغْيَتَـهُ   ومــنْ يَمُـتْ فلـهُ الأَيّـامُ تَنْتَصِـرُ

والواقع أنّ هذا الشّاعر يُذكر ليظهر إلى جنبه في النّثر اسم القائد طارق بن زياد صاحب الخطبة الشّهيرة غداةَ فتح الأندلس، والتي يحفظها الخاصّ والعامّ؛ وهي تذكّرنا بخطبة قسّ بن ساعدة التي يحفظ النّاس مطلع خَطابته غبى الأقلّ. فهل أنّ طارق بن زياد هو الذي ألقى تلك الخطبة حقيقة على مشارف نهاية القرن الأوّل الهجريّ ؟ أم أنّها دخيلة ومنتحَلة ؟. يقول القائلون، ويتقوّل المُرجفون إنّ طارقا هذا ما كان له ليخطب بتلك الفصاحة وهو حديث عهد بالإسلام، وجديد على الأدب، بل على العربيّة نفسها، ولكنّ الأمر قد يفاجئ الرّافضين والمشكّكين في نسبة الخطابة إلى صاحبها حين يعلمون أنّ اللّغة العربيّة لم تك غريبة عن الدّيار، ولا الأدب خيالاً من باب تصوّر السّعالي والغيلان، لأنّ التّاريخ الأدبيّ للمغرب العربيّ يتحدّث عن شاعر كان رائدا في تخصّصه، وسبّاقاً إلى دولة الشّعر العربيّ في هذه الدّيار؛ ويتعلّق الأمر بالشّاعر عبد الرّحمن بن زياد القيروانيّ المولود سنة 74 أو 75 هـ والمتوفّى سنة 161 هـ، والشّاعر هذا يعود في انتمائه إلى إفريقية التي وُلد بها ووافاه الأجل المحتوم بها مثلما ينصّ عليه المالكيّ[1]. تولّى وظيفة القضاء مرّتين على عهد بني أميّة،

---

[1] - الرّياض 1: 101 .

ومشى في مناكب الأرض وتجوّل عبر بلدان المشرق العربيّ، ولكنّه استبدّ به الحنين إلى وطنه وهو بعيد عنه ؛ فقال مقطوعة يُعرب فيها عن اشتياقه إلى القيروان مسقطِ رأسه ؛ منها :

ذكرْتُ القيْروانَ فهاجَ شوقي وأينَ القَيْروانُ من العراقِ؟
مسيرةُ أشهرٍ للعيس نَصّاً ومَنْ يُرْجى لنا وله التّلاقي
بأنّ اللّه قدْ خلّى سبيلي وجدَّ بنا المسيرُ إلى مَزاق[1]

مهما يكن، فإنّ بعض الباحثين اقترح مراحل لتأسيس الأدب العربيّ في هذه الدّيار حسب التّوجّهات الآتية :

1 ـ عصر النّشوء الثّقافي : ويبتدئ من سنة 50 هـ إلى سنة 184 هـ.

2 ـ عصر النّهضة الأدبيّة الثّقافيّة : ويبتدئ بقيام الدّولة الأغلبيّة (184 هـ) وينتهي بسقوطها في أواخر القرن الثّالث للهجرة؛ أي سنة 296 هـ.

3 ـ عصر الازدهار الثّقافي : ويبتدئ بقيام الدّولة الفاطميّة، وينتهي بسقوط دولة بني زيري على يد الموحّدين (296 هـ ـ 547 هـ) .

و بالنّسبة للنّقطة الأولى، فقد غلب عليها طابع العلوم النّقليّة من فقه وتفسير وحديث ونحوها ، وهذا يعني أنّ العصر المذكور هذا قد اصطبغ بالصّبغة الدّينيّة، وهو ما جعل بعض الدّارسين يورد نماذج كان لها أثر على هذه النّشأة[2]؛ منها الرّسالة الآتية[1] :

---

[1] ـ طبقات أبي العرب : 36 ـ مزاق: هي القيروان أو مكان قريب منها ، حسَب المرحوم رابح بونار : م . س . ص 61 .

[2] ـ ينظر : المغرب العربيّ : تاريخه وثقافته ": رابح بونار ـ الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع ـ الجزائر 1968 م.

«من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجة، أمّا بعد : فإنّ أهل العلم بكتاب اللّه وسنّة نبيّه صلى اللّه عليه وسلم قالوا : إنّه يُرجَع جميع ما أنزل اللّه عزّ وجلّ إلى عشْر آيات : (1) آمرة، (2) وزاجرة، (3) ومبشّرة، (4) ومُنذرة، (5) ومُخْبرة، (6) ومُحْكَمة، (7) ومتشبّهة، (8) وحلال، (9) وحرام، (10) وأمثال. فآمرةٌ بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشّرة بالجنّة، ومنذرة بالنّار، ومخبرة عن الأوّلين والآخرين، ومحكَمة يُعمل بها، ومتشابهة يؤْمَن بها، وحلالٌ أَمرَ أن يؤْتى، وحرام أَمر أن يُجتنَب، وأمثالٌ واعظة، فمنْ يُطعِ الآمرة، وتَزْجُرْه الزّاجرة، فقد استبشر بالمبشّرة، وأنذرتْه المُنذرة، ومنْ يُحلّل الحلال ويحرّمِ الحرام، ويَرو العلم فيما اختَلف فيه النّاس إلى اللّه مع طاعة واضحة، ونيّة صالحة؛ فقد أفلح ونجح، وحيا حياة الدّنيا والآخرة. والسّلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته.» [2]

لو أردنا تحليلاً أدبيّا لهذه الرّسالة لما ألفينا شيئا ذا بال نقف عنده، أو يستحقّ الذّكر، فالنّصّ عبارة عن استعراض لجوانب دينيّة تَخِذت القرآن الكريم رائدها، والدّين الإسلاميّ موجّهها؛ فهذا القرآن - بالنّسبة لأصحاب الرّسالة - إنّما تدور أحكامه ومضامينه حول عشرة محاور تشتمل عليها عشر آيات؛ كلّ آية متّصلة بصفة معيّنة، وبعد إيرادهم لها ينْبرون لكلّ حكم من أحكامها بالشّرح الموجز الذي لا يسمن ولا يغني من جوع .

---

[1] - ومناسبتها أنّه لمّا ثار الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة، جمع علماء إفريقية الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز؛ وهم : سعد بن مسعود، وحيّان بن أبي جبلة، وطلق بن حابان، وطلب منهم المساعدة، فكتبوا الرّسالة المذكورة.

[2] - رياض النّفوس : المالكي، ص 147 .

ومن نماذج الخطب ما قاله عبد الوهّاب الرّستميّ الإباضيّ الذي كان أميرا على تيهرت ونواحيها ، والذي كان أيضا أديبا مفكّرا وإماماً دينيًا ، وله خطب ورسائل عديدة[1] منها الخطبة الآتية :

«قد علمتم معشر المسلمين أنّ السّمح وزيري وأخصُّ النّاس بي، وأحبُّهم إليّ، وأنصحهم لدولتي، ولذلك لا أصبر على فراقه. وقد آثرْتكم على نفسي تتْميماً لرغبتكم، فهاأنذا قد ولّيْته عليكم، فأحسنوا الطّاعة والانقياد لأوامره، ما سار فيكم سيرة المسلمين، ولم يَحد عن جادّة العدل والإنصاف، ولم يرتكب ما يؤْذِن بسخط الرّبّ وبمخالفتنا.»[2]

وواضح أنّ النّصّ فيه تطوّر دلاليّ بلاغيّ، ويحمل سمات أسلوبيّة جديرة بالوقوف عندها ، وإن لم يخْل مع ذلك من تناصّ مع خطب الرّسول ﷺ والخلفاء الرّاشدين، وهو أمر بدهيّ في الواقع، طالما كان هذا الفنّ في بدايته، وهذه الخطبة تذكّرنا بنصوص مؤسّسة لهذا الفنّ كان لها الأثر الكبير على الأجيال الأدبيّة المتلاحقة تِباعاً على هذا الإقليم فيما بعد.

عصر النّهضة الأدبيّة :

قبل أن نلج إلى صلب الحديث عن النّهضة الأدبية، يجدر الذّكر أنّ الدّارسين اتّفقوا على أنّه ما كاد القرن الثّاني الهجريّ ينقضي حتّى كان نجم هذه النّهضة قد لمع ضياؤه في الأفق، واستطاع أن يرسل أشعّته الفضيّة مبدّداً جحافل الدُّجُنّات المترسّبة من

---

[1] - يراجع " المغرب العربيّ : تاريخه وثقافته " لرابح بونار، ص 55.

[2] - م . ن . ص 55 - ومناسبة هذه الخطبة أنّه ولّى السّمح بن أبي الخطّاب على تيهرت نائباً عنه مدّة غيبته عن إمارته، فجمع أعيانها وزعماءها ، ثمّ قال الخطبة أعلاه .

العصور السّابقة عليه، والتي حاولت أن تجلّي لإشْراقته، لأنّه مع نهاية القرن المذكور، أقبل عصر اتّسم بالازدهار الثّقافيّ، وأينعت في سنواته سنبلات خضْر، وأورقت صنوانٌ في عُلى دوح باسق أظلّت بفيء فكرها العقول، إنّه الجوّ الرّائق الذي وفّرته الدّولة الأغلبيّة فأنعشت بحرّيّتها الفكر، واستطاعت أن تنشر أريج المعرفة بين محكوميها، وتعبّق أماكن العلم بتشجيعها ورعايتها، فانتشرت ريّا أقحوان هذه الشّهرة لتتلاقح مع عطور أخرى أسهمت بصورة أو بأخرى في هذه النّهضة؛ منهم أبو الحسن الكانسي الذي ذاعت شهرته في الرّثاء؛ حيث رثي محمد بن سحنون (202 ـ 256 هـ) صاحب المدوّنة الشّهيرة، فقال :

محلٌّ من الإسلام أصبح واهِيا ألا فابْكِ للإسلام إنْ كنت باكيا
تَثَلَّمَ حصْن الدّين فانْهَدَّ رُكْنه عشيّةَ أمسى في المَقابر ثاويا
إمامٌ حَباهُ اللّهُ فضلاً وحكْمةً وفقّهَهُ في الدّين كهْلاً وفانيا
ألا أيُّها النّاعي الذي جلَب الأسى وأوْرثنا الأحْزانَ لا كنتَ ناعيا
نعَيْتَ إمام الصّالحينَ محمّداً وقلت مضى منْ كان للدّين راعيا
ومَنْ كانَ مصْباحاً دليلاً على الهُدى وللصّالحين العالمين مُواليا
ومن كان حبراً عالما ذا فضيلة وأبصرْته سيفا كما قلت ماضيا
فغادَرَ أهل القيْروانِ بوحْشة وكان لهمْ أُنْساً وخِلاً مُواليا[1]

والواقع أنّ الدّارس الذي يهفو إلى التأسيس والتّأْصيل، لا مناص له من أن يمرّ عبر المراحل التّاريخيّة الكبرى التي اتّصلت بالدّول المتتابعة في المغرب العربيّ ؛ حتّى وإن كان الجنوح للتّقسيم

---

[1] - رياض النّفوس : المالكي 1 : 357 .

التّاريخيّ لا يرضاه لنا كثير من الباحثين، فإنّه مع ذلك يساعد الدّارس على الاستئناس به، ولكنْ لا بدّ من الاعتراف بأنّ التّقسيم المقترح لا يخلو من نقد، لأنّه لا يمثّل على وجه الدّقّة المراحل الأدبيّة في المغرب العربيّ، وما نورده فيما يلي ما هو إلاّ وجهات نظر قابلة للأخذ والعطاء؛ علماً بأنّ التّقسيم الذي يعنينا هو الذي يغطّي فترة هذا الموضوع، والتي لا تتجاوز نهاية القرن الثّالث الهجريّ مثلما نصصْنا عليه آنفاً. ونحسب أنّ الأمر لا ينْأى كثيراً عن مرحلتين بارزتين كان لهما الأثر الشّديد على نشأة هذا الأدب وتطوره؛ وهما :

ـ عصر النّشوء الثّقافيّ ؛ وله حقبتان : تبتدئ إحداهما من سنة الفتح الأوّلي وتنتهي تقريباً في سنة 144 هـ لتبدأ الأخرى على رأس السّنة المذكورة، وتنتهي في سنة 184 هـ .

ـ عصر النّهضة الثّقافيّة : وتكون انطلاقته من سنة 184 هـ ونهايته بسنة 296 هـ .

وهذا التّقسيم، ومهما يوجّه إليه من طعن؛ فهو منطقيّ[1]، لأنّه يتّصل بتأسيس دول كان لها الأثر الكبير على هذا الإشعاع هنا، وذلك الضّعف أو الرّكود هناك، لأنّ الأمر يتّصل بدول أسهمت بصورة بارزة في تشييد هذا الصّرح مثلما هو الأمر مع دولة الرّستميّين التي لا يجحد منصف أهمّيّة تشجيعها للأدباء والشّعراء والمثقّفين بعامّة. على حين أنّ الفترة التي سبقتها لم تكن لتبلغ قيمتها، وإن كنّا نعتقد أنّ الأمر ليس ناتجا عن تقصير، أو إهمال؛ بقدر ما هو أمر عاديّ بسبب الاضطرابات والقلاقل من وجهة، وبسبب غياب الأداة الأساسة التي تُنظّر للأدب شعره ونثره؛ وهي غياب الثّقافة، وقلّة المتعلّمين أو النّاطقين باللّغة العربيّة من وجهة أخرى.

---

[1] ـ ارتضى هذا التّقسيم المرحوم رابح بونار في كتابه "المغرب العربيّ : تاريخه وثقافته" وهو التّقسيم الذي ملنا إليه .

وما يستنبطه الدّارس مما تواضعنا عليه بعصر النّهضة الأدبيّة الذي واكب بني الأغلب في إفريقية، ودولة الرّستميّين في تيهرت، هو أنّ السّمة العامّة لثقافته كانت «دينيّة وأدبيّة، ولا نكاد نجد شاعرا إلاّ وكان فقيها أو محدّثا، وهذا الازدواج الثّقافيّ قد أثّر في ملكته السّياسيّة، وخدش موهبته الشّعريّة، فكان شعرهم شعر فقهاء تعوزه قوّة الأسر، وتتخوّنه قوّة التّعبير، وإبداع الخيال. ولا نكاد نستثني منهم سوى بكر بن حمّاد الزّناتي الجزائريّ الذي أفلت من هذا الأثر الطّبيعيّ لموهبته الممتازة، ونبوغه غير المعتاد.»[1]

وهذه المقولة أطلقها رابح بونار من غير ارتكازه على أسس منطقيّة، أو استنتاج علميّ، ذلك أنّ أحدا لا يمكنه الجزم والقطع، فالبحث العلميّ يتحفّظ باستمرار، وينأى عن الحكم المطلق الذي يكون خاليا من البراهين والدّلائل، لأنّه من الإجحاف المرّ، والظّلم الصّارخ أن نستشهد بنصّ أو بضعة نصوص فقط، ثمّ نُصدرَ حكما قاسيا كهذا، فقد تكون ثمّةَ مخطوطات مخبوءة، وعندما يُكتب لها البروز إلى النّور تُلْغي حكمنا، وتُسفّه رأْينا. هذا شيء، وأمّا الشّيء الآخر، فإنّ إشارة الكاتب إلى أنّ شعر الفقهاء لا يرقى في مستواه إلى سلاسة الأسلوب، ورصانة الأفكار، وجمال البيان التي يتوفّر عليها شعر الشّعراء غير الفقهاء، فهو أيضا حكم لا يستند إلى واقع، ولا يرتكز على دعائم، والآية على ذلك أنّ هناك شعراء فقهاء أسَروا المتلقّين بخطابهم، وسحروهم ببيانهم، وحسْبنا أن نذكر في هذه العُجالة ابن خميس التّلمسانيّ، وابن مرزوق الحفيد، والتّنسي، وهلمّ جرّاً. والكاتب مع ذلك معذور، لأنّه تأثّر بمن سبقه من الشّامتين بالشّعراء الفقهاء، من أمثال أحمد المقّري صافح نفح الطّيب الذي كان قد ضرب مثلا وضيعا لذلك مثلما سنتعرّض له أسفله. ودرْءاً للمشاحنة

---

[1] - رابح بونار: م. س. ص 101.

أقول : يجب أوّلاً أن نبحث عن هؤلاء الأدباء والشّعراء الذين ضاع نتاجهم في طيّ الماضي، حتّى إذا ظفرنا بقليل أو كثير منه استطعنا أن نطمئنّ إلى أحكامنا، ونُدرك وكْدنا .

«أمّا بعد ، فإنّ مثلك مثل البعوضة التي قالت للنّحلة وسقطت عليها : استمسكي، فإنّي أريد الطّيران. فقالت النّحلة : ما شعرت بسقوطك فيُكربني طيرانك... ولو لم يبق في المغرب من أهل الطّاعة غيري ما وصلْت أنت فيمن معك ؟ بخلافكم إليه، ولرجوْت أن أظفر بكم بطاعتي، ونُصْرة دولة أمير المومنين، (هارون الرّشيد) أطال الله بقاءه، فكيف وعندي من شيعته، وأبناء أنصاره، يعلم الله أنّي أرجوه أن ينتقم منك على يديه، وأمّا ما ذكرْت عن عليّ بن أبي طالب، رضوان الله عليه، فذلك أمر غاب عنك، وإن كان كما ذكرْت فلست منهم، لأنّ أهل الملّة خلافهم خلاف هوى في نقمة على صَبور، وخلافكم خلاف فرقة في دين، وشقّ عصا المسلمين ... وستعلم وأصحابَك إنْ لقيناكم غداً أنّا سنتبعكم، وإن صبَرْتم فإنّا سنفْنيكم، وأمّا ما ذكر (الفحص) فإن تركْتُك حتّى تصل إليه فإنّي في مثل جلدك.»[1]

والواقع أنّ هذا النّصّ وحده يقوم دليلاً خرّيتاً على شيوع النّثر الفنّيّ وعذوبة عباراته، وجمال صياغته، وروعة بلاغته، فالنّصّ من فنّ الاعتذاريّات، وهو فنّ جميل في الأدب العربيّ، يتّسم برقّة المعنى، وبطلاوة البنى، وحسن التّمثيل، ودقّة الفكرة لإيصال صورة المعتذِر إلى المعتذَر له.

على أنّه وبالرّغم من القدح الذي وُجّه لهذا الأدب، فإنّ الواقع يسجّل بروز شخصيّات ذات قدرة على التّبليغ، وذات يد في فنّ

[1] - رابح بونار: م . س . ص 108 .

الترسّل؛ منهم أبو العبّاس محمد بن أحمد البريدي (ـ 276 هـ) الذي عمل كاتبا في ديوان رسائل إبراهيم الثّاني الأغلبيّ قبل أن يسجنه حانقا عليه بسبب وشاية تناهت إليه عنه؛ فكتب إليه رسالة اعتذاريّة من سجنه يقول فيها :

" من كرم العفو وعلو قدره وجليل خطره، تسمى اللّه عز وجلّ به فسمى نفسه العفو الغفور، والطبع البشري مركب على النقص، مقرون بالزّلل، إلا ما خصّ اللّه به الأنبياء وأودعته السادات الأمراء من طهارة الأخلاق، ونزاهة النفس، ولست أيد اللّه الأمير، ممن يدعي العصمة والبراءة من الهفوة، ولست أمتّ إليك إلا بفضلك علي، وإحسانك إليّ، ولا أعرّفك بل أذكّرك أن من غرس غرسا فواجب ألا يجتثه وإن أبطأ بسوقه، بل يمده بمدّ موارده العذبة؛ حتى تمتد حيطانه، وتورق أغصانه، أعاذك اللّه بما أودعك من معاني الأخلاق، من ترك العفو عن مقر معترف لا يعرف إلا فضلك، ولا يرجو إلا عدلك. ولو كنت، أعز اللّه الأمير، عوانا في الخدمة، لكان عفوك أكبر من ذنبي، وفضلك في حلمك أعظم من جرمي، فكيف وأنا بكر في خدمتك لم أقف على حدودها ولا معرفة أسباب مراتبها؟ فإن يكن ذنب فعلى غير قصد، أو زلّة فليست عند عمد. فما سألتك سؤالا دحضت حجّته، وأحاطت به زلّته، وأوبقه جرمه، فالحظني بعين عفوك، وأضف عليّ ستر نعمتك، وأقول أعز اللّه الأمير :

هبتني أسأت فأين العفو والكرم   قد قادني نحوك الإذعان والندم

يا خير من مدّت الأيدي إليه أما   ترثي لمن بكاه عندك الإذعان والندم

بالغت في الصفح فاصفح صفح مقتدر   إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا[1]

---

[1]. المنتخبات الأدبية : حسن حسني عبدالوهاب، ص 21، المغرب العربي : رابح بونار، ص 104 - 105.

كما أنّ الخلفاء والحكّام، مثلما أكّدْناهُ آنفاً، كانوا أُدباء شعراء، على غرار مؤسّس الدّولة الأغْلبيّة إبراهيم بن الأغلب أحد أعْمدة الشّعر والأدب في هرم تلك الدّولة؛ ومن آثاره النّصّ الآتي الذي كتب به إلى خريش الكندي أحد الخارجين عليه سنة 186هـ بإحدى مدن إفريقية نُثْبته له هاهنا من غير تحليل يقول فيه :

« أمّا بعد، فإنّ مثلك مثل البعوضة التي قالت للنّحلة وسقطت عليها: استمسكي، فإنّي أريد الطّيران. فقالت النّحلة: ما شعرت بسقوطك فيُكربني طيرانك ... ولو لم يبق في المغرب من أهل الطّاعة غيري ما وصلْت أنت فيمن معك؟ بخلافكم إليه، ولرجوْت أن أظفر بكم بطاعتي، ونُصْرة دولة أمير المومنين ، (هارون الرّشيد) أطال الله بقاءه، فكيف وعندي من شيعته، وأبناء أنصاره، يعلم الله أنّي أرجوه أن ينتقم منك على يديه، وأمّا ما ذكرْت عن عليّ بن أبي طالب ، رضوان الله عليه، فذلك أمر غاب عنك، وإن كان كما ذكرْت فلست منهم، لأنّ أهل الملّة خلافهم خلاف هوى في نقمة على صَبور، وخلافكم خلاف فرقة في دين، وشقّ عصا المسلمين ... وستعلم وأصحابَك إنْ لقيناكم غداً أنّا سنتْبعكم، وإن صبَرْتم فإنّا سنفنْيكم، وأمّا ما ذكر (الفحص) فإن تركتُك حتّى تصل إليه فإنّي في مثل جلدك . »[1]

أمّا الشّعر في الحقبة المذكورة فلعلّه هو الأكثر شأناً وشيوعاً حيث وصلت إلى أيدينا نماذج لشعراء امتازوا بطلاوة البيان، وجمال الأسلوب، ورقّة التّعبير، وهم أصناف ثلاثة مثلما يستشفّه الباحث من سيرهم، حيث صنّفهم رابح بونار إلى ثلاثة أقسام :

---

[1]- رابح بونار : م. س. ص 108.

أمّا الشّعر في الحقبة المذكورة فلعلّه هو الأكثر شأناً وشيوعاً حيث وصلت إلى أيدينا نماذج لشعراء امتازوا بطلاوة البيان، وجمال الأسلوب، ورقّة التّعبير، وهم أصناف ثلاثة مثلما يستشفّه الباحث من سيرهم، حيث صنّفهم رابح بونار إلى ثلاثة أقسام :

أ ـ الشّعراء الأمراء ونُظراؤهم.

ب ـ الشّعراء الفقهاء والزّهّاد والمتصوّفة.

جـ ـ الشّعراء الأدباء[1]

أ ـ الشّعراء الأمراء

ومن هؤلاء الشّعراء الأمراء يرد ذكر إبراهيم بن الأغلب[2] الذي كان مؤسّسا لدولة الأغالبة، ويروي له الرّواة شعرا قاله في الفخر خصوصا بعد انتصاره على الخارجين عنه؛ ومن هؤلاء الشّعراء أيضاً أبو العبّاس الأغلبيّ الذي طرق أغراضا شتّى، وأنشأ مقطوعات وقصائد في مختلف الموضوعات؛ ومن شعره في الفخر الذّاتي الذي تطغى عليه المبالغةوالنّرجسيّة والتّعصّب للأسرة والقبيلة قوله :

أليس أبي وجدّي أوطانـي وجدٌّ أبي وعمّاتي الرّقابـا
ورثْت الملك والسّلطان عنهم فصرْتُ أعزّ مَنْ وَطئَ التّرابا
وقدّمني الخلائق واصطفَوْني فمن مثلي قديماً وانتسابـا

وبعد أن تسامى بأسرته وبنفسه في النّسب انتقل إلى شجاعته التي لا تُتطاوَل؛ والتي يعرفها أعداؤه الذين حاولوا النّيل منه فأصابهم ما أصابهم من سيفه البتّار:

---

[1] ـ يراجع م . س . ص 107 .

إذا نقّبْت عن كرمي ومجدي وجدْتَني المُصاصةَ واللُّبابا[1]
أنا الملك الذي أيّدْتُ ملكـي بسيفي إذا كشفْت به الضّبّابا[2]
لقد فتح المهيمن لي بسيفـي وإقْدامي إذا ما الجمعُ هابا
أنمْتُ به أبا حمزة حين دبّتْ عقارب غدره وسعى فخابا
أسلْتُ به دم الأوداج عنـه فصار لشيب لحيته خِضابا[3]

ثمّ تحدّث عن حمايته لأهله ومحافظته على عشيرته وأهله مع التّنويه بشيمه العالية، وصفاته البارزة ؛ فقال :

أُظلّ عشيرتي بجناح عزّي وأمنحها الكرامة والثّوابـا
وأصطنع الرّجال وأطّبيهم وأغفـر للمسيء إذا أنابـا
وأسمو بالخميس إلـى الأعادي فأكسر بالعِقـاب لها العُقـابا
أنا ابن الحرب ربّتْنـي وليداً إلى أنْ صرْتُ ممْتلئاً شبابـا
لعمْرُ أبيك ما إنْ عبْتُ قـومي وما أخْشـى بقومي أنْ أُعـابا
بنَيْتُ لهمْ مكـارمَ باقيـاتٍ إذا ما صارت الدّنيا خـرابا[4]

ويمكن القول إنّ الأدب الجزائريّ في هذه الفترة عرف بعض الأعلام الذين كان لهم أثر على تطوّر الأغراض والموضوعات بعامّة، ومنهم الإمام أفلح بن عبد الوهّاب الرّستميّ الذي تولّى الملك ما بين 238 هـ و241 هـ بتيهرت، وكان إباضيّا وله مساهمات في نظم الشّعر

[1] - هكذا ورد البيت، والتّكسير فيه واضح جليّ. والمصاصة: ما يُمصّ.
[2] - الجفن: ج. أجفان وجفون وأجْفن : غِمد السّيف.
[3] - م. س. ص 110.
[4] - م. ن. ص 110 .

بغضّ النّظر عن قيمته الفنيّة، ومن شعره الذي هو أقرب إلى التّعليميّ منه إلى الوجدانيّ قوله متحدّثاً عن فضائل العلم :

العلمُ أبقى لأهل العلم آثارا يُريك أشخاصهم زوْجاً وأبكارا
حيٌّ وإنْ مات ذو علْم وذو ورع ما مات عبد قضى منْ ذاك أوطارا
وذو حياةٍ على جهل ومنقصةٍ كميّتٍ قدْ ثوى في الرّمْس أعصارا[1]

ب ـ الشّعراء الفقهاء :

وللشّعراء الفقهاء نصيبهم في الإسهام الفعليّ للحركة الأدبيّة والنّقديّة في البدايات الأولى لظهورهما، بل يكادون يكونون هم الغالبيّة العظمى التي تمثّل تاريخ الأدب المغربيّ القديم ؛ ومن هؤلاء الشّعراء يجدر ذكر الفقيه الشّاعر القيروانيّ أحمد الصّوّاف الذي عاش ما بين 204 هـ و291 هـ، وكان أحد تلاميذ الإمام سحنون المتوفّى سنة 240 هـ[2] ومن شعره :

سألْبسُ للصبْر ثوْباً جميلا وأفْتلُ للصبر حبلاً طويلا
وأصْبرُ بالرّغم لا بالرّضى وأخلصُ نفسي قليلاً قليلا[3]

وقال كاشفا عن حالته في شيخوخته، ومتحدّثاً عن طبيعته وصورته في هذه السّنّ :

ولمّا حجا عُمري ثمانين حجّةً وأيقنْتُ أنّي قد قرُبْت من المدى
تركْتُ تكاليف الحياةِ لأهلها وجانبْتُها طوْعاً فجانبني الرّدى

---

[1] ـ الأزهار الرّياضيّة : الباروني ، ط . القاهرة 1324 هـ ، ص 108 . والأعصار: ج عصر: الدّهر .
[2] ـ يراجع " المغرب العربيّ : تاريخه وثقافته " : رابح بونار، ص 112 .
[3] ـ م . ن . ص 112.

رأيت حليم القوم فيهمْ مُقدّماً ومن نالَ علماً نالَ جاهاً وسؤددا
أُراني بحمد الله في المال زاهداً وفي شرف الدّنيا وفي العزّ أزْهدا
تخلّيْتُ عنْ دُنْيايَ إلاّ ثلاثةً دفاترَ علمٍ، ثمّ بيتاً، ومسجدا
عنيت بها عن كلّ شيء حويْته وكنت بها وأقنى وأسعدا
وقدْ ذمّ قومٌ ما فعلْتُ جهالةً فعَدّوا مع الجُهّال في الجهل أحمدا
ولو فهموا رأْيي وأمري لأبصروا وقالوا نرى رأْياً سديداً مُسدّدا[1]

ومن الشّعراء الفقهاء في القيروان أيضاً عيسى بن مسكين (214 ـ257 هـ) الذي كان شعره يمتاز برونق الأسلوب، وجمال اللّفظ، ورقّة الوِجْدان مثلما وصلَنا عنه في التّحسّر على شبابه الذّاهب، وأيّامه الحلوة الرّائقة وهو يتقلّب في عزّه ؛ حيث قال متذكّراً :

لعمْرُكَ يا شبابي لو وجَدْتُكْ بما ملَكَتْ يمينيَ لارْتجَعْتُكْ
ولو جُعلتْ ليَ الدُّنيا ثواباً وما فيها عليك، لما وهَبْتُكْ
فقدْتُكَ فافْتقدْتُ لذيذ نومي وطيبَ معيشتي لمّا فقَدْتُكْ
ونُحتُكَ وانْتحبْتُ عليكَ دهْراً فلمْ تُغْنِ النّياحَةُ حينَ نُحْتُكْ[2]

ج ـ الشّعراء الأدباء :

مهّدْنا بصنفيْن من الشّعراء أحدهما كان ذا صبغة رسميّة، والآخر كان شعرا يطبعه الفقه، ويسِمه الدّين بميسمه، فهو رصين متّزن لا يفقده الوجْد وعيه، ولا يخرجه الشّوق أو الوصف أو الغزل عن طوره. مهّدْنا بذيْنك لنصل إلى القسم الثّالث الذي كان فيه

---

[1] ـ حسن حسني عبد الوهّاب : المنتخبات، ص 27.
[2] ـ م . س. ص 27 .

الشّعراء طُلقاء من أسْر ما أشرْنا إليه، فلا هم أمراء فيتحفّظون، ولا هم فقهاء فيتحرّجون؛ ولذلك يمكن أن نقف عند هؤلاء الشّعراء وقفة نقديّة تحليليّة لنرى إن كانوا قد استوفوْا ما يشترطه النّقاد في الشّعر، وما يميلون إليه من قواعد متّفق عليها، ونظريّات شبه شائعة؛ ومن هؤلاء :

بكر بن حمّاد الزّناتي التّيهرْتيّ (200 ـ 295 هـ) الذي جاء بعد إبراهيم بن الأغلب وعاصر أفلح بن عبد الوهّاب، ولشعره ميزات وخصائص فنّيّة ما كان لهذا البحث في هذه العُجالة أن يوفّيه حقّه، بل نرى أنّه يجب أن تُخصّص له دراسة مستقلّة، ولم لا ملتقى وطنيٌّ خاصّ بشعره في مختلف الأغراض والموضوعات والقضايا الفنّيّة المتعلّقة بخطابه الشّعريّ عموماً، أضفْ إلى ذلك أنّه الشّاعر الذي تعرف البطحاء وقفاته، ويعرفه المشرق والمغرب، وهو النّابغة الذي ذاع اسمه في الأدب العربيّ بين الجامعيّين والباحثين؛ وله ديوان شعر مطبوع يعدّ مصدرا أساسا يمكن للدّارسين أن يستعينوا به للولوج إلى شخصيّة الشّاعر، والوصول إلى حقائق متجدّدة عنه.

كلمة أخيرة :

لقد عانى الأدب العربيّ في هذه الدّيار المغربيّة من إهمال وتجاهل ليس في مجال البحوث الجامعيّة فقط، بل حتّى في مجال كتب تاريخ الأدب العربيّ التي يزعم أصحابها أنّهم يؤرّخون لهذا الأدب في العالم العربيّ، على حين أنّهم لم يذكروا إلاّ نُتفاً له من أقطار عربيّة عيّنة، وما يرد في كتبهم غالبا يكاد يعرفه الخاصّ والعامّ. أضفْ إلى ذلك أنّ شهرة الأسماء التي اعتمد عليها المؤرّخون

للأدب لم تكن بالضّرورة هي الأمثل ولا الأقوم، ولكنْ لاعْتبارات أخرى أسهمت في شهرتها، ولاسيّما السّياسيّة منها مثلما يؤكّده عبّاس الجراري في قوله : « أمّا الكتب المدرسيّة التي يزعم أصحابها أنّهم يضعون بها تاريخا للأدب العربيّ، فإنّ قارئها لا يلبث أن يُحسّ غيابا مطلقا لبعض الأقاليم العربيّة، ولاسيّما المغرب، وأن ينتهي من قراءتها - نتيجة هذا الفراغ المهول - إلى إدراك الخلل الذي تعاني منه منهجا ومادّة، والسّبب أنّها تؤرّخ للأدب، وَفْقَ نظريّة تعتمد ربط الأدب بالسّياسة، وبالسّياسة في منطقة معيّنة، وأنّها مهما تكن، لا تنهض بأحداثها وتطوّراتها المفاجئة مقياساً للأدب أو موجّهاً له [...] ونتج عن ذلك أن أُهملت بعض البلاد، وحُكم على عصور بالازدهار، وعلى أخرى بالانحطاط»[1]

والجدير ذكره أنّ معظم الأمراء والملوك والحكّام في المغرب العربيّ كانوا فقهاء أدباء، وقد يكون هذا هو السّرّ في العثور على أعداد غير معدودة من الشّعراء الفقهاء إلى درجة أنْ زعم أحمد المقّري صاحب نفح الطّيب أنّ «ملكة العلوم النّظريّة قاصرة على البلاد المشرقيّة، ولا عناية لحذّاق القرويّين والإفريقيّين إلاّ بتحقيق الفقه.»[2]

وعلى الرّغم ممّا نشتمّه في هذا القول من تحامل على المغاربة بتجريدهم من العلوم العقليّة والفنّيّة[3]، فإنّه يؤكّد ما ذهبنا إليه آنفاً من أنّ الثّقافة كانت سائدة هذه الأقاليم في مختلف البلاطات،

---

[1] - الأدب المغربيّ من خلال ظواهره وقضاياه 1 : 7.

[2] - أزهار الرّياض - ط. حجريّة - 3 : 2 .

[3] - تُراجع أطروحتنا" شعر الفقهاء في المغرب العربيّ : جمع ودراسة". مخطوطة مرقونة - كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة (جامعة تلمسان).

والدّوائر الرّسميّة للدّولة، وهو ما يفسّر العناية الكبرى التي أولاها حكّام المغرب العربيّ الأدب والشّعر والفقه بعامّة .

وأخيراً، فإنّنا نستنتج ممّا ذُكر أنّ الأدب القديم في المغرب العربيّ يحتاج إلى اهتمام أكبر من الدّارسين والباحثين ومراكز البحث والمخابر العلميّة ؛ وتلكم هي أحد الأسباب التي دعتنا إلى تنظيم هذا الملتقى الأوّل من نوعه، والذي ستكون له انعكاسات إيجابيّة على مسار الأدب العربيّ في هذه الدّيار المغربيّة بلا ريب؛ أو هذا ما نطمح إليه على الأقلّ ؛ إن لم يكن اليوم فغداً ؛ وإنّ غداً لناظره قريب .

أعلام الأساتذة المدرّسين بتلمسان
(في الخمسيّة الهجريّة الثّانية)

ينطلق تركيزنا على" تلمسان "وحدَها من عدّة دواعٍ موضوعيّة وذاتيّة هي :

1 ـ إنّ تناول كل"الأساتذة المدرّسين في المغرب الأوسط، في شموليّة وتفصيل،أمر لا يمكن تحقيقه بسبب النّقص الفادح في المرجعيّة من وجهة، وبسبب ما يتطلّبه مثل هذا العمل من فسْحة في الوقت، وهذا الأمر لا يتأتّى بسهولة من وجهة أخرى .

2 ـ لا بدّ من الاعتراف والجهر بالقول إنّ عملاً مثل هذا يجب أن تتوفّر له الظّروف المادّية والعوامل البشريّة حتّى يتسنّى له أن يقف على سوقه .

3 ـ إنّ تحديد فضاء الموضوع وتخصيصه بتلمسان فقط، نراه أصلح منهجاً، وأكثر جَدْاءً.

4 ـ الإيمان بقيمة هذه المدينة الحضاريّة وبوفْرة مفكّريها وغِنى ثقافتها، وبروز دورها في محافل ومجالات مختلفة.

5 ـ إسْهام هذه المدينة في بلْورة الحضارة العربيّة الإسلاميّة في الغرب الإسلاميّ من فاس إلى الأندلس .

6 ـ الرّحْلات المتعدّدة لمفكّريها عبْرَ أقطار المغرب العربيّ أو الغرب الإسلاميّ كلّه، حيث كانوا خير سفراء لبلدهم، وصلة وصْل لَمّتْ شمل هذه الأقطار بعضها ببعض، ووحّدت بين علمائها ومدرّسيها، فأذابت المذاهب المتناحرة، وأبادت الفُرقة، وزرعت بذور الأُلْفة.

7 ـ لقد قطَنت هذه المدينةَ أُسَرٌ توارثت العلم ولداً عن والد، وحفيداً عن جدّ من أمثال المقرّيين، والمَرازقة، والعُقْبانيّين ...

وعاملٌ أخير، يتمثّل في إشْرافي على فرقة بحث تابعة لقسم اللّغة العربيّة وآدابها عن" أعلام تلمسان" منذ سنة 1994م، حيث أنجزنا جزءاً منه، ولا يزال قسم كبير في الانتظار. وهنا أفتح قوساً لأعرب عن تضايقي من عدم وجود علاقة بيننا وبين بلديّات تلمسان وولايتها، لأنّ الأمر لا يخصّنا وحدنا، وقد يكون ذلك ناتجا عن عدم وجود علاقة وثيقة بين الجامعة والمحيط الخارجيّ. ولا بدّ من التّأكيد تارة أخرى بأنّ الأعلام المدرّسين بالمغرب الأوسط لا يمكن لأحد أن يوفّيهم حقّهم، ويجمع شتاتهم، ليس عجزا ولا تخاذلا، ولكنْ سَدَراً وشَدَهاً إزاء تعدّدهم وتوزّع أسمائهم على مختلف المصادر والمراجع التي ما يبرح معظمها مخطوطاً مخْتفياً عند أسرة ما، أو مركز ثقافيّ قد لا يُعار له أدنى اهتمام، وقد " يوجد في النّهر ما لا يوجد في البحر ".

وأعود إلى الموضوع فأقول : إنّ تأْصيل الأدب الجزائريّ القديم، والبحثَ في مُنْجَزات العلماء ليس بالأمر الهيّن، ولذلك فإنّ ما أقدّمه في هذا المضمار، ما هو إلاّ جَهد المُقلّ؛ لا يزعم لنفسه الإحاطة، ولا يدّعي الشّموليّة .

والتزاماً بالمنهجيّة، فإنّي أحاول تحديد المحاور التي ستتناولها هذه المداخلة ؛ والتي تنطلق من تحديد المراكز الثّقافيّة التي كانت مَحَجّا للعلماء المدرّسين، مع إبراز أهمّ المدارس التي كانت في تلمسان، ونختم بعد ذلك بتناول تراجم لأعلام ذاعت شهرتهم في التّدريس، وقدّموا لأجيالهم عُصارة علمهم، وثمرة جهودهم.

أوّلاً : المراكز الثّقافيّة :

لقد عرفت الجزائر عبْر جهاتها المختلفة مراكز ثقافيّة (في الشّرق والغرب والوسط) يعسر الإلمام بها ، أو حصْرها في هذه العُجالة إمّا بسبب نُدْرة المرجعيّة، وإمّا غيابها بالنّسبة لنا. ولذلك سنقف عند المراكز الأولى التي اشتهرت بعلمائها ومدرّسيها في الخمسيّة الهجريّة الثّانية، وسنقف بالتّحديد عند مدارس بجاية (عاصمة الحمّاديّين يومئذ) وتيهرت بصفتها العاصمة الأولى للجزائر بعد الفتح الإسلاميّ، ثمّ تلمسان التي ظلّت لقرون عاصمة الزّيانيّين، ووقوفنا عند أهمّ العواصم الحضاريّة للجزائر نريد من ورائه إثبات قول ابن خلدون الذي يقرّر فيه أنّ العلوم تكثر حيث يكثر العُمران[1].

ولا بدّ من التّوضيح، بأنّ أهمّ المراكز الثّقافيّة في المغرب الأوسط لم تتحصر فيما سنتناوله، وإنّما قد كانت هناك مراكز ثقافيّة أخرى قائمة بذاتها في كلّ من الجزائر العاصمة، وتنّس، وقسنطينة، وهي في جملتها مراكز حضاريّة أنجبت أعلاماً نوابغ أشاعوا النّور في مختلف الأرجاء[2]، وطفت أسماؤهم فوق سماء الشّهرة، فأفشت سرّ رحيقها، وبعثت بأريج فكرها إلى كلّ حدب وصوب.

1

---

[1] - تنظر" المقدّمة " ط . الدّار التّونسيّة للنّشر / المؤسّسة الوطنيّة للكتاب - الجزائر ط 1/ 1984 - ج 2 ص 526.

[2] - أوردها المؤرّخ عبد الرّحمن الجيلالي مرتّبةً (تاريخيّاً) على النّحو الآتي: طبْنة، تيهرت، المسيلة، القلعة الحمّاديّة، بجاية، وهران، تنّس، بسكرة، ورجلة، وأخيراً تلمسان التي فيها كان استقرار العلوم النّظريّة والتّطبيقيّة - ينظر: تاريخ الجزائر العامّ - دار الثّقافة - بيروت ط4 / 1400هـ (1980م) ج 2 ص 248 .

- تيهرت :

أسّس الرّسْتميّون هذه المملكة في وقت مبكّر؛ أي سنة 144 هـ، فهي المدينة الأولى، أو العاصمة الأولى للجزائر بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ عُنيَ فيها مؤسّسوها بكلّ المقوّمات الحضاريّة التي لا بدّ أن تتوفّر في دولة ما، أو أمّة ما ؛ ومن هذه المقوّمات محور العلوم والآداب التي كانت أهمّ مميّزات هذه الدّولة مثلما نصَّ عليه الدّارسون والمؤرّخون؛ منهم مبارك الميلي الذي قال : "عُنيَ الرّسْتُميّون بنقْل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكريّة الإسلاميّة، ولكنّ عنايتهم بالعلوم الدّينيّة أشدّ، فكانوا أئمّة في العلم، كما كانوا أئمّة في السّياسة يتدارسون التّفسير والحديث والفقه والكلام والأخبار والأشعار والعلوم الرّياضيّة، واشْتهروا بالتّنجيم والرّمل "[1]

وممّا زاد في بعث نشاط خلايا الحركة الثّقافيّة وتطويرها، هو أنّ عبد الرّحمن بن رستم نفسه كان مفسّراً وتمكّن من تأْليف كتاب في هذا الفنّ، وأنّ ابنه عبد الوهّاب كان نابغة زمانه في العلوم الدّينيّة، على حين ترك أفْلح بن عبد الوهّاب بصمات جليّةً على الشّعر والأرجاز والأدب بعامّة .

وكان من أئمّة الرّسْتميّين من انتصَبوا للتّدريس بالمساجد العامّة، إلاّ أنّ ما لا ينساه التاريخ، هو أنّ حكّام تيهرت استطاعوا أن يُنشئوا مكتبة سمّوْها (المعْصومة) حوتْ آلافاً مؤلّفة من المجلّدات في مختلف فنون العلم، وصنوف المعارف.

---

[1] - تاريخ الجزائر في القديم والحديث - مكتبة النّهضة الجزائريّة - الجزائر ، د . ط / 1963 م ج 2 ص 67.

وما نؤكّده أخيراً هو أنّ هذه المدينة عرفت عشرات المدرّسين وأماكن تدريس - وإن لم تعرف تسمية مدرسة - فقد كانت حِلق العلم قائمة، وكان التّنافس بين المثقّفين على أشدّه ممّا أثرى الحركة الثّقافيّة، وزادها رونقاً وإشراقاً .

2 - بجاية :

لقد عرفت هذه المدينة ازدهاراً وحضارة عظيمين، منذ أن أصبحت عاصمة الحمّاديّين، ولاسيّما في عهد المنصور الحمّاديّ (481 - 498هـ) حيث كانت تضمّ اثنين وسبعين مسجداً، وظلّ ازدهارها يتألّق في اطّراد إلى أن بلغ أوْجَهُ في أثناء القرنين السّادس والسّابع الهجريّيْن، حيث غدت تعُجّ بترْسانة من علماء الفقه والكلام والتّصوّف والفكر والأدب وعلوم اللّغة. واستطاعت في قمّة نشاطها واكتمال نُمُوّها أن تنافس (مرّاكش) في المجاليْن: العلميّ والأدبيّ، مثلما ينصّ عليه الغُبْريني [1] .

3 - تلمسان :

إنّ هذه المدينة غنيّة عن الذّكر والوقوفِ عند مآثرها، ولولا أنّنا لا نكتب لزماننا ولا لمكاننا فقط، لما وقفنا عندها، لأنّنا نحيا فيها ومقْتنعون بأنّ كلّ موطن من مواطنها، أو حيّ من أحيائها؛ إلاّ وهو مزْدان بضريح عالم نحْرير، أو فقيه أريب، أو شاعر مُفْلق؛ يصفها يحيى بن خلدون فيقول : «بها قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، والصّروح الشّاهقة، والبساتين الرّائقة، ممّا زُخْرفت غروشه، ونُمّقت غُروسه، وتناسبت أطْواله وعُروضه، فأزْرى بالخَوَرْنق،

[1] - عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المئة السّابعة ببجاية - تحقيق: رابح بونار - الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع - الجزائر، د . ط / 1970م - ص 37 .

وأخْجَلَ الرُّصافة، وعبث بالسّدير. وتحفّ بخارجها الخمائل الألفاف، والأدْواح الأشِبَة، والحدائق الغُلْب، بما تشْتهيه الأنفس وتلذّ الأعْين، من الفواكه والرّمّان، والتّين والزّيتون. وتنْصبّ إليها من علِ أنهار من ماء غير آسِنٍ تتجاذبه أيدي المَذانب والأسْراب المكْفوزة[1] خلالَها، ثمّ ترْسله بالمساجد والمدارس والسّقّايات، فالقصورِ وعِلّيّة الدّور والحمّامات ... فهي التي سَحَرت الألباب رُواءً، وأصبَت[2] النُّهى جمالاً... »[3]

إنّه الوصف الذي خُصّت به تلمسان على عهد الزّيانيّين حين وصلت إلى أعلى قِمم الجمال، وبلغت ذُرى المجد والمثال، بل ما تبرح بها معظم الأوصاف التي أضفاها عليها يحيى بن خلدون ماثلة إلى الآن ! .

أمّا شقيقه العالم الاجتماعيّ (عبد الرّحمن) فقد تحدّث عنها على عهد الموحّدين قبل أن يزكّي وصف أخيه فقال : «ولم يزل عمران تلمسان يتزايد، وخُطّتها تتّسع. الصُّروحُ بها بالآجر والفِهْر تُعْلى وتُشاد - أيْ على عهد الموحّدين - إلى أن نزلها آل زيان واتّخذوها داراً لملكهم وكرسيّاً لسلطانهم، فاخْتطّوا بها القصور المونقة، والمنازل الجميلة، واغْترسوا الرّياض والبساتين، وأجْروْا خلالها المياه، فأصبحت أعظم أمصار المغرب، ورحل إليها النّاس من القاصية، ونَفِقت بها أسواق العلوم والصّنائع، فنشأ بها العلماء، واشتهر فيها الأعلام.»[4]

---

1 - كَفَرَ يَكْفُرُ كَفْراً وكُفْراً الشّيْءَ : ستَرَه وغطّاهُ .

2 - أصبَى الشّيْءُ فلاناً: شاقَهُ واستَهْواهُ فَحَنَّ إليه / وكذلك : تصبّى .

3 - بغْية الرّوّاد في ذكْر الملوك من بني عبد الواد - تحقيق: د. عبد الحميد حاجيات. ط. المكتبة الوطنيّة - الجزائر، د . ط / 1400 هـ (1980 م) - ج1 ص 86 .

4 - تاريخ ابن خلدون - ط . بولاق 1284 هـ - ج 7 ص 78 .

هذه المدينة التي ظلّت مزدهرة تحت ظلّ الزّيانيّين (633 ـ 957 هـ) تُضاهي الأمصار الإسلاميّة لأكثر من ثلاثة قرون؛ لا بدّ أن تجتمع فيها كلّ آيات الحسن، وسِمات الجمال؛ وينبت عبْر بيوتاتها وأزقّتها العلماء والمفكّرون... وممّا لا يتجادل فيه اثنان، أنّ كلّ من يطّلع على هذا الإرْث الهائل من الفكر والثّقافة في هذه المدينة الشامخة لا يملك نفسه من الوقوف مُعْتبراً؛ بل مفتخراً بما أنجبته هذه البقعة التي كلّما خطونا خُطْوات هنا وهناك ؛ إلاّ ووجَبَ علينا أن نرتعش ونتأثّر، لأنّنا قد نكون ننتقل في الموطن الذي وطئه يوماً ما ابن خميس، وابن خلدون، وابن مرزوق، والمقري، والعقباني، وابن زكري، والتّنسي، والمصمودي، وابن مريم، والقائمة طويلة...

ثانياً : المـدارس : *

لعلّ أوّل سؤال يفرض نفسه، هو : متى عرف المغرب الأوسط أولى مدرسة ؟ ومثْل هذا السّؤال ليس أسْهلُ ولا أيسرُ من إلقائه، ولكنّ الجواب عنه أعقد وأعسر، لأنّ التّسرّع قد يوقِع صاحبه في إشْكالات مختلفة، وفرضيّات متباينة، ولاسيّما أنّ معظم المؤرّخين تجاهلوا هذه القضيّة فلم يكلّفوا أنفسهم عَناء البحث فيها. ومن هذه الفرضيّة التي طرحناها، كان علينا أن نتحرّز كثيرا ونحتاط للأمر من قبل أن نسمح للمزير بالتّخطيط.

عدنا إلى بعض المصادر التي تناولت الفترات المختلفة للدّول التي تعاقبت على الجزائر، فلم نكد نحصل على شيء ذي غَناء. بيد أنّ

---

* ذكر مبارك الميلي (تاريخ الجزائر) أنّ أوّل مدرسة أُسّست في الإسلام كانت بنيسبور أواخر القرن الرّابع الهجريّ، وأنّ أوّل من عَمَّمَ بناء المدارس إنّما هو الوزير نظام الملك المتوفّى سنة 485 هـ

بعضها الآخر كان مؤلّفها ذا مستوىً فكريّ ومستوى عقليّ معاً فلم تفته هذه المأْثُرة التي هي عنوان التّقدّم، وسِمة التّحضّر. ومن هؤلاء المسْتنيرين نجد الأديب الشّاعر الفقيه ابن مرزوق الخطيب (ـ 781 هـ) الذي قال في مِعْراض التّقْريض للملك المرينيّ أبي يوسف يعقوب : «إنّ إنشاء المدارس كان في المغرب غير معروف، حتّى أنشأ مولانا المجاهد الملك العابد أبو يوسف يعقوب بن عبد الحقّ مدرسة الحَلْفائيّين بفاس (مدرسة الصّفّارين 668 هـ/1270 م). غير أنّنا نرى القوم يومئذ تغْلب عليهم علوم الشّريعة والدّين، ولا حظّ لهم في غيرها من الفنون العقليّة إلاّ قليلاً ممّا جاءهم من علماء أندلسيّين أو مشارقة، وذلك لأنّ العلوم الفلسفيّة نشأت هنا على أيدي أفراد متفرّقين، حرّكتْهم الرّغبة إليها، فهم متفرّقون لا ترْبطهم مجالس. وهم فوق ذلك تحت رقابة من علماء الرّسوم المتزمّتين.»[1]

وقول الخطيب ابن مرزوق هذا ينعى فيه على الطّريقة التي كانت تُتّبع في التّدريس، وهي طريقة قلّما سلمت من القدح والتّشْنيع والتّضايُق بها، وربّما الزّهْدِ في التّعلّم ثمّ النّفور منه، وهذا ما جعل بعض المغربيّين يذهب إلى القول : «القراءة (التّدريس) تصحيح المتْن، وتبْيين ما أُشْكل، وتتْميم ما نقص، وما زاد عليه فَضَرَرُهُ على المتعلّم أكثر من نفعه»[2].

---

[1] ـ المُسْند الصّحيح الحسن في محاسن مولانا أبي الحسن ط. الجزائر 1401 هـ/ 1981 م.

[2] ـ نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج : أحمد بابا التّنبكتي ـ منشورات كليّة الدّعوة الإسلاميّة ـ طرابلس، ط 1/ 1989 م ـ ص 89 .

وتعرَّضَ ابن خلدون لصناعة التّعليم، فاستحسنَ طرائق التّدريس في تونس وبجاية وتلمسان، ولكنّه انتقدَ تعليم فاس لأنّه ـ في نظره ـ لا يُكْسب متعلّمه مَلَكَةَ، ولا يفتّق له لسانا، ولا يقرّب مطْلوباً[1].

ولم يُغفل المفكّر الاجتماعيّ ذكر العلماء والإشادة بهم، ولاسيّما أولئك الذين تركوا بصماتهم واضحات ليس على عصرهم وحده، ولكنْ على العصور اللاّحقة من أمثال : الشّريف التّلمساني، وسعيد بن محمد العقباني حيث أكّد أنّ طريقة التّعليم انتهت إليهما، وتوفّرت فيهما مَلَكَة التّلقّي، لكونهما ألّفا التّصانيف البعيدة، وزاحَما رتبة الاجتهاد من غير منازع[2].

وكان القاضي أبو عبد الله المقري التّلمساني المتوفّى بفاس عام 758 هـ قد انتقد طريقة التّدريس على عهده فنقل رأي شيخه وأستاذه الآبلي (ـ 757هـ) قال فيه : «إنّما أَفْسَدَ العلْمَ كثْرةُ التّواليف، وإنّما أذْهَبَه بنيان المدارس»[3].

ثمّ قال بعد ذلك : «وقد اقتصرَ أهل هذه المئة على حفظ ما قلّ لفظه، ونزُرَ حظّه، وأفنوْا أعمارهم في فهم رموزه، وحلّ لغوزه[4]، ولم يصلوا إلى ردّ ما فيه إلى أصوله بالتّصحيح، فضلاً عن معرفة الضّعيف من ذلك والصّحيح.»[5]

---

[1] - تنظر « المقدّمة » ط . بولاق 1274 هـ ص ص 205 ـ 206 .

[2] - عن تاريخ الجزائر العامّ : عبد الرّحمن الجيلالي 2 : 248 .

[3] - البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان : ابن مريم التّلمساني ـ تحقيق: محمد بن أبي شنب ـ ط . المطبعة الثّعالبيّة ـ الجزائر د . ط 1326 هـ (1908 م) ـ ص 216 .

[4] - هذا الجمع لا وجود له في المعاجم والقواميس اللّغويّة العربيّة .

[5] - عن تاريخ الجزائر العامّ : م.ن. 2 : 249 .

وتحدّث الغبريني (ـ 704هـ) عن جانب من هذه الطّرائق وهو يترجم لأبي بكر بن سيّد النّاس الإشْبيليّ نزيلِ بجاية المتوفّى بتونس عام 659 هـ فقال : «كان إذا قرأ الحديث يُسْنده إلى النّبيّ (ص)، ثمّ يأخذ في ذكر رجاله من الصّحابيّ إلى مشيخة كلّ واحد باسمه ونسبه وصفته وولادته ووفاته، ولا يزال يتبعهم واحداً واحداً إلى أن ينتهي إلى شيخه فيقول : أمّا فلان شيخنا، ويذْكر ما ذَكَرَ فيمن تقدّم، ويزيد على ذلك بأنّه لقيه وقرأ عليه كذا، وسمع منه كذا، وبعد الفراغ من ذلك يذْكر لغة الحديث وعربيّته، ويتعرّض لما فيه من الفقه والخلاف العالي.»[1]

مدرسة بجايـة :

يعسر الحديث عن هذه المدرسة بتدقيق وتفصيل ؛ فهي ليست مثل مدرسة تلمسان التي كثر توثيقها وتعدّد َالحديث عنها في مختلف الموسوعات والمؤلّفات؛ ولذلك لا نستطيع أن نذهب بعيداً في الحديث عنها ونقتصر على ما اقتطعناه واقتبسناه من بعض النّصوص عَرَضاً :

فقد التجأ إليها عدد هائل من العلماء الأندلسيّين فِراراً من أسبانيا النّصرانيّة تَمثّلَ في علماء الفقه والحديث واللّغة، فقد نصّ الفقيه الإمام أبو عليّ حسن بن عليّ بن محمد المسيلي على أنّه كان ببجاية تسعون مُفْتياً.

وبما أنّنا لا نملك منهج هذه المدرسة بجلاء، فإنّنا نثبت هاهنا مشْيخة الغبريني أحدِ علماء وشاهدِ صدق لها، فمن خلال تعلّمه ندرك صورة هذه المدرسة وبرنامجها مثلما أورده هو نفسه بقلمه ؛ فقد

---

[1] ـ عنوان الدّراية، ص ص 246 ـ 247 .

ذكر أنّه أفاد ممّا تلقّاه من العلم ورَواه، وأكّد أنّه يورد الطّريقة التي تعلّم بها كي يتسنّى لمن رام أن ينتفع بها من الاطّلاع عليها. وقسم العلومَ التي تلقّاها إلى نوعين : سمّى الأوّل منهما الدِّراية؛ ويعني به : علم الفقه، وعلم الأصليْنِ (أصول الدّين، وأصول الفقه)، وعلم العربيّة، وعلم التّصوّف، وعلم المنطق. وسمّى الآخرَ علْم الرّواية .

ثمّ يحدّد أسماء الأساتذة الذين درّسوه العلوم المذكورة كما يفصّله هو نفسه في آخر كتابه المذكور كذا مرّة؛ فقد تلقّى :

- الفقه : على كلّ من أبي محمد عبد العزيز القيسيّ، وأبي محمد عبد الله بن عبادة، وعلى الشّيخ أبي محمد عبد الحقّ بن ربيع، وأبي العبّاس الغماري، وأبي القاسم بن زيتون، وأبي محمد عبد المجيد، وأبي العبّاس بن عجلان، وأبي عبد الله بن يعقوب الذي كان قاضياً أيضاً.

- علْم الأصليْنِ : على كلّ من الشّيوخ الفقهاء أبي العبّاس بن خالد، وأبي محمد عبد الحقّ... وغيرهما .

- علْم العربيّة : تلقّاه على أيدي الأساتذة اللّغويّين من أمثال : أبي عبد الله التّميمي، وأبي الحجّاج بن سعيد، وأبي عبد الله الكناني (وهو يعني بهذا العلْم موادّ كلّ من النّحو، واللّغة، والأدب، والتّصْريف).

- المنطق : على الشّيوخ المتخصّصين (اقتصر على ذكْر اسم واحد منهم ؛ هو أبو العبّاس بن خالد).

- التّصوّف : على الشّيوخ أبي محمد عبد الحقّ بن ربيع، وأبي عبد الله السّجلْماسيّ، وأبي الحسين الرّندي، وأبي زكريّاء بن محجوبة

مدارس تلمسـان :

مما لا يجحده جاحد؛ هو أنّ بني زيان كانت لهم يد بيضاء على إنشاء المدارس التي تُعدّ مراكز لتأْصيل الثّقافة العربيّة الإسلاميّة، ونافذة على استقْطاب الأساتذة والطّلبة ليس من الجزائر فحسب، بل من مختلف أقطار المغرب العربيّ، على أنّه يعسر تفصيل الحديث عنها وتقديمها بصورة غير ضبابيّة، لأنّ معظم المظانّ التي تعرّضت للثّقافة العربيّة في الجزائر على هذا العهد لم تول كبير اهتمام للمدارس، وراحت تتحدّث في إيجاز كبير عن العلماء الذين كانوا سبب وجودها، والمحافظين على بقائها. على أنّنا ـ ونحن نقوم بتحرير هذا البحث ـ ألفينا جانبا من الحديث عنها في طيّات كتابي المؤرّخ عبد الرّحمن الجيلالي[1]، والأديب محمد بن رمضان شاوش[2]، فأفدنا من جهودهما التي تضيف جديداً بلا ريب، وتُزيح الْغَبْن عن تلك الأيّام الحافلة بالأمجاد والأعمال الجليلة، باعْتبار أنّ المدارس هي صورة لحضارة الشّعوب وتقدّمها كائنة ما كانت. فقد تحدّث عبد الرّحمن الجيلالي عن هذه المدارس بإجمال، فقال : «وكان من معاهد العلم الشّهيرة بتلمسان مدارس كثيرة؛ منها : مدرسة مَنْشَر الجلد، ومدرسة ولدي الإمام، والمدرسة التّاشْفينيّة ـ حطّمها الاستعمار الفرنسيّ البغيض سنة 1275 هـ / 1859 م ـ والمدرسة اليعقوبيّة المنسوبة إلى أبي يعقوب والد السّلطان أبي حمّو الثّاني؛ وهي التي أقامها على ضريح والده يعقوب في شعبان سنة 762هـ (يونيو 1361م) ولم يبق منها اليوم إلاّ مسجدها المشهور

---

1 ـ تاريخ الجزائر العامّ 2 : 249 .

2 ـ باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان ـ ديوان المطبوعات الجامعيّة ـ الجزائر 1995 م ـ ص ص 397 ـ 400 .

باسم جامع سيّدي إبراهيم المصموديّ دفينِ هذه التّرْبة، والمتوفّى سنة 805هـ (1403م)، ومدرسة أبي حمّو الثّاني، ومدرسة أبي الحسن المريني بالعبّاد»[1].

ومن خلال هذا النّصّ نستنتج حقيقة لا تخفيها الأوهام، ولا تعفو عليها الأباطيل، وهي أنّ مدينتنا هذه كانت آهلة بصنوف العلم، وفنون المعرفة، بما كانت تنشره مدارسها، ويبثّه علماؤها، وقد استطعنا أن نحصي منها ستّا وقد تكون هناك مدارس أخرى لا نعلم عنها شيئا بسبب تقادُم العهد، وتجْهيل الاستعمار الحقود الذي حاولَ أن يطْمس معالم حضارتنا، ويغيّب إشْراقة شمسنا.

ويجدر التّوضيح بأنّ التّعلّم فيها كان مجّاناً لكلّ أفواج الطّلبة الذين راحوا يتوافدون على هذه المدينة، والتي فتحت لهم ذراعيها واحتضنتهم في حدَب وحنان، ومنحتْهم ما رغبوا فيه وتاقوا إليه من علوم الحكْمة، والفلسفيّات، والرّياضيّات، والطّبّ، والموسيقا[2].

وزيادةً في التّفصيل، نورد ما نصّ عليه محمد بن رمضان شاوش من تبيين لأهمّ المدارس التي عرفتها مدينة تلمسان؛ والتي تتمثّل في :

1 ـ المدرسة القديمة (مدرسة ابني الإمام) : أنشأها أبو حمّو موسى الأوّل عام 710هـ (1310م) كان موقعها غرب مسجد ابني الإمام الذي لا يزال قائما بحيّ المطْر قديمـاً .

2 ـ المدرسة التّاشْفينيّـة : وأُطْلقت عليها هذه التّسْمية نسبةً إلى مؤسّسها السّلطان أبي تاشفين الأوّل فيما بين 717 و728هـ (1316

---

[1] ـ تاريخ الجزائر العامّ 2 : 249 .

[2] ـ يراجع : م . ن .2: 249 عبد الرّحمن الجيلالي 2 : 249 .

و1327 م) وكان موقعها جنوب الجامع الكبير، وكانت مساحتها تشغل ساحة الأمير عبد القادر ودار البلديّة كلتيْهما، وما جاورَ البلديّة غرْباً. وقد أدّت دوراً عظيماً طَوالَ خمسة قرون أو أزيد؛ درّس فيها مشاهيرُ علماء تلمسان، وتخرَّجَ في حرمها شيوخ من مختلف الأصقاع الإسلاميّة.

والمدرسة التّاشفينيّة هذه حظيت بتقدير كلّ من رأى معالمها في زمانها، وأفادَ من علمائها ؛ فقد أشاد التّنسي الحافظ (ـ 899هـ) بمؤسِّسها أبي تاشفين الأوّل وأبْرزَ شغفه الشّديد بتجهيز الدّور، وتشْييد القصور؛ ليصل إلى الحديث عن إبْراز مفاتن هذه المدرسة وجمالها فيقول عن مؤسّسها : «وحسَّنَ ذلك كلَّه ببناء المدرسة الجليلة العديمة النّظير التي بناها بالجامع الأعظم ما ترك شيئاً ممّا اختَصَّ قصْرَه المشيَّد إلاّ وشيَّدَ مثله بها، شكراً للّه صنْعه، وأجْزلَ عليه ثوابه، فقد كان له بالعلم وأهله احْتفال، وكانوا منه بمحلّ تهمُّم واهْتبال.»[1]

ويصف هذه المدرسة أحمد المقري (ـ 1041هـ) على أنّها من بدائع الدّنيا، حيث شاهد بعينيه أبْياتاً مكتوبة حول دائرة عين جارية بساحتها تعبّر على لسان حال هذه العين؛ وهي (الكامل) :

انظُرْ بعيْنكَ بهْجتي وسَنائي
وبديعَ إتْقاني وحُسْنَ بنائي
وبديعَ شكْلي واعْتبرْ فيما ترى

---

[1] ـ نظْم الدّدرَ والعقْيان ـ تحقيق: محمود بوعياد ، ص ص 140 ـ 141 (وهذا السّلطان هو الذي شيّد الصّهْريج الأعظم) ـ راجع : م . ن . ص 140 (شُيّـد زهاء 716 و728 هـ) طوله 220م وعرضه 150م في عمـق 03 م .

من نشْأَتي؛ بلْ من تَدَفُّق مائــي

جسْمٌ لطيفٌ دائبٌ سيَلانُـهُ

صافٍ كَذَوْب الفِضّةِ البيْضــاءِ

قدْ حفَّ بي أزْهارُ وشْيٍ نَمَّقَتْ

فغَدَتْ كمثْل الرَّوْض غِبَّ سماء[1]

3 ـ مدرسة سيّدي أبي مديـن : أنشأها أبو الحسن المريني سنة 747 هـ (1347م) وموْقعها غرْب جامع سيّدي بومدين بقرية العبّاد.

4 ـ مدرسة وزاوية سيّدي الحلْوي : أوْرد ذكْرها ابن مريم[2]، لكنّه لم يُعط أيّة تفاصيل عنها، بيد أنّ المحْتمل هو أنّها أُنشئت بعد تشْييد جامع سيّدي الحلوي، وقد يكون مؤسّسها هو أبا عنان فارس.

5 ـ المدرسة اليعْقوبيّة : أنشأها السّلطان أبو حمّو موسى الثّاني عام 765 هـ (1363 م)، وكان موقعها شمال جامع سيّدي إبراهيم المصمودي، وسُمّيتْ باليْعقوبيّة نسْبةً إلى أبي يعقوب والد السّلطان أبي حمّو لقربها من ضريحه. وأوّل من أُسْندت له رئاسة التّدْريس بها الأديب الفقيه الشّريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسني (ـ 792 هـ)، وقد حضر السّلطان نفسه لابتداء الإقْراء بها[3].

6 ـ مدرسة سيّدي الحسن بن مخْلوف الرّاشـدي (أبركـان) : وقد أُسّست ما بين 834 و865 هـ (1431 و1462 م) وموْقعها قرب أطلال

---

[1] ـ تاريخ الجزائر العامّ : عبد الرّحمن الجيلالي 2 : 255 .

[2] ـ البستان : 25، 33، 35، 37 .

[3] ـ محمد بن رمضان شاوش ـ يُراجَع : م . س . ص 339 .

مسجد سيّدي أبي الحسن المذكور ؛ لكنّ مكانها المحدّد غير معروف، بسبب انْطماس معالم هذه الآثار .

7 ـ مدْرسة منْشر الجلد : وهي مجهولة من حيث النّشْأة، والموقع، والمُؤسّس، وإن كان بعض الدّارسين يُرجع موقعها إلى جوار مسجد ابن البنّاء، لكنّه مجرّد تخْمين يحتاج إلى توثيق.

ويُسْتنتَج من خلال إثْبات هذه المدارس أنّ تلمسان كانت بحقّ عاصمة للعلم والثّقافة، وقِبْلةً لطلاّب المعرفة ؛ ولاسيّما أنّ هذه المدارس في مستواها كانت تعادل ما يُوازي في زماننا هذا مستوى الجامعة من حيث تعدّدُ الموادّ، وعدد الأساتذة... وهلمّ جرّاً ...

ثالثاً : الأعلام المدرّسون :

بعد الأرضيّة السّابقة التي بسطْناها عَبْرَ الصّفحات أعلاه؛ والتي تناولت بعض المراكز الثّقافيّة، والمدارس، وطرائق التّدريس بصفة موجزة؛ نصل إلى النّقطة الأخيرة من هذا العمل؛ وهي التي تتوّج ما وضعْناه من لبنات قبلها. ذلك أنّ المدرّسين يصعب حصْرهم، ويعسر إحْصاؤهم، فهم يناهزون الألف إن لم نقل الآلاف ؛ ولكنّهم مبْثوثونَ في مَظانّ متباينة، وقاصية، وأحياناً غامضة، تتطلّب الجَلَد الشّديد، والإرادة الفولاذيّة، وحتّى العمر المديد؛ وهي صفات قلّما تتوفّر لباحث. وإيماناً منّا بأنّ «ما لا يُدْرَك كلُّه، يُدْرَك كُنْهه» أثبتنا أدناه بعض الأعلام الذين كان لهم دوْر في ازدهار حركة التّدريس والتّنافس في إقْراء العلم على أصعدة مختلفة[1] ؛ وهؤلاء الأعلام هم :

[1] ـ لتسهيل الرّجوع إلى هؤلاء الأعلام، وتعْميماً للفائدة؛ فقد رتّبناهم ترتيباً تاريخيّاً تصاعُديّاً.

1. إبراهيم بن يخلف التّنسي :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السّلام المطْماطي. وُلد بمدينة تنس، وهو من عائلة علْم وجاه ؛ إذ إنّه شقيق الإمام أبي الحسن التّنسي صاحب المسجد الذي سُمّيَ باسْمه، والمتوفّى سنة 703 هـ. ويُعدّ مترْجَمنا هذا أصغر من أخيه أبي الحسن سنّاً. بيد أنّ ذلك لا يعني أنّه كان مقصّرا أو صغير الشّأْن ؛ بدليل أنّه ترأّسَ التّدريس والفتْوى في أقطار المغرب العربيّ كلّها، تنثال عليه الأسئلة من تلمسان ومن إفريقيّة يومئذ. تلقّى معارف عصره وألمَّ بها من لغة وبيان وفقه وعقيدة... هذا ما يُستْشفّ من سيرته؛ لأنّ المصادر التي ترْجَمتْ لحياته آثرت أن تسكت عن شيوخه في الجزائر، واكْتفَتْ بالكشْف عن شيوخه خارج الجزائر فذكرت أنّه بعد ما غادر بلَدَه مرّ بتونس فقرأ بها على جماعة، وحين انتقل إلى المشرق التقى أعلاماً بمصر والشّام، حيث رَوى عن ابن كحيلي، وناصر الدّين المشْدالي، وبالقاهرة تلقّى (المحصول) على الشّمش الأصبهاني، والمنطق والجدل على القرافي، وحضر على السّيف الحنفي (الإرشاد) للعميريّ حتّى ختمه ولم ينبس ببنت شفة. فلمّا أعاد قراءته، فأوّل ما قرّر به السيف الحنفيّ كلام المصنّف؛ فقال الشّيخ أبو إسحاق : عندي تقْريركم لهذا الموضع بغير هذا، فطلَبَ منه تقريره فقرّره، ثمّ أحضر لهم تقْييداً قيّده على الشّيخ في المرّة الأولى، فأمر الشّيخ بقراءته، فقُرئ عليه حتّى ختَم، واستْحْسنَه كلّ من حضر، وهو الشّرح الموجود بين النّاس يعْزوه بعضهم لسيف الدّين[1].

---

[1] - يراجع البستان، ص ص 67 ـ 68 / نيْل الابتهاج، ص 38 .

وممّا لا شكّ فيه، أنّ شهْرته سبقتْه إلى المشرق، لأنّه كان قد ذاع صيته في تنس، فتناهى ذلك كلّه إلى السّلطان يغْمراسن، فرغّبه في القُدوم إلى تلمسان، وظلّ يُراوده حتّى لبّى طلبه بعد ما كان مستنْكِفاً متأبّياً أوّل الأمر، حيث كان يقيم أشهرا ثمّ يعود إلى تنس. لكنّه أطال المكوث بعد ذلك حيث درّسَ بها وتخرَّجَ على يده خلْق كثير؛ منهم الشّيخ أبو عبد الله بن الحاج صاحب « المدخل ».

تُوفّي بتلمسان عام 680 هـ (1282 م) ودُفنَ بالعُبّاد .

مؤلّفاته :

يبدو أنّه لم يهتمّ كثيراً بالتّآليف، واكتفى ببعض الشّروحات؛ منها : «شرح التّلقين» للقاضي عبد الوهّاب أبي محمد بن نصر البغداديّ (عشرة أسفار) لكنّ هذا الشّرح قد ضاع في أثناء حصار تلمسان الذي استغْرَقَ ثمانية أعوام وبضعة شهور .

آراء الآخرين فيه :

تحدّث عنه العبْدريّ في رحلته فقال :

«كان الشّيخ أبو إسحاق التّنسي وأخوه فقيهين مشاركيْن في العلْم مع مروءة تامّة، ودين متين؛ وأبو إسحاق أسنّهما وأسْناهما، وهو ذو صلاح وخير. وكان شيخنا (الزّين بن المنير) - حفظه الله - يُثْني عليه كثيرا. وسألني عن الغرب فذكرْت له قلّة رغبة أهله في العلم، فقال لي : بلادٌ فيها مثْلُ أبي إسحاق التّنسي ما خلَتْ من العلم، ولقيتهما بمصر، وكان أبو الحسن لم يحجّ فحجَّ معنا، فلقيت منه خيراً فاضلاً»[1].

---

[1] - عن : نيل الابتهاج بتطْريز الدّيباج ، ص 39 .

2 ـ عبد العزيز بن عمر بن مخلوف :

هو أبو محمد أبو فارس عبد العزيز بن عمر بن مخلوف العيسي، وُلد بتلمسان يوم الثّلاثاء 13 من جمادى الآخرة سنة 602 هـ (1205 م) وبها ترعْرعَ ودرَسَ ما كان معروفاً في عهده؛ ولاسيّما علْم الأصليْن.

وبعد أن اشتدّ عوده، ونضِجَ فكْره، قرّرَ الرّحيل، فانتقل إلى عاصمة أخرى من عواصم العلْم في المغرب الأوسط (بجاية) التي طاب له المُقام فيها، وتمَّ له الالْتئام النّفسيّ والرّوحيّ، فألْفى عند أهلها إقبالاً على دروسه، واعْتناءً بدُرره، فلم يضِنّ بنشرها بينهم، بل عمل على أن يأخذ منها كلٌّ ناشدٍ لها بنصيب .

في أثناء إقامته احتكّ بنخبة من العلماء الأجلاّء لصقْل مواهبه، وإثْراء معارفه؛ منهم : أبو بكر بن محرز، وأبو الحسن بن أبي نصر، وأبو الحسن الحرالي، وأبو العبّاس الملْياني، وأبو زيد اليزناسي، وهذا قبل أن ينتصب للتّدريس بصفته أستاذاً متميّزاً له قدْرة على التّبليغ، واستْعْدادٌ للتّمرين والتّصحيح .

وككلّ عالم مدرّس، فقد ترك بصماته على التّلامذة الذين كانوا أكثر استعداداً وأصلح للتّقبّل والإدراك، من هؤلاء العلاّمة الغُبْريني (ـ 704 هـ) .

تولّى خطّة القضاء ببجاية وبسكرة وقسنطينة والجزائر (العاصمة حالياً) فضلاً عن التّدريس الذي اشتهر به.

تُوفّي بالجزائر في 12 جمادى الآخرة سنة 686 هـ (1287 م)[1] .

---

[1] ـ ينظر كتاب : «تلمسان عبر العصور» : محمد بن عمرو الطّمّار ـ المؤسّسة الوطنيّة للكتاب ـ الجزائر 1984 م، ص 95 / نيل الابتهاج ، ص 295 .

تدريسه :

تحدّث الغبريني عن طريقة تدريسه فقال : «شيْخنا الشّيخ الجليل الفقيه القاضي العالِم المُتْقِن المحدِّث (...) خزانة مالك ـ رضي الله عنه ـ فصيح اللّسان والعبارة، حسَن الإشارة، له عُكوفٌ على التّدريس، دُؤوبٌ عليه، كان له درْس بالغداة، ودرْس بين الصّلاتيْن، ودرْس بين العِشاءيْن، كلُّها دروس مشْهورة، وأوقات باسْتفادة العلْم مقصودة، دأَبَ على هذا مدّة طويلة من عمره، واقتصرَ بعده على تدريس درسيْن : أحدهما في مسجده بالغَداة بعين الجزيري، والآخر بالجامع الأعظم بين الصّلاتين، وكان مبارَك التّعليم، ميمون النّقيبة في التّفهيم (...) قرأْت عليه ـ رحمه الله ـ وحضرْت دروسه، وسمعْت منه كثيرا، وقرأْت عليه الجلاّب»[1].

3 ـ عِمْران بن موسى المشدّالي[*]

هو أبو موسى عمران بن موسى المشدّالي، وُلد عام 760هـ (1271 م) كانت نشْأته الأولى ببجاية، ثمّ انتقل منها إلى الجزائر فارّاً من الحصار الذي ضُرب عليها، وكانت شعرته ذائعة بلا ريب، وهو ما يفسّر دعوة صاحب تلمسان إليه ليلتحق بهذه المدينة العلميّة العريقة، فلبّى طلبه حيث قرَّبَه منه، وأكْرَمَه بما يليق بمقامه.

عند التحاقه بتلمسان، عرفت حياته مُنْعَطَفاً جديداً يشرّف العلم والعلماء، فقد تصدّى للتّدْريس، وقام بتعْليم الفقه والحديث والمنطق والفرائض والأصليْن والجدَل .

---

[1] ـ عنوان الدّراية، ص ص 91 ـ 92 .

[*] ـ المشدّالي (بفتح الميم والشّين المعجمة وتشْديد الدّال المهْمَلة) : نسبةً إلى مشدّالة (إحدى قرى بجاية) مثلما حقّقه عبد الرّحمن الجيلالي ـ م . س . 2 : 265.

وعلى الرّغم من تعرّض بعض المصادر لسيرته، فإنّها ـ للأسف ـ أغْفلت شيوخه وتلامذته، ولم نعثر إلاّ على بعض الإشارات الخفيفة التي لا تقدّم جديداً ولا تجْلو غموضاً .

تُوفّي بتلمسان سنة 745 هـ (1344 م)[1].

وصفه التّنبكتي (ـ 1306هـ) بالفقيه الحافظ العلاّمة المحقّق الكبير، أخذ عنه المقري وغيره[2].

نموذج من دروســه :

قال المقري : «سألته عن قول ابن الحاجب في السّهو : (فإن أخال الأعراض فيبطل عمده) فقال معناه : إنْ أخالَ غيرَه أنّه معرض فحذف المفعول الأوّل وأقام المصدر مقام المفعولين كما يقوم مقامَهما ما في معناه من أنّ نحو : ﴿ أحَسِبَ النّاسُ أنْ يُتْرَكوا ﴾[3] المقري[4] وأقْوى من هذا كون المصدر هو المفعول الثّاني، وحذف الثّالث اختصاراً لدلالة المعنى؛ أي : أخالَ الأعْراضَ كقولهم : خلْت ذلك. وقد أُعْربت الآية بالوجهيْن، وهذا عندي أغْرب، ومنه قول القضاة أعلم باستقلاله؛ أي : أعلم الواقف عليه بأنّه مستقلّ فحذفوا الأوّل وصاغوا المصدر ممّا بعده »[5].

---

[1] ينظر: نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب ـ أحمد المقري، تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس ـ دار صادر بيروت د . ط / 1408 هـ (1988 م) جـ 5 ص 223 .

[2] ـ يراجع : نيل الابتهاج ن ص 350 .

[3] ـ سورة العنكبوت ـ جزء من الآية 02 .

[4] ـ كلمة « المقري » هنا تبدو حشْواً ، والأمر في الواقع هو كذلك، لأنّ المقري أراد أن يدعّم شرح المشدّالي ، فاستشهد بجزء من الآية الكريمة، يدلّ على ذلك إلصاقه اسمه بهذه الآية؛ وهي طريقة في الأسلوب القديم لا تخلو منها معظم المدوّنات والموسوعات، ولاسيّما في الفقه والمنطق ونحوهما .

[5] ـ عن : نيل الابتهاج ، ص 351 .

مؤلّفاته :

لم تصلنا آثار له تستحقّ التّنويه، غير ما نصّ عليه التّنبكتي من أنّه ترك مقالة مفيدة عنوانها : « اتّخاذ الرِّكاب من خالص الفضّة » وأنّ الونشريسي نقل عنه في مواضع .

4 ـ أبناء الإمام :

أنجبت هذه الأسرة طائفة من العلماء الأفذاذ الذين أسهموا بقسط وافر في إثراء الحركة الثّقافيّة على أيّامهم، وتصدّروا مجالس العلم، وترأسوا منصّات التّدريس.

ومن هذه العائلة الغنيّة بعلمائها يجدر التّنويه ببعض أسمائها من أمثال:

أ ـ إبراهيم بن عبد الرّحمن بن الإمام :

وصفتْه المصادر التي اهتمّت به على أنّه الفقيه الحافظ الحجّة ابن شيخ الإسلام، الإمام أبي زيد بن الإمام، وأنّ له علوماً جمّة، وفتاوى عديدة، ولاسيّما أنّ المازوني والونشريسي قد نقلا عنه في نوازلهما.

تُوفّي سنة 797 هـ (1394 م)، ودُفن بباب الجيزين بفاس[1].

ب ـ أبو زيد بن الإمام :

هو عبد الرّحمن بن محمد بن عبد الله بن الإمام : لا يُذكَر إلاّ بمعيّة شقيقه أبي موسى عيسى بصفتهما صِنْوين من شجرة مخضرّة الأوراق، مديدة الفروع أباً وأمّاً. لذلك قال فيهما ابن فرحون في الدّيباج : « أبو زيد شيخ

---

[1] ـ ينظر : جذوة الاقتباس : ابن القاضي المكناسي ـ دار المنصور للطّباعة والوراقة ـ الرّباط د . ط / 1974م، ج 1 ص 97 / البستان، ص ص 63 ـ 64 .

المالكيّة بتلمسان، العلاّمة الأوحد أكبر الأخويْن المشهورين بأولاد الإمام التّنسي البرشكي، وهما فاضلا المغرب في وقتهما، وكانا خصيصين بالسّلطان أبي الحسن المريني، تخرَّجَ بهما [كذا] كثير من الفضلاء »[1].

وممّا هو جدير ذكْره، ا،ذ هذيْن الأخويْن يعود نسبهما إلى (برشك)[2]، وأنّ أكبرهما أبو زيد، ووالدهما هو محمد الإمام، إمامُ برشك.

ولقد أكثر هذان الأَخَوان من التَّرْحال والتَّطْواف في شبابهما، فانتقلا إلى تونس حيث تلقَّيا العلم على نخبة من الشّيوخ ؛ منهم : ابن العطّار، والبطروني، وابن جماعة... ثمّ قفلا راجعيْن إلى تلمسان في أوّل المئة الثّامنة فألْفَياها محاصَرَة .

لبثا بعض الوقت فيها قبل أن يعيدا كرّة التّرحال سنة 720 هـ، فانتقلا هذه المرّة إلى المشرق، وهو ما مكّنهما من توسيع مداركهما الفكريّة بوساطة حِلَق الدّروس التي حضراها، كما قاما هما بالتّدريس هناك، حيث يذكر المقري أنّه سمع عليهما في المشرق[3].

وفي تلك الدّيار الشّرقيّة أحسّا بينابيع العلم تتبجّس من صدريهما فنقلا ذلك إلى الحوار والمناظرة حيث ناظرا التّقيّ ابن تيميّة فتفوّقا عليه، وكان أحد الأسبـاب التي أشعـلت فتيل محنته .

---

1 ـ عن : نيل الابتهاج ـ ص 245 .

2 ـ «برْشك» : اسم لمدينة كانت معروفة في القرون الوسطى، وكانت تقع على شاطئ البحر بين شرشال وتنس، ولكنْ لم يبق لها أيّ أثـر، وهي مسقط رأس الفقيهين أبي زيد عبد الرّحمن، وأبي موسى عيسى أبني الإمام محمد ـ ينظر : نظم الدرّ والعقيان :التّنسي، تحقيق: محمود بوعياد، ص 284.

3 ـ عن : م. ن. ص245 / يُراجَع : تاريخ الجزائر العامّ : عبد الرّحمن الجيلالي2 : 164 .

بعد عودتهما، اتّصلا بأبي حمّو فاغْتبطَ لمقْدمهما، وأكرم مثواهما، واختطّ لهما «المدرسة» بتلمسان[1]، وظلاّ مبجّلين معظّمين إلى أن أفَلَ نجم أبي حمّو، فلمّا تولّى ابنه الملك من بعده ظلّ ملتزما لما خصّهما به والده.

وبعد سنوات من العطاء والتّفتّق الفكريّ والتّفوّق العلميّ والتّدريس الكادّ، انتقل إلى جوار ربّه (أبو زيد عبد الرّحمن) سنة 743 هـ (1342 م) فظلّ شقيقه أبو عيسى موسى وفيّا للمنصب الذي أُنيطَ به، لكنّ الأجل المحتوم عاجله هو أيضاً ليلتحق بأخيه في دار الخلود سنة 749هـ (1348 م) .

تلامذتهما :

إنّ ممّا يُسعد المرء ويُدهشه في الآن ذاته، هو هذا التّأْثير العظيم في المتلقّين، حيث إنّ معظم العلماء الجزائريّين لم يخلّفوا وراءهم آثارهم مسجَّلَة على القرطاس الأعجم، بل تركوا رجالات أحياءً واصلوا بعدهم الرّسالة، وتابعوا نشر العلم وإبادة شبح الجهل؛ ومن التّلاميذ الذين تخرّجوا في مدرستهما ومجلسهما العلميّ، يمكن ذكر الشّريف التّلمسانيّ، والمقري، وأبي عثمان العقباني، وابن مرزوق الخطيب، وغيرهـم...

5 ـ الآبليّ :

هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدريّ التّلمسانيّ الشّهير بالآبليّ[2]. وُلد بتلمسان عام 681هـ (1282م) ونشأ بها تحت كفالة جدّه القاضي، فقرأ ما كان يتلقّاه أنداده عادةً في عصره .

---

[1] لم يبق من هذه المدرسة أيّ أثر ؛ بيد أنّ المسجد بمنارته الذي شُيّد ملتصقاً بالمدرسة ما يبرح شاهدا، ويُعرف اليومَ بجامع (سيّدي أولاد ليمام) وهو يوجد حاليا مقابل (باب سيّدي بوجمعة).

[2] - نسبةً إلى « أُبُلة » : اسم جبل بقرب غرناطة.

حاول يوسف بن يعقوب أن يستخدمه - بعد استيلائه على تلمسان - فاشمأزّ من ذلك وآثر التّملّص بالتّوجّه إلى الحجّ وسنُّهُ فتيّة ... وبعد عودته إلى مسقط رأسه عاد إلى التّعلّم في نشاط حثيث، حيث تلقّى المنطق والأصليْن على أبي موسى بن الإمام، كما أخذ عن أبي الحسن التّنسي بعض القضايا الفقهيّة.

وحين اشتهر في النّاس ذكره، قرّر أبو حمّو إكْراهه على العمل في ديوانه ؛ لكنّه لم يستجب لرغبته هو أيضا، وارتحلَ سرّاً إلى المغرب الأقصى، فنزل مدينة فاس وظلّ مختْفياً لا يخرج إلى الأضواء ممّا آزر معارفه، ومكّنه من إثراء معلوماته، وتجديد نظريّاته.

وفي سنة 710هـ ارتحل إلى مرّاكش لينزل تلميذاً على الإمام ابن البنّاء الذي كان متضلّعاً في علْم المعقول والمنقول، والتّصوّف، فأُتيح له أن ينمّي معارفه أكثر. ثمّ أقبل على شيخ الهساكرة عليّ بن محمد حيث ظلّ ملازماً محاضراته وندواته الفكريّة والعلميّة حيناً من الدّهر، فأحبّه هذا الأستاذ الجليل وقرّبه إليه .

وبعد أن آنسَ من نفسه القدرة على التّصدّي للتّدريس، والانتصاب للإفتاء والتّأْويل، عاد إلى فاس، فأقبل الطّلبة على دروسه بشكل منقطع النّظير، وتألّق في السّماء نجم شهرته أكثر .

وحينما غزا السّلطان أبو الحسن المريني تلمسان سنة 727هـ التقى أبا موسى بن الإمام فحدّثه عنه وأشاد بعلمه؛ فتاق السّلطان إلى رؤْيته والاجتماع به، فاسْتقْدمه وضمّه إلى مجلسه العلْميّ، فظلّ في البلاط عاكفاً على التّدريس والتّثْقيف مدّة ...ثمّ بعد ذلك انتقل إلى بجاية وأقام بها شهراً درّس خلاله طلبتها مختصر ابن الحاجب الأصليّ ليعود على أثره نحو تلمسان مجدّداً، فألفى أبا عنان قد تولّى

الملك مكان أبيه، فقام بدعْوته لينضمّ إلى شيوخ العلم والمعرفة، وحين قفل السّلطان راجعاً إلى فاس رافقه بصفته من خاصّته حيث ظلّ في كنفه إلى أن أتاه اليقين بهذه المدينة العلميّة في ذي القعدة من عام 757هـ (اكتو بر 1356م).

تلامذته :

تعلّم على يده أفواج من الطّلبة غدوا شيوخا مشهورين؛ منهم العالم الموسوعيّ أحمد المقري، والسّلطان أبو عنان المريني، والمؤرّخان القديران : عبد الرّحمن بن خلدون، وأخوه يحيى، ثمّ الصباغ المكناسيّ، والشّريف التّلمساني، والشّريف الرّهوني، وابن مرزوق الخطيب، وأبو عثمان العقباني، وابن عرفة.

آراؤه :

كان يقول مثلما رواه المقري : «إنّما أذْهبَ العلْمَ كثْرةُ التّآليف، وأذْهبَه بنيان المدارس.»[1].

وكان يقول : «لولا انقطاع الوحي لنُزّلَ فينا أكثر ممّا نُزّل في بني إسرائيل، لأنّنا أتينا أكثر ممّا أتَوْا»[2].

تـعليق :

يُستنتج من تشنيعه الأوّل بالتأليف أنّه كان يستنكف من التّأْليف والتّقيّد بالأنظمة البيداغوجيّة الصّارمة، ولعلّ أنّ هذه من الأسباب التي جعلت من أرّخوا له وعُنوا به لم يشيروا إلى أيّ أثر من آثاره.

أمّا اشمئزازه من المدارس فيؤيّده فيه التّنبكتي بسبب ما شاب بعضها من إهمال، ففُتح المجال لمن لا يفقه شيئا أن يتجرّأ على

---

1 - عن « البستان »، ص 216 .
2 - نفسه : 216 .

التّدريس فيها ؛ قال مظاهراً ومزكّيا له : «ولعمْري، لقد صدق في ذلك وبرّ، فلقد أدّى ذلك لذهاب العلْم بهذه المدن الغربيّة [يريد : المغربيّة] التي هي من بلاد العلم من قديم الزّمان كفاس وغيرها حتّى صار يتعاطى الإقْراء على كراسيّها من لا يعرف الرّسالة أصلا، فضلاً عن غيرها؛ بل مَن لم يفتح كتاباً للقراءة قطّ، فصار ذلك ضُحْكة، وسبب ذلك أنّها صارت بالتّوارُث والرّئاسيّات»[1].

آراء الأخرين فيه :

وصفه تلميذه المقري فقال : «هو الإمام نسيج وحْدِهِ، ورحْلةُ وقْته في القيام على الفنون المعْقوليّة وإدْراكه وصحّة نظره ... فلمّا افْتُتحتْ تلمسان لقيته بها فأخذت عنه»[2].

وقال فيه العالِم الاجتماعيّ ابن خلدون : «لازمْت مجْلسه وأخذْت عنه فنوناً»[3].

كما تحدّث عنه يحيى بن خلدون الذي هو أحد تلامذته أيضا، فقال : «إنّي لا أعرف بالمغرب وإفريقيّة فقيها كبيراً إلاّ وله عليه مشْيخَة»[4].

6 ـ الإمام منصور بن عليّ الزّواوي :

هو أبو عليّ منصور بن عليّ الزّواوي أصلاً، التّلمسانيّ داراً. وُلد سنة 710هـ (1311م)، وتلقّى معارفه الأولى في مسقط رأسه ولاسيّما حفْظُ

[1] - نيل الابتهاج : 414 .
[2] - يراجع : نفح الطّيب (5) : 217 ، 226 ، 237، 244 ، 248 ، 273 ، 277 ... / (6) : 172 / (7) : 133 .
[3] - عن : « البستان » ، ص 215 .
[4] - تاريخ الجزائر العامّ : عبد الرّحمن الجيلالي 2 : 168 .

القرآن الكريم، وقليل من الفقه والأصول. ومن الذين أخذ عنهم : والدُه عليّ بن عبد الله، والإمام المجتهد منصور المشدّالي الذي قرأ عليه أوائل ابن الحاجب، وابن المسفر، وأبو عليّ بن حسين الذي قرأ عليه جانباً من الحاصل، والمعالم الدّينية والفقهيّة، والآيات البيّنات. والخونْجي، وقاضي بجاية أبو عبد الله بن يوسف الزّواوي، وأبو العبّاس بن عمران. وحين انتقل إلى تلمسان أخذ عن كلّ من العالم عبد المهيْمن الحضرميّ، وأبي العبّاس بن يرْبوع، والقاضي أبي إسحاق بن يحيى.

ومع كلّ هؤلاء العلماء الذين أسهموا في تكْوينه؛ فإنّه قد استشفّ أنّ نفسه ما تزال محتاجة إلى الغرْف من ينابيع علم ومعرفة جديدين، فبارحَ وطنه حالاً بالأندلس ممّا مكّنه من الالتقاء بابن الفخّار البيري، حيث لازمه مُقْبلاً على دروسه حتّى وفاته؛ هذا العالِم الذي أجازه وأذِنَ له في التّحليق بموضع تدريسه، ثمّ القاضي الشّريف السّبتي الذي لازمَه بدوْره وأخذ عنه تآْليفه، وقرأ عليه «التّسْهيل» ... فلمّا عاد إلى تلمسان أكبَّ على التّدريس بها حتّى أتاه اليقين، (وسنةُ الوفاة مجهولة)، ولكنّ المظانّ تذكر أنّه كان على قيد الحياة بعد عام 770هـ (1368م).

ويبدو أنّه حين انتقل إلى الأندلس لم يقصدها متعلّماً فحسب؛ ولكنّه قد حصَّنَ ثقافته، وبلْورَ فكره، وحقّق نتائج علْميّة مرْموقة، ممّا جعله يُسْتقْبَل في هذه الدّيار بتَرْحاب وتلهُّف على الرّشْف من أريج زهر علمه.

آراء الآخرين فيه :

قال عنه ابن الخطيب في الإحاطة : «قدم الأندلس عام ثلاثة وخمسين وسبعمئة، فلقيَ رُحْباً وعرف قدمه، فتقدّم مقْرناً بالمدرسة

تحت جِراية نبيهة، وحلّق للنّاس متكلّماً على الفروع الفقهيّة والتّفسير، وتصدَّرَ للفُتْيا...»[1].

وقال عنه الشّيخ يحيى السّرّاج الذي كان أحد المتلقّين عنه : «شيخنا الفقيه الأستاذ الجليل المدرّس الأصوليّ النّحويّ ... كان شيخا فاضلا فقيها نظّاراً معدوداً في أهل الشّورى. له مشاركة في كثير من العلوم النّقْليّة والعقليّة، واطّلاعٌ وتقْييد ونظر في الأصول والمنطق والكلام، حريصاً على الإفادة والاستفادة، مثابراً على التّعلّم والتّعليم»[2].

ووصفه ابن الخطيب في الإحاطة بالطُّهْر في الفكر، والصّفاء في القول، والوفاء بالعهود، والحفظ للّسان، والاتّصاف بالتّواضع ؛ فقال : «هذا الرّجل صاحبنا طَرَف في الخير، والسّلامة، وحسْن العهد، والصَّوْن، والطّهارة، والعفّة، قليل التّصنّع، مؤْثر الاقتصاد، منقبضٌ عن النّاس، مكفوف اللّسان واليد، مشْتغلٌ بشأْنه، عاكفٌ على ما يعْنيه، مستقيم الظّاهر، ساذَج الباطن، مُنْصِفٌ في المُذاكَرة، موجِبٌ لحقّ الخصْم، حريص على الإفادة والاستفادة، مثابرٌ على تعلّم العلم وتعليمه، غير آنِفٍ من حوله عمّن دونه جملة من جمل السّذاجة الرّجوليّة، وحسن المعاملة، صدْرٌ من الصّدور، له مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقليّة والنّقليّة، واطّلاعٌ وتقييد ونظر في الأصول والمنطق والكلام، ودعْوى في الحساب والهندسة والآلات، يكتب ويشعر فلا يعدو الإجازة والسّداد»[3].

---

[1] - عن « نيـل الابتهاج » : 611 .

[2] - يراجـع : م . ن . ص 612 .

[3] - عـن : م . ن . ص 611 / البستان : 294 / وتُنظر ترجمته في "نفح الطّيب " 7 : 147 ، 166، 304/ معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض، ص 196 / باقة السّوسان : 427 . 428.

هذا هو المدرّس الذي أفنى حياته في خدمة العلم والمتعلمين، فبذل ما استطاع من أجل أن يطرُد جحافل الجهل، وينشر مصابيح النّور والهدى في كلّ دار من الدّيار المغربيّة التي احتكّت بمعارفه. وقد يكون اعتكافه على التّدريس ورغبته في تخريج أجيال مقتدرة على تحمّل الرّسالة من بعده، هو الذي حال دون أن يترك وراءه مصنّفات وتآليف، غير بعض الفتاوى المبثوثة في «المعيار» للونشريسي.

7 ـ محمد بن أحمد الشّريف العلوي*

إذا كان الأمر عسيراً بالنّسبة لكثير من التّراجم التي أثبتناها، فإنّ الأمر معْكوس تماماً بالنّسبة لهذه الشّخصيّة التي طفتْ على التّموّجات، وعلت القِمم متصلّبة ثابتة لم تفعل فيها شيئا؛ بل إنّها ما تبرح مشْرقة لمّاعة يُرى سَناها من بعيد !

إنّه محمد بن أحمد بن عليّ بن يحيى بن عليّ بن محمد بن القاسم بن محمود بن ميمون بن عليّ بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عليّ بن ابي طالب المعْروف بالشّريف التّلمسانيّ العلويّ[1].

وُلد بتلمسان سنة 710 هـ (1310م) وقرأ لقرآن الكريم على الشّيخ أبي زيد بن يعقوب، وأخذ عن الإماميْن أبني الإمام، وعن القاضي عبد الله بن هديّة القرشيّ، والشّيخ عبد الله المجاصي،

---

* ـ نسبةً إلى قرية «العلويّين» الواقعة في شمال تلمسان، والمعروفة الآن باسم : « عيْن الحوت». هذا في ظاهر الانتماء؛ أمّا في باطنه، فإنّه يُقصد به الانتماء البعيد إلى الإمام عليّ (كرّم الله وجهه).

[1] ـ ورد هذا النّسب كاملاً في : البستان، ص 164 / وتُنظر ترجمته في كلّ من : نيل الابتهاج: 430 ـ 445 / تاريخ الجزائر العامّ 2 : 209 / معجم أعلام الجزائر : 139 / باقة السّوسان : 426 ـ 427

والقاضي التّميمي، وأبي عبد اللّه بن محمد البروني، وعمران المشدّالي، وغيرهم ... ترك مسقط راسه بعد أن آنس من نفسه القدرة على مزيد من الاستيعاب، واتّساع حجم الفهم، فانتقل إلى تونس سنة 740هـ ليتتلْمذ على العالم الشّيخ أبي عبد اللّه بن عبد السّلام، وابن عرفة، ويفيد منهما كثيرا، كما أنّه توجَّهَ تلْقاء مدينة فاس، وأخذ عن بعض شيوخها.

عاد بعد ذلك إلى تلمسان، وانتصب للتّدريس، وزرع العلم والمعرفة، فأقبل على دروسه كثير من التّلامذة صاروا أعلاماً فيما بعد. ونظراً لمكانته العلميّة، ولقدرته على التّأْثير في التّبليغ، ولاتصافه بصفاء الذّهن، والدّقّة في التّوصيل، فقد استخصّه السّلطان أبو عنان سنة 753هـ بمجلسه العلميّ ضامّاً إيّاه إلى نخْبة من العلماء والمفكّرين، ثمّ رحل بمعيّته إلى فاس ... وبعد أن اسْتعادَ السّلطان أبو حمّو يوسف بن عبد الرّحمن تلمسان من بني مرين، استدعى الشّريف من فاس، فتلقّاه بترْحاب، وشيَّدَ له مدرسة أدارها بكفاءة وجِدّ ومواظبة، يستقبل الأفواج تلْوَ الأفواج من المتعلّمين إلى أن اختاره اللّه لجواره ليلة الأحد، رابع ذي الحجّة عام 771هـ (1370م).

تلاميـذه :

تلقّى العلم على يده كلٌّ من ولده أبي محمد، والإمام الشّاطبي، وابن زمرك، وإبراهيم الثّغري، وابن خلدون (عبد الرّحمن)، والشّيخ ابن عتاب، وابن السّكّاك، والفقيه محمد بن عليّ المدْيوني، والشّيخ إبراهيم المصمودي، وابن السّرّاج، وغيرهم ...

خصاله :

أحبّه شيوخه ورفعوا منزلته بسبب ما توسّموه فيه من صلاح وتقوى ؛ حتّى قال فيه ابن عبد السّلام يطْريه : «ما أظنّ أنّ في المغرب مثل هذا».

وكان الفقيه موسى العبْدوسي كبير فقهاء فاس يتصيّد ما يصدر عنه من تقييد أو فتوى فيكتبه وهو أسنّ من أبي عبد الله[1] .

وقال له الشّيخ ابن عرفة : «غايتك في العلْم لا تُدرك.[ولمّا سمع بموته قال] : لقد ماتت بموْته العلوم العقليّة»[2] .

آراء الآخرين فيه :

قال عنه الآبليّ «هو أوفر من قرأ عليّ عقلاً وأكثرهم تحصيلاً»[3] .

وقال أيضا : «قرأ عليّ كثير شرقاً وغرباً فما رأيت فيهم أنجب من أربعة : أبو عبد الله الشّريف أنجحهم [كذا] عقلاً وأكثرهم تحصيلاً ؛ وإذا أُشْكلت مسألة على الطّلبة عند الآبلي ... يقول : انتظروا أبا عبد الله الشّريف»[4] .

وقال فيه السّلطان أبو عنان المريني وقد حضر مجلساً من مجالسه العلميّة : «إنّي لأرى العلم يخرج من منابت شَعْره »[5] .

وقال ابن مرزوق الخطيب : «لمّا سافر أبو عبد الله لتونس كرهْت مفارقته، ولكنْ حمدت الله على رؤية أهل إفريقيّة مثله من المغرب»[6] .

---

[1] - يراجع البستان : 170/ يراجع « نيل الابتهاج » : 436 .

[2] - هذه الآراء والأقوال استُقيت من المظانّ الآتية : نيل الابتهاج : 345 / البستان : 170 / تاريخ الجزائر العامّ 2 : 211.

[3] - نيل الابتهاج : 345.

[4] - البستان: 170.

[5] - م . ن . ص 170.

[6] - م . ن . ص 170.

وكان المحدّث الفقيه القاضي أبو عليّ منصور بن هديّة القرشيّ يقول : «كلّ فقيهٍ قرأ في زماننا هذا أخذ ما قُدّر له من العلم إلاّ أبا عبد الله الشّريف، فإنّ اجتهاده يزيد، والله أعلم حيث ينتهي أمره»[1].

تدْريسـه :

لقد قام هذا الفقيه الأديب بتفسير القرآن الكريم خمساً وعشرين سنةً بحضرة أكابر الملوك والعلماء والصّلحاء وصدور الطّلبة لا يتخلّف منهم أحد، وسبب هذا الإقبال الكبير على دروسه يعود إلى الطّبيعة البيداغوجيّة والمعرفيّة التي كانت تُلقى بها أو تُقدّم، أضفْ إلى ذلك تبصّره بالقراءة القرآنيّة والرّواية، وتبحّره في فنون علوم زمانه من بيان وأحكام، وناسخ ومنسوخ، وهلمّ جـرّاً ... هذا مع نبوغه وإمامته في الحديث وفقهه وغريبه ومتونه ورجاله وأنواع فنونه.

كان الشّريف التّلمسانيّ قائما على الفروع والأصول ثبْتاً وتحصيلاً، ومع ذلك لم يكن متحمّساً إلى الفتوى لورعه وخشْيته من الله سبحانه وتعالى، كما كان يتجنّب الخوض في مسائل الطّلاق، ولا يرغب في الخوض فيها .

وأهمّ تدريسه بالإضافة إلى ما ذكرنا، كانت المدوّنة التي ظلّ يدرّسها بعد التّفسير. وعُرف عنه ـ رحمه الله ـ أنّه كان يقسم الوقت على اللبة بالرّمليّة : ينام ثلث اللّيل، وينظر ثلثه، ويصلّي ثلثه؛ يقرأ كلّ ليلة ثمانية أحزاب في صلاته، ومثله في أوّل النّهار، ويواظب قراءة الحزب دائما، ويقرأ من التّفسير نحو ربع حزب كلّ يوم مع البحث .

---

[1] ـ م. س. ص : 170 .

ثقافته :

ممّا لا شكّ فيه أنّ الشّريف التّلمساني كان بحر زمانه، وآية أنداده، فقد كان على بصيرة من علوم اللّغة العربيّة وآدابها، يدلّ على ذلك تأليفه الموْسوم : «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول» حيث طبّق فيه مسائل الفقه مع الأصول، وكانت عبقريّته تتفجّر في التّفسير وفي فقه السّنّة فيوظّف اللّغة الفصيحة العالية، ثمّ يَعوجُ على النّحو والبيان، ويستظهر من حافظته غرائب اللّغة وغريب الشّعر؛ مع ضرْب الأمثال، وسرْد أخبار النّاس ومذاهبهم، واستعْراض أيّام العرب. كما كان عالما بالمعنى الدّقيق للكلمة، مُتْقناً للمنطق والحساب والفرائض والتّنجيم والهندسة والموسيقا والتّشْريح والفلاحة، وجملة من العلوم الأخرى .

ومن خِلاله الفاضلة أنّه كان محبّا لغيره تشدّه الغيْرة على دينه وعلى العلماء ؛ فقد زجر أحد الملوك عندما همَّ بضرْب فقيه قائلاً له: « إن كان صغيراً فهو عند النّاس كبير، وإنّه من أهل العلم»[1]. فنجا الفقيه بفضل فصاحة الشّريف وشجاعته وغيْرته ومحبّته لغيره. وهذه شيمة قلّما نُلْفي لها نظيراً في زماننا هذا ولاسيّما في أوساط المثقّفين وبين رجال التّعليم، حيث إنّ بعضهم يَكيد للآخر، ويُحيك له المؤامرات الحمراء، وربّما يوقِع به، أو يفرح لمآسيه وما قد يتعرّض له من محنٍ وإحَن ! .

وكان دائم القراءة والاطّلاع، فتجتمع عنده نحو السّبعين كتاباً يعود إلى مسائلها ويقلّب صفحاتها ... ونظراً لشهْرته الواسعة،

---

[1] - يـراجع م . س .ص : 174 .

فقد أرسل إليه ابن الخطيب تأليفاً عرضه عليه ليبدي له فيه رأيه، ويكتب عليه بخطّه[1].

وظلّ دؤوباً على المزيد من العلم، والانكباب على العبادة والتّدريس إلى أن التحق بالرّفيق الأعلى؛ فلمّا تُوفّي قال السّلطان أبو حمّو الثّاني معزّياً ولده عبد الله في تأثّـر : «ما مات مَن خلّفك، وإنّما مات أبوك لي، لأنّي [كنت] أباهي به الملوك»[2].

مؤلّفاته :

- القضاء والقدر.
- شرح جمل الخونجي .
- في المعاوضات .
- أجوبة عن أسئلة مشكّلة.
- مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول[3] وغيرها ...
- له فتاوى مبثوثة في « المعيار» للونشريسي (1) : 105 / (2) : 47، 550 (9): 258، 269، 280، 282، 293 ـ 298، 300، 301، 308، 314 (11): 28، 154 (12) : 163، 170، 207، 211، 224، 225، 326 ..

[1] - يراجع م . ن . ص 174 .

[2] - م . س . ص 177 .

[3] - قامت بطبعه وزارة الشّؤون الدّينيّة في الجزائر ـ منشورات المركز الثّقافي الإسلاميّ ـ الجزائر ـ سلسلة : المطبوعات الجميلة (Les belles Impressions) ـ يقع في 132 ص (من الحجم الصّغير)، وهذا الكتاب يحتاج إلى محقّق يكون على دراية بالعلوم النّقليّة والعقليّة كي يرتقي إلى مستواه، وكي يزيل كثيرا من الالتباسات الفكريّة والدّينيّة واللّغويّة التي تحتويها دفّتاه.

8 ـ عبد الله بن محمد الشّريف :

هو أبو محمد عبد الله بن محمد الشّريف نجْل العلاّمة الفقيه أبي عبد الله الشّريف التّلمساني[1]. وُلد بتلمسان عام 747هـ (1347 م) ودَرَس على والده الذي كان موسوعة زمانه، وعلى بعض فطاحل العصر مثل ابن مرزوق الخطيب...

ويُعدُّ هذا الرّجل غصنا من دوحة شرف وعلْم سرْعان ما أيْنع ورقه، وانتشر أريجه، فانجذبَ نحو عطر رَيّاهُ كثيرٌ من المولّهين بتنسّم العلم، والنّاشدينَ تشرُّب المعرفة !.

بعد وفاة والده انتقل إلى الأندلس مُصْطفياً مكان إقامته غرناطة، وفي هذه العاصمة العلْميّة للغرب الإسلاميّ يومئذ ؛ اتّصلت به مجموعة من الطّلاّب أفادوا من ينابيع فكره ؛ منهم : أبو بكر بن عاصم صاحب «التُّحْفة». وبعد إقامة مطوّلة نسبيّاً في الدّيار الأندلسيّة، عاودَه الحنين إلى مرابع صباه ومسقط رأسه، فاستقلّ الباخرة ولواعِجُه متّقدة، وأشْواقُه عارمة ؛ لكنّ إرادة الله حالت بينه وبين الاستنشاق من عبير تلمسان وهوائها الرّائق، لأنّ السّفينة التي أقلّتْه ومن معه لم تثبت إزاء العواصف الهوجاء، فعلاها الموْج ثمّ ابتلعها، فتُوفّيَ هذا الأديب الفقيه غريقاً عام 792هـ (1390 م) .

وذكر المترْجمون له أنّه كان نابغة زمانه من حيث التّبحُّرُ في اللّغة العربيّة وآدابها، وفي النّوازل والأحكام على المذاهب المختلفة، لا على مذهب مالك وحده. بيد أنّ مؤلّفاته ـ إنْ وُجدت ـ لم يذكر

---

[1] ـ هو الوارد ترجمته في رقم : 7 (من هذا البحث).

عنها المؤرّخون له عنها شيئاً، ولم تصلنا إلاّ نُتف من هذه الآثار هي عبارة عن فتاوى أوردها الونشريسي في معياره .

9 ـ محمد بن عمر بن الفتوح :

هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التّلمسانيّ ثمّ المكناسيّ. نشأ بتلمسان، ودرَسَ بها ما كان شائعاً على عهده، ولاسيّما حفْظ القرآن الكريم، والتّبحّر في العلوم النّقليّة. ولا بدّ من الاعْتراف بأنّ المظانّ أغْفلت الإشارة إلى سنيه الأولى، فلم تذكر شيئاً عن شيوخه، ولا عن أصناف المعارف وفنون العلوم التي تلقّاها ... بيد أنّنا نستطيع الحديث عن معارفه من خلال تدريسه لتلامذته؛ ويتلخّص ذلك في نبوغه في علوم اللّغة العربيّة، وعلم الأصليْنِ. يدلّ على ذلك تدريسه مختصر خليل بفاس بعد انتقاله إليها، حتّى إنّ ابن مريم يقرّر أنّه أوّل من أدخل هذا المختصر إلى المدينة المذكورة[1]، والتقى هناك شيخ الجماعة أبا موسى عيسى بن علاّل المصمودي فأخذ عنه[2]، وهذا هو الأستاذ الوحيد الذي احتفظ به المترجمون لسيرته، وتنبيههم بأنّه أحد شيوخه. ومن هنا يمكن القول إنّ حياة هذه الشّخصيّة يكْتنفها الغموض النسبيّ ؛ حتّى إنّ ابن مريم وبهد التّنبكتي لم يذكرا شيئا عن تاريخ ولادته، ولا داعي إلى الحديث عن المراجع الحديثة التي هي عالة بطبْعها على المصادر القديمة الأساسة. غير أنّ الإجْماع حاصل على أنّه كان مدرّساً، وعلى أنّه قضى حقْبة من الزّمان يدرّس بمدرسة أبي عنان المريني بفاس، وعلى أنّ أشهر مادّة قام بتعليمها هي ألفيّة ابن مالك.

---

1 - يراجع البستان، ص 264 .

2 - يراجَع : م. ن . ص 264 / معجم أعلام الجزائر : 172 .

وممّا لا ريب فيه، أنّ رجلاً هذا حاله من قلّة الاهتمام بسيرته، والتّجاهل لشأنه ؛ قد يكون خلّفَ وراءه بعض الأعمال، أو تكون له جوانب مُشْرقة، لكنّ التّعْتيم غطّاها، والتّغْييم طمسها ؛ ولو أُفْرج عنها لأضاءت لنا سبل البحث، وزوّدتنا بصور عن شخصيّته العلْميّة بخاصّة.

من أخباره :

ذكر التّنبكتي نقلاً عن والده أنّ ابن الفتوح كان يقصد المساجد الخالية ويعْمُرها بقراءة القرآن العزيز، وأنّه أصابه الطّاعون وهو يقرأ البخاري في مكْناسة عند خزانة الكتب سنة 815هـ (1415 م) فحُمل لبيته في المدرسة حيث فاضتْ روحه[1].

هذا، وأحاطتْ برحلته إلى المغرب أسباب يندرج بعضها تحت حكم الأسطورة، وبعضها الآخر نشير غليه ونحن على بيّنة من أنّ يجانب الصّواب، لأنّه يحاول التّقْليل من علْم هذا الفقيه، والطّعْن في ذكائه ومعارفه، وإن كان يدلّ من ناحية أخراة على ورعه وتريّثه في الفتوى، وربّما التّورّع عنها ؛ فقد زعم الشّيخ القوريّ [؟] أنّ سبب ارتحاله إلى فاس سنة 805 هـ إنّما كان الدّافع إليه رغبته في إثراء معارفه، وإزالة الغشاوة عن بعض الإشكالات الفقهيّة التي كانت تؤرّقه؛ منها مسألتان جوهريّتان :

- مسألة المكثر من النّذْر (وهي في كتاب الإيمان والنّذور من المدوّنة)
- ومسألة من اشترى جارية بشرط أنّها ثيّب فألْفاها بكْراً...[2].

---

[1] - يراجع : نيل الابتهاج ، ص 498 .
[2] - يراجع : م . ن . ص 498 .

ويبدو الافْتراء على الشّيخ أبي الفتوح جليّا، والتّلفيق في الأسباب التي دعتْه إلى الهجرة بيّناً ... وإلاّ، فكيف يوصَم بالعجز عن فكّ لغز هاتيْن المسألتين اللّتيْن لا تحملان من الصّعوبة ما يجعله يقف سادراً حائراً؛ بل يُفضي به ذلك إلى أن يرتحل عن مسقط راسه وفي ذهْنه صورة إفْحامه وإسْكاته !.

10 ـ أحمد بن أحمد النّدْروميّ :

هو أحمد بن أحمد بن عبد الرّحمن بن عبد الله شهاب الدّين المعروف بابن الأستاذ النّدروميّ. نشأ بتلمسان وقرأ على عالِم زمانه ابن مرزوق الحفيد[1]. وقد وصفه المترْجمون لسيرته بأنّه فقيه، مقرئ، عالم بالمنطق.

وعلى الرّغم من الدّور الكبير الذي أدّاه في التّدريس، فإنّه لم ينل ما يليق به من عناية، وغَمَطَه المؤرّخون حقّه، فأشاروا إليه في استحياء وتقليل، ومضَوْا غاضّين الطّرْف عن مزاياه وتفانيه في إبادة جحافل ظلام الجهل .

ويُفهم من المعلومات النّزرة المسْتقاة عنه أنّه كان مشهوداً له بالعلم وسعة الاطّلاع، فقد تصدّر في القاهرة للإقْراء، ولُقّب هناك بشهاب الدّين[2].

كان ما يزال على قيد الحياة سنة 830 هـ (1427 م) .

---

1 - يراجع «معجم أعلام الجزائر»، ص 17 .

2 - يراجَع البستـان : 44.

مؤلّفاتــه :

- كفاية العمل (عبارة عن شرح الجمل للخونجي) - وهو اختصار لشرح شيخه ابن مرزوق الحفيد.

11. محمد بن مرزوق الحفيد

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التّلمساني. وُلد بتلمسان ليلة الاثنين 14 ربيع الأوّل عام 766 هـ الموافق لـ : 20 ديسمبر 1364 م.

تلقّى العلم على والده وعمّه ابني الخطيب ابن مرزوق، وعن الشّيخ سعيد العقباني، وعن العالم أبي إسحاق المصمودي، وأبي الحسن الأشهب الغماري، وعن الفقيه الورع أبي محمد عبد الله بن الشّريف التّلمساني[1].

وبعد أن أتمّ تعليمه في مسْقط رأسه، وآنَسَ من نفسه الرّغبة في التّغيير، وتطوير فكْره أكثر، شدّ الرّحال إلى تونس حيث لقي بها الإمام ابن عرفة، وأبا العبّاس القصار. وبعد أن لبث فيها حينا من الدّهر آثر أن يأخذ وجْهته نحو مكان آخر من أقطار المغرب العربيّ، فألقى عصا التّسْيار في مدينة فاس حيث تتلْمذَ على العالم النّحويّ (المكوديّ)، ثمّ الحافظ محمد بن مسعود الصّنهاجي الفيلالي. بيد أنّ نفسه الشّغوف بالزيادة من الكَرْع في المعرفة لم تقنع بكلّ أولئك؛ بل راودَتْه في التّنقّل إلى المشرق فاستجاب لها لينزل مصر حيث أقبل على مختلف العلماء المتواجدين بها من أمثال ابن خلدون، والفيروزآباديّ صاحب القاموس، والنّويريّ صاحب النّهاية،

[1] - ذكَر هذا النّسب وعدّد شيوخه ابن مريم في البستان، ص 201.

ومحبّ الدّين بن هشام ولد صاحب المغني، والقاضي ناصر الدّين التّنسي قبل أن يعود إلى المغرب .

حجَّ سنة 790 هـ (1388 م) رفقة الإمام ابن عرفة، فلقي بمكّة المكرّمة بعض العلماء وأخذ عنهم ما رآه زاداً لا بدّ منه، فرَوى صحيح البخاري عن ابن الصّدّيق، ثمّ قفل آئباً إلى وطنه، وحجّ للمرّة الثّانية سنة 819 هـ (1416 م) فكان من حسن الصّدف بالنّسبة له أن التقى الإمام ابن حجر العسقلاني، فمكّنه ذلك من أن يأخذ عنه معارف ضافية. وفي هذه الرّحْلة الرّوحيّة والعلْميّة معا، أجازه نخبة من علماء الأندلس؛ منهم : محمّد بن جزيّ، وابن الخشّاب، وأبو عبد الله القيجاطي، والحافظ بن علّاق، وغيرهم .

نالَ هذا الأديب الفقيه شهْرة عريضة نتيجة عمله الدَّؤوب، وتبحُّره الواسع في صُنوف المعرفة، فصار يُدعى شيخ الإسلام وعالِم الدّنيا[1].

تُوفّي يوم الخميس عصـر رابع عشر شعبان من سنة 842 هـ (30 يناير 1439 م). وصُلّيَ عليه بالجامع الأعظم بعد صلاة الجمعة، وحضر جنازتَه السّلطان فمن دونه، وكان آخر بيت سُمع منه عند موته ـ رحمه الله ـ (البسيط) :

إنّ كانَ سَفْكُ دمي أقْصى مرادَكُمُ فما غلَتْ نظْرةٌ منكم بسفْك دمي[2]

---

[1] - يراجَع : تاريخ الجزائر العامّ : عبد الرّحمن الجيلالي 2 : 213 .

[2] - يراجع : البستان ، ص 208 .

تلامذته :

قد نجانب الصّواب إذا حاولنا إحصاء تلاميذ هذا العالِم الجليل؛ ولذلك، فإنّ ما نذكره من أسماء تلامذته هو عبارة عن تمثيل لا شمول، فقد تلقّى العلمَ عنه كلٌّ من الشّيخ عبد الرّحمن الثّعالبي، وقاضي الجماعة عمر القلشاني، والإمام أبي عبد الله محمد بن العبّاس، والعلاّمة نصر الزّواوي، والشّيخ حسن أبركان، والشّيخ أبي البركات الغماري، والإمام أبي الفضل المشدّالي، وقاضي الجماعة بغرناطة أبي العبّاس بن أبي يحيى الشّريف، وأخيه أبي الفرج، والشّيخ إبراهيم بن فائد الزّواوي، وأبي العبّاس أحمد بن عبد الرّحمن النّدروميّ، والعلاّمة عليّ بن ثابت، وولده ابن مرزوق الكفيف، والشّهاب ابن كحيل التّجاني، والعلاّمة أحمد بن يونس القسنطيني، والحسن القلصادي، والحافظ التّنسي التّلمسانيّ، والإمام ابن زكري، وهلمّ جرّاً...

مؤلّفاته :

أوّلاً : المؤلّفات التي أتمّها في حياته :

أ ـ التّفسير:

ـ تفسير سورة الإخلاص على طريقة الحكماء .

ب ـ الفقه والعقيدة :

ـ الرّوضة (رجَزان في علم الحديث الكبير جمع فيه بين ألفيّتي ابن ليون والعراقيّ) .

ـ الحديقة (اختصار الرّوضة) .

ـ المقنّع الشّافي (أرجوزة في الميقات في 1700 بيت) .

- الدّليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرّوميّ .
- النّصح الخالص في الردّ على مدّعي رتبة الكمال النّاقص (في سبعة كراريس ألّفه في الرّدّ على عصريّه وبلديِّهِ قاسم العقباني في فتواه في مسألة الفقراء الصّوفيّة لمّا صدّق العقباني صنيعهم، وخالفه ابن مرزوق) .
- مختصر الحاوي في الفتاوي (لابن عبد النّور التّونسيّ) .
- الرّوض البهيج في مسائل الخليج .
- أنواع الدّراري في مكرّرات البخاري .
- أرجوزة نظم تلخيص المفتاح .
- أرجوزة نظم تلخيص ابن البنّاء .
- عقيدة أهل التّوحيد المخْرجة من ظلم التّقليد .
- الآيات الواضحات في وجه دلائل المعجزات .
- إسْماع الصّمّ في إثبات الشّرف من الأمّ .
- شرح ابن الحاجب الفرعيّ .
- شرح التّسهيل .

جـ - كتب النّحو والقواعد :

- المعراج في استمطار فوائد الأستاذ ابن السّرّاج (في كرّاس ونصف : أجاب فيه ابن السّرّاج عن مسائل نحويّة ومنطقيّة) .
- أرجوزة في اختصار ألفيّة ابن مالك .

د - في المنطق :

- أرْجوزة نظم جمل الخونجي .
- نهاية الأمل في شرح كتاب الجمل (شرح لجمل الخونجي) .

هـ . في الأدب والنّقـد :

- إظهار صدق المودّة في شرح قصيدة البردة .

- الاستيعاب لما فيها (البردة) من البيان والإعراب.

- المفاتيح القرطاسيّة في شرح الشّقراطيسيّة .

- المفاتيح المرزوقيّة في استخراج رموز الخزرجيّة .

ثانياً : مؤلّفات في فنون مختلفة :

- اغْتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة (عبارة عن أجوبة لمسائل في فنون العلم وردت عليه من عالم قفصة العلاّمة أبي يحيى ابن عقيبة فأحاب عنها).

ثالثاً : مؤلّفات لم تتـمّ :

- المتجر الرّبيح والسّعي الرّجيح والرّحْب الفسيـح في شـرح الجامع الصّحيح (صحيح البخاري) .

- روضة الأريب في شرح التّهذيب .

- المنْزع النّبيل في شرح مختصر خليل (شَرَح منه كتاب الطّهارة في مجلّدين / ومن الأقضية إلى آخره في سفرين).

- إيضاح المسالك على ألفيّة ابن مالك (انتهى إلى اسم الإشارة أو الموصول... في مجلّدين)[1] .

وقفة تأمّل عند هذه المؤلّفات :

---

[1]. ذَكَر هذه المؤلّفات تلميذُه الشّيخ السّخاوي، وأوردها من غير تصنيف، فنقلها ابن مـريم في « البستان » : 210 . 211 كما هي عند السّخّاوي (وهذا التّرتيب والتّصنيف تَبَعاً لكلّ تخصّص إنّما كان من صنعنا).

ماذا يقول المتنزّه بين خمائل هذه الرّوضة الفكريّة يصله أريج بعيد من أشجارها المورقة؟ ويعطّر شمّه ريّا فواكهها المختلفة، فيحاول أن يلتذّ بطعمها وينتشق بعطرها، ولكنّه لا يلفي إزاءه غير الآثار التي تفضي إليها فيبذل قُصارى جهوده للّحاق بها، فيُعْييه السّير والسُّرى، وينهكه البحث والتّفتيش؛ ثمّ لا يحصل على أكثر من سراب، وعندئذ، تهتزّ جوانحه، وترتعش حناياه، فيكبت حزنه وانفعاله في وليجته؛ آملاً أن تُتاح له فرصة الاسْتمتاع بجمال هذه الرّوضة والتّفيّؤ ببستانها يوما ! .

ومن حسن الطّالع أنّ بعض هذه الآثار قد استطاع أن يتصدّى لأعاصير الزّمن مثل شجرة السّرو الرّتْقاء التي تتحدّى العواصف الهوجاء ! فقد ذكر المؤرّخ عبد الرّحمن الجيلالي أنّ ثمّة وجوداً لبعضها في أماكن مختلفة ؛ قال : «فمن ذلك وهو ما وقفت عليه بنفسي : جزآن من شرح البخاري كلاهما كان موجوداً بمكتبة الجامع الجديد، وهما بخطّ المؤلّف، ثمّ فُقد الجزء الأول منهما وبقي الثّاني !. وبعد مدّة، وقفت على نسخة من الجزء الأوّل بنفس المكان، وهي بخطّ مغاير لخطّ |الجزء الثّاني، وأجمعنا على أنّها بخطّ الثّعالبي ...؟ ولا يزال الجزآن بخزانة الجامع الجديد تحت عدد 143 و443، وهذا هو المسمّى بـ : "المتجر الرّبيح، والمسعى الرّجيح، والمرحب الفسيح، والوجه الصّبيح، والخُلُق السّميح، في شرح الجامع الصّحيح"..وبها كتاب « إظهار صدق المودّة » : توجد منه نسخ متعدّدة بمكتبات أسطنبول الشّهيرة، و« المفاتيح الذّوقيّة لحلّ الأقفال واستخراج خبايا الخزرجيّة » في علم العروض والقوافي - وهي

بمكتبتنا الخاصّة . وكتاب " إسماع الصمّ في إثبات الشّرف من جهة (قِبَل) الأمّ " منه نسخة بالمكتبة الوطنيّة بالجزائر رقم : 2067.[1] ».

آراء الآخرين فيه :

وصفه ابن مريم فقــال :

«الإمام المشهور العلاّمة الحجّة الحافظ (...) الشّيخ النّبيه (...) الفقيه الأصوليّ المفسّر المحدّث الحافظ المسْند الرّواية الأستاذ المقْرئ المجوّد النّحويّ اللّغويّ البيانيّ العروضيّ الصّوفيّ الأوّاب (...) الآخذ من كلّ فنّ بأوفر نصيب، الرّاعي في كلّ فنّ مرعاه الخصيب (...) فارس الكراسيّ والمنابر (...) شيخ الإسلام وإمام المسلمين ومُفْتي الأنام الذي له القدم الرّاسخ في كلّ مقام ضيّق ...». وقال فيه تلميذه أبو الفرج بن أبي يحيى الشّريف :

«هو شيخنا الإمام العالم العَلَم جامع أشْتات العلوم الشّرعيّة والعقليّة حفْظاً وفهما وتحقيقاً راسخ القدم، رافع لواء الإمامة بين الأمم، ناصر الدّين بلسانه وبيانه وبالعلْم (...) حجّة الله على العلْم والعمل، جامعٌ بين الشّريعة والحقيقة (...) الشّيخ الإمام (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد) اتّصلْت به فأويْتُ منه إلى رُبْوة ذاتِ قَرارٍ ومَعين، فقصرت توجّهي عليه، فأنزلني ـ أعلى الله قدره ـ منزلة ولده رعاية للذِّمَم، وحفْظاً على الودّ الموْروث من القدم، فأفادني من بحار علومه ما تقصر عنه العبارة، ويَكلّ دونه القلم، فقرأْت عليه جملة من تفسير القرآن ومن الحديث، وصحيح البخاري بقراءته وقراءة غيره مراراً، وصحيح مسلم كذلك، وسُنن التّرْمذي

[1] ـ تاريخ الجزائر العامّ 2 : 215 .

وأبي داود بقراءتي، والموطّأ سَماعاً وتفقّهاً، والعمدة من الحديث وأرجوزته الصّغرى (...) ومن العربيّة نصف المعرب، وجميع كتاب سيبويه كذلك، وألفيّة ابن مالك، وأوائل شرح الإيضاح لابن أبي الرّبيع، وبعض المغْني لابن هشام (...) وفي القراءات قصيدة الشّاطبي تفقّهاً ...»[1].

وأشادَ بعلمه وسعَة معارفه تلْميذه الإمام أبو زيد الثّعالبي فقال :

«وقدِمَ علينا بتونس شيْخنا أبو عبد الله بن مرزوق فأقام بها وأخذْت عنه كثيراً وسمعْت جميع الموطّأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر بن شيْخنا محمد القلشاني، وختمْت عليه أربعينيّات النَّوويّ قرأتها عليه في منزله قراءة تفهُّم، فكان كلّما قرأْت عليه حديثاً يعْلوه خشوع وخضوع، ثمّ أخذ في البكاء، فلم أتزل أقرأ وهو يبكي إلى أن ختمْت الكتاب (رحمه الله تعالى)... »[2].

ووصفه أوصافاً مختلفة في مكان آخر تصبّ كلّها في الإشادة بسَعَة علمه، وعلوّ منزلته، وطول باعه في مختلف فنون المعرفة، وصُنوف الثّقافة...

وقال الإمام المازوني عنه في أوّل نوازله :

«هو شيخنا الإمام الحافظ بقيّة النّظّار والمجتهدين، ذو التّآليف العجيبة، والفوائد الغريبة، مستوْفي المطالب والحقوق»[3].

وتحدّث عنه تلميذه الحافظ أبو عبد الله التّنسي بعد ذكْره قصّة (مالك) أنّه سُئل عن أربعين مسألة فقال في ستّ وثلاثين : لا أدري. قال التّنسي :

---

1 ـ البستان ، ص ص 205 ـ 206 .

3 ـ م . ن . ص 207 .

«ولم نَـرَ فيمنْ أدركْنا من شيوخنا من تمرَّنَ على هذه الخصْلة الشّريفة، وكثر استعْمالها غير شيخنا الإمام العلاّمة رئيس علماء المغرب على الإطلاق أبي عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق.»[1].

وقال عنه الشّيخ أبو الحسن القلصادي في رحْلته :

«أدركْت بتلمسان كثيراً من الصّلحاء والعُبّاد والعلماء والزّهّاد، وأوْلاهم بالذّكْر والتّقديم الشّيخ الفقيه الإمام العلاّمة الكبير شيخنا وبركتنا أبو عبد الله ابن مرزوق العجيسي - رضي الله عنه - (...) وكانت أوقاته كلّها معْمورة بالطّاعة ليلاً ونهاراً من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علْم وفُتْيا وتصنْيف (...) فقرأْت عليه - رضي الله عنه - بعض كتبه في الفرائض، وأواخر إيضاح الفارسيّ، وشيئاً من شرح التّسهيل، وحضرْت عليه إعْراب القرآن، وصحيح البخاري،وتسهيل ابن مالك، والألفيّة، والكافية...»[2]

من خلال آراء تلامذته الذين هم في الآن ذاته فطاحلة علم، ونوابغ فكر، يتجلّى أنّ هذا العالم الأستاذ قليلاً ما يجود الزّمان بمثْله، ويسمح بظهوره؛ فاستْحقّ بذلك قول الشّاعر :

حَلَفَ الزّمـــان ليَأْتينَّ بمثْله
حَنِثَتْ يمينك يا زمانُ فكَفِّـرِ

على أنّ ما يؤْسَف له ويُتحسَّر عليه، هو ضياع معظم آثاره التي سبق الحديث عنها، ولو تأتّى لنا الاحتفاظ بها لأُتيح لنا أن نؤسّس للفكر الجزائريّ القديم بكلّ موضوعيّة، ولاسيّما أنّ ثقافة هذا الفقيه كانت موسوعيّة .

---

[1] - م . س . ص 207 .
[2] - م . ن . ص 207 ـ 208 .

12ـ أحمد ابن زاغو :

هو أحمد بن محمد بن عبد الرّحمن بن زاغو المغراوي : وُلد بتلمسان زُهاءَ سنة 782 هـ (1442 م) وتلقّى دراسته الأولى على يد سعيد العقباني وأبي يحيى الشّريف وغيرهما .

عُرف منذ نعومة أظافره بالذّكاء الحارق، والسّبْق على أقْرانه في الدّرس، حيث نبَغَ في فنون المعرفة من مثل الحديث والأصول والمنطق.

تولّى التّدريس فتخرّج على يده جماعة من العلماء الأفْذاذ أمثال : يحيى بن بدير، ويحيى المازوني، والحافظ التّنسي، وابن زكري، وأبي الحسن القلصادي...

تُوفّي يوم الخميس وقت العصر 14 ربيع الأوّل من عام 845 هـ (1494م).

مؤلّفاته :

- مقدّمة في التّفسيـــر .
- تفسير الفاتحة.
- منتهى التّوضيح في علْم الفرائض .
- التّلخيص لوالده .
- أقضية مختصر خليل لآخره.
- ابن الحاجب الفرعيّ ...

آراء الآخرين فيه :

وصفَه ابن مريم بالإمام العالِم الفاضل الوليّ الصّالح الصّوفي الزّاهد العلاّمة المحقّق المتقنّن النّاسك العابد[1] .

---

[1] - البستان ، ص 38 .

وأشادَ به تلميذه الشّيخ أبو الحسن القلصادي ؛ فقال :

«شيخنا وبركتنا الفقيه الإمام المصنّف المدرّس المؤلّف أعلم النّاس في وقته بالتّفسير، وأفصحهم، فاق نُظراءه وأقْرانه في دلائل السّبل والمسالك، في سبْق في الحديث، والأصول والمنطق، وقدم راسخة في التّصوّف مع الذّوق السّليم، والفهم المستقيم، وبه يُضرَب المثل في الزّهد والعبادة (...) أكرمه المولى بقراءة القرآن، وشرّفَه بملازمة قراءة العلم والتّصنْيف والتّدريس والتّأْليف (...) فصيَّرَني كبعض أولاده، وأنزلني منزلة أصدقائه، فقرأْت عليه صحيح البخاري كلّه، ومن أوّل مُسْلم إلى أثناء الوصايا (...) ولزمْته مع الجماعة في المدرسة اليعْقوبيّة للتّفسير والحديث والفقه شتاءً، والأصول والعربيّة والبيان والحساب والفرائض والهندسة صيفاً، وفي الخميس والجمعة التّصوّف وتصحيح تآليفه (...) وأنشدني يوم الجمعة (الوافر) :

تمتَّعْ من شَميم عِرارِ نجْدٍ

فما بعدَ العشيَّة منْ عَرار

فلم يشهد بعدها جمعة أخرى. وآخرُ ما قُرئ عليه كتاب : لطائف المنْن، ويشيرإلينا بأحوال تدلّ على موته، وكان يتأهّب لذلك ...» [1].

ويَرْوي ابن مريم أنّ هذا الشّيخ توسَّم الفهم والذّكاء في الشّيخ ابن زكري الطي كان يومئذ طفلاً يشْتغل في النّسيج؛ فسأله :

- أين أبوك ؟

فقال له :

- مات.

---

[1] - م.س.ص ، ص 41 / التنبكتي : م . س . ص ص 119 - 120 .

- وأمّـك ؟

فقال له :

- حيّـة.

- وما أُجْرتُك في الطّـراز ؟

قال له :

- نصف دينار في الشّهر.

قال له :

- أنا أعطيك نصف دينار في كلّ شهر، وارجع يا ولدي تقرأ، وسيكون لك شأْن[1].

13ـ قاسم بن سعيد العقباني :

هذه دوْحة أخرى من روضة العلم والمعرفة؛ هي روضة اسرة العقباني، حيث إنّ (قاسم) هذا يتوسّط هذه الأيْكة المثْقلة بالثّمار، الملئى بالينع والاخضرار، الحانية على قاصدها بالفِياءة والظّلال؛ هذا العالم هو ووالده سعيد (ـ811 هـ)[2]، وولَداه أحمد (ـ840 هـ)[3]، وإبراهيم (ـ880 هـ)[4]، ثمّ حفيده

---

[1] ـ م. س. ص : 38 ـ 39 .

[2] ـ هو سعيد بن محمد بن محمد التّجيبي العقبانيّ التّلمسانيّ الفقيه، كلن إمام تلمسان وعلاّمتها. ولي قضاء بجاية في عهد السّلطان أبي عنان، كما ولِيَ قضاء تلمسان، ومرّاكش، ووهران، وسلا ... له «شرح البردة»، و «جمل الخونجي». يُراجع : معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض : 75 ـ 76 .

[3] ـ هو أحمد بن قاسم بن سعيد بن محمد العقبانيّ، فقيه من القُضاة من أهل تلمسان. أَخَذَ عن والده قاسم وغيره. وليَ قضاء تلمسان، وبها تُوفّيَ . ـ يُراجَع : معجم أعلام الجزائر : 13.

[4] ـ هو إبراهيم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني التّلمساني: فقيه، حافظ، من القُضاة. له فتاوى نَقَل بعضَها المازوني في كتابه «الدُّرَر المكْنونة»، وبعضها الآخر نقلها الونشريسي في كتابه «المعْيار» ـ معجم أعلام الجزائـر : 13.

القاضي محمد (-871 هـ)[1] كلّهم أصحاب شُهْرة في العلم، وذوو سَعَة في الفضل، وأهل تقديم وتبجيل، أسْهموا جميعا في بثّ العلم ونشْر الخُلُق الفاضل، وضحّوا من أجل ازدهار الحركة الفكريّة في المغرب الأوسط على مدى نحو قرنيْن من الزّمان.

اسمه ونسبه :

هو أبو الفضل، وأبو القاسم بن قاسم بن سعيد بن محمد العقباني، توسَّطَ عائلة تنتمي إلى مجال العلم والمعرفة، أو هو«ملحق الأحفاد بالأجْداد» كما يصفه ابن مريم[2]. وُلد بتلمسان سنة 768 هـ (1368م) أخذ عن والده الإمام أبي عثمان وغيره، واجتهد في التّحصيل، وتعِبَ في الدّرس حتّى بلغ درجة الاجتهاد.

غادر مسقط رأسه قاصداً تأدية فريضة الحجّ عام 830هـ، وفي هذه الرّحلة حضر بمصر إملاء ابن حجر العسقلاني الذي استجازه فأجازه. وبعد عودته من البقاع المقدّسة ولِيَ بتلمسان خُطّة القضاء، وعكَفَ على التّدريس ناصحاً ناشئة العلم، وباذلاً قُصارى جهده في سبيل تخْريج مثقّفين لهم مستوى تمثيل الثّقافة العربيّة الإسلامية، فبلغَ هدفه، وحقّقَ مأربه، حيث تخرَّجَ على يده جيل من النّبغاء سَجّلوا تاريخ أستاذهم وأشادوا بمواقفه، واعترفوا بتبحّر معارفه، وتنوّع نظريّاته، وسَداد آرائه وأحكامه، حيث ظلّ يدرّس الأحكام

[1] - هو محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد الفقيه ، وله مشاركة في الأدب . وُلد بتلمسان ونشأ بها ، ووليَ قضاء الجماعة . له «حفْظ الشّعائر الدّينيّة» - معجم أعلام الجزائر : 144 .

[2] - يراجع البستان : 147.

والفرائض مثل «مختصر خليل»، و«مختصر المدوَّنَة» لابن أبي زيد، و«حكم ابن عطاء الله »، و«المختصر في أصول الدّين».

أخذ عنه جماعة منهم : أبو البركات النّالي، وولده أبو القاسم العقباني، وحفيده محمد بن أحمد، والعلاّمة ابن زكري، والكفيف ابن مرزوق، وأبو العبّاس الونشريسي ... وغيرهم .

تُوفّي في ذي القعدة عام 854هـ (1450م) وصُلّيَ عليه في الجامع الأعظم، ودُفن قرب الشيخ ابن مرزوق[1].

مؤلّفاته :

- تعليق على ابن الحاجب.
- أرْجوزة في التّصوّف .

آراء الآخـرين فيه :

أثْنى عليه كثيرون، فقال عنه الحافظ التّنسـي :

«شيخنا الإمام العلاّمة وحيد دهره، وفريد عصره»[2].

وقال يحيى المازوني يقرّضه :

«شيخنا شيخ الإسلام، عَلَم الأعلام، العارف بالقواعد والمباني، أبو الفضل العقباني»[3].

وقال القلصادي عنه في رحلته :

---

[1] - م . س . ص 148 .
[2] - عن : نيل الابتهاج ، ص 365 .
[3] - عنه نفسه ، ص 365 .

وأصبغ بالنّجس، فخرَّج في الجميع قولين، فقرّر مسألة التّخريج للطّلبة فلم يفهموها»[1].

لكنّ ابن زكري اختطف الجواب منهم وأعْرب للشّيخ ابن زاغو عن حقيقتها، فقال له : بارك الله فيك يا ولدي[2].

وهكذا عرفت حياة ابن زكري مرحلة حاسمة، حيث إنّه ترك منذ تلك الواقعة الصّناعة النّسيجيّة وأقبل على جداول العلم يكْرع من صفائها تحت رعاية الشّيخ الرّحيم، والعالِم الورع الذي لم يكن يبحث عن المال، أو يطمع في توفير ربْح من وراء تدريسه لطلبته؛ بل إنّه أفْنى ماله في سبيل نشْر العلم ونجْدة من كان في حاجة إليه من هؤلاء المتعلّمين، وهي خَلَلٌ قلّما يجود الزّمان بمثلها .

شيوخه :

تلقّى أوّل الغيث على العالم الزّاهد (ابن زاغو)، فلمّا تُوفّي، انتقلَ للأخْذ عن علماء آخرين من أمثال محمد بن العبّاس في العبّاد، يغْدو إليه من وسط المدينة كلّ يوم صباحاً، ويروح مساءً ... لاحظ هذا الأستاذ أنّ تلميذه (ابن زكري) يقاوم الضّنْك وهو يصْرعه، ويتصدّى للفاقة وهي تخنْقه، ولكنّه كان أبيّ النّفس، قويّ الشّكيمة، شديد الإقبال على العلم لا يبالي بما يلْقى من عنت وشطَط في ذلك. وهذا الموقف من التّلميذ هو الذي أفضى بأستاذه إلى أن يتدخّل

---

1 - البستان : 39 .

2 - م . ن . ص 39 / وقد سبق إيراد هذه الحكاية مع العلاّمة ابن زاغو، فلتُراجع في مكانها من هذا البحث .

له عند السّلطان طالباً منه أن يمنحه بيتاً في المدرسة، فكتب له بيتاً فيها برتْبته وفرشه وسمنه وزيته ولحمه وفحمه وجميع ما يموّنه[1].

يُعدّ ابن زكري عالم زمانه، وآية ذلك أنّه درّسَ وأفتى وأمّ القوم في المساجد. ولشدّة حرصه على التّقرير في التّبليغ والتّدريس، كان يكرّر المسألة الواحدة في (اللّغة / الفقه) ثلاثة أيّام أو أربعة حتّى يدرك فحْواها، ويفقه مكْنونها الخاصّ والعامّ.

تلامذته :

كان له تلاميذ عديدون؛ اشتهرَ منهم الإمام أحمد زرّوق (ـ 899هـ) وابن مرزوق حفيد الحفيد، وأحمد بن الحاج المناوي أصلاً، الورْنيدي داراً.

تُوفّي في صفر عام 899 هـ (1493م) وقبْرُه بروضة الشيخ السّنوسي، وقد سُمّيت الآن ثانويّة باسمه في مدينة تلمسان، كما يحمل أحد مساجد المدينة المذكورة اسمه تخليداً لذكْراه، وتكْريماً لعلْمه.

مؤلّفاته :

- مسائل القضاء والفُتْيا .
- بُغْية الطّالب (عبارة عن شرح لعقيدة ابن الحاجب) .
- المنظومة الكبرى في علم الكلام (أكثر من 1500 بيت) عنوانها : «محصل المقاصد ممّا به تُعْتبر العقائد».
- شرح الورقات : لإمام الحرمين أبي المعالي (في أصول الفقه) .

ونَقل عنه الونشريسي فتاوى كثيرة[1].

---

[1] - يراجع : م . س . ص 41 .

16ـ الحافظ التّنسي :

هو محمد بن عبد الله بن عبد الجليل المعروف بالحافظ التّنسي. وُلد بمدينة تنس نحو سنة 820هـ (1417م)، لكنّه انتقل إلى تلمسان واستقرّ بها، بل وصار مدرّساً من مدرّسيها، وعَلَماً من أعلامها، ونابغة في مختلف العلوم العقليّة والنّقليّة، ومشهوراً بالفقه والإفتاء بخاصّة[2].

شيوخه :

لقد تلقّى هذا العالم الجليل تعليمه على أيدي العلماء : قاسم العقباني، وأبي الفضل محمد بن الإمام، والإمام الأصوليّ محمد بن أحمد بن النّجّار التّلمساني (ـ 846 هـ / 1442 م)، وإبراهيم التّازي، والإمام ابن العبّاس، والشّاعر إبراهيم التّازي (النّاظم البليغ الورع الزّاهد، وصاحب القصائد الرّائقة الأنيقة في مدح النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم)، توفّي سنة 866هـ (1462 م)[3].

تلامذته :

كان مدرّسا موْهوباً حيث استطاع أن يؤثّر بعلمه في طلبته الذين نبغ كثير منهم من أمثال أحمد البرنسي الشّهير بزرّوق (ـ 890هـ/ 1485م) ومحمد بن صعد (ـ 901 هـ / 1496م) وبلقاسم الزّاوي (922 هـ / 1516م) ومحمد بن العبّاس الصّغير (1011هـ/ 1602 م) والشّيخ حفيد الحفيد ابن مرزوق المعروف بالكفيف، وأبي الفضل بن سعيد بن سعد (ـ 901 هـ/ 1497م) بالدّيار المصريّة ؛ وهذا العالِم مشهور بكتابه «النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من المناقب» .

---

[1] ـ يُراجع : م . س . ص 41 .

[2] ـ نفح الطّيب : المقّري ج 6 ص 175 / نظْم الدّرّ والعقيان (الكتاب كلّه) .

[3] ـ أثبتَ هؤلاء الشّيوخَ التُّنبُكْتي في كتابه « نيل الابتهاج » ، ص 573 .

هذا، وشهد بعض هؤلاء التّلاميذ لأستاذهم الحافظ التّنسي بالتّفوّق وسعة العلم، ووفْرة المعارف مثلما قال فيه تلميذه محمد بن العبّاس الصّغير أدناه .

وكما ينصّ عليه (محمود بوعياد) في تحقيقه لكتاب التّنسي «نظم الدرّ والعقيان» فإنّ المعلومات ناقصة عن هذا العالم فيما يتعلّق بأهمّ الموادّ التي تلقّاها أو التي درذسها، لكنّ الواقع يثبت أنّ أيّ مدرّس من هؤلاء قد تلقّى علوم زمانه التي كانت منتشرة، ولاسيّما إذا كان الأمر يتعلّق برجل مثل التّنسي صاحب الذّكاء الوقّاد، والحافظة الخارقة، حيث انعكس بعض ذلك على شخصيّته ؛ فكان أحد حفظة الحديث النّبويّ الشّريف، والإلمام الشّامل بالفقه. أضف إلى ذلك اهتمامه بالأدب والتّبحُّر فيه إلى درجة أنّ (الونشريسي) وصفه بالفقيه الحافظ، التّاريخيّ، الأديب الشّاعر[1] .

التحق بالرّفيق الأعلى في جمادى الأولى من سنة 899 هـ (1494م).

التّنسي أديبــاً :

تتجـلّى أدبـيّة الحـافظ التّنسي في الـجزء الثّاني الـذي مـن سفـره «نظم الدرّ والعقيان»[2] حيث يتناول فيه أبحاثاً يتعلّق الأوّل ببيان الشّعر وفضله، وينصرف الثّاني إلى التّجْنيس، ويُعنى الثّالث بالتّوْرية وأشكالها وأنواعها، في حين، يتطرّق في الجزء الرّابع إلى أوجه الطّباق، ويسلّط الضّياء في الخامس على اللّفظ والمعنى، وفي السّادس على العلاقة بين النّحو والبلاغة، وفي السّابع على الاقتباس،

---

[1] - يراجع : نيل الابتهاج ، ص 573 .

[2] حقّقه :بوطالب محيي الدّين تحت عنوان «الجانب الأدبيّ من مخطوطة الحافظ التّنسي التّلمسانيّ» - منشورات دحلب - الجزائر، د . ط / د . ت .

أو ما يُعرف في الدّراسات الحداثيّة بالتّناصّ؛ وهو يصل بها إلى أكثر من عشرة أنواع[1].

الحافظ التّنسي ناقداً :

لم يقتصر هذا العالم الجزائريّ الفذّ على التّعليم الذي تحدّثنا عن صفته ونوعه، وإنّما تجاوزوه إلى الفهم العميق للنّصوص، والقراءة المتأنّية التّأْويليّة للآراء التي سادت عصره، وهذا على الرّغم من أنّه اشتهر اشْتهاراً واسعاً بالحديث النّبويّ الشّريف وكثرة استيعابه له وحفظه، وعلى الرّغم كذلك من اتّسام أسلوبه بالنّثر الدّيوانيّ، لأنّه اشتغل كثيرا بسير الملوك والأمراء ولاسيما في كتابه (نظم الدّر والعقيان ...).

ومن الواضح أنّنا لا نعني هنا النّقد بمفهومه الواسع، وإنّما نروم البحث في بعض اللّمحات التي تدخل في باب النّقد، ولو أنّه أُتيح لنا الاطّلاع على آثار التّنسي كلّها لما عدمنا جانباً من تلك الجوانب التي تصبّ في هذا الاهتمام؛ وقد عثرْنا على صورة لهذا النّقد في كتاب أحمد المقّري حين قال :

«قال الإمام الحافظ عبد الله التّنسي نزيل تلمسان ـ رحمه الله تعالى ـ عندما جرى ذكر أمير المسلمين السّلطان أبي حمّو موسى بن يوسف بن عبد الرّحمن بن يغْمراسن بن زيّان ـ رحمه الله تعالى ـ وكان الفقيه ذو الوزارتيْن أبو عبد الله بن الخطيب كثيراً ما يوجّه إليه بالأمداح؛ ومن أحسن ما وُجّه له قصيدة سينيّة فائقة، وذلك عندما أحسّ بتغيّر سلطانه عليه، فجعلها مقدّمة بين يدي نجواه،

---

[1] ـ يراجع كتاب نظم الدرّ والعقيان ، تحقيق : محيي الدّين بوطالب (من ص 55 إلى ص 286).

لتمهّد له مثْواه، وتحصل له المستقرّ، إذ ألجاه الأمر إلى المفرّ، فلم تساعده الأيّام، كما هو شأنها في أكثر الأعلام»[1].

ثمّ يورد قصيدة ابن الخطيب التي تبلغ 114 بيتاً مطلعها (الكامل) :

أطْلعْنَ في سَدَفِ الفروع شُموسا ضَحِكَ الظّلامُ لها، وكان عَبوسا

وخاتمتها :

القلْبُ أنتَ لها رئيسُ حياتها لمْ تُغْتَبَرْ مهما صلحْتَ لها[2]

ليُثْبت رأى التّنسي في الآتي :

«ثمّ قال الحافظ التّنسي - رحمه الله تعالى - بعد سرْد هذه القصيدة ما معْناه : إنّ لسان الدّين ابن الخطيب حذا في هذه القصيدة السّينيّة حذْو أبي تمّام في قصيدته التي أوّلها :

أقَشيبَ ربْعِهِمُ أراكَ دَريسا تَقْري ضُيوفَكَ لوْعةً ورَسيسا[3]

واخْتلسَ كثيراً من ألفاظها ومعانيها»[4].

آراء الآخرين فيه :

---

[1] - نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب - تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس، 6 : 195.

[2] - أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض : أحمد المقّري (1 - 3) تحقيق : السّقّا - الأبياري - شلبي، ط . القاهرة 1939م - 1942م - 1 : 250 .

[3] - ديوان أبي تمّام (1 - 4) تحقيق: محمد عبده عزّام - دار المعارف بمصر 1951 - 1965 م - 6 : 201 .

[4] - نفح الطّيب 6 : 201 - هذا، ولا بدّ من التّوضيح، بأنّ الأمر لا يعنينا كثيرا فيما يتعلّق بآرائه النّقديّة، لأنّ الموضوع هنا لا يروم الابتعاد كثيراً عن الهدف منه، وهو التّعريف بالمدرّسين لا الأدباء أو النّقّاد، ولذلك نجتزئ بهذه اللّمحة؛ محيلين على الكتب التي تعرّضت لهذا الموضوع - يراجع مثلاً «نظم الدّرّ والعقيان» بتحقيق محيي الدّين بوطالب من ص 287 إلى 312 .

قال فيه تلميذه محمد بن العبّاس الصّغير : « لازمْت مجلس الفقيه العالم الشّهير سيّدِي التّنسي عشرة أعوام، وحضرْت إقْراءه تفسيراً وحديثاً وفقهاً وعربيّةً وغيرها »[1].

ووصفه تلميذه الآخر ابن داود الأندلسيّ بأنّه « بقيّة الحُفّاظ وقُدْوة الأُدباء»[2].

وأطْراه تلميذه أحمد بن داود الأندلسيّ فقال بعد ما غادر تلمسان : «العلْم مع التّنسي، والصّلاح مع السّنوسي»[3].

مؤلّفاته :

- نظم الدّرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان .
- الطّــرّاز في ضبط شــرح الخــرّاز .
- راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمّو وقيل فيه من الأمداح .
- الجواب المطوّل في قضيّة يهود توات ....[4] .

17ـ المناوي الورْنيديّ :

هو أحمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن يعقوب بن سعيد بن عبد الله المناوي أصــلاً ونِجــاراً ، الورنيدي مولداً وداراً عُرف بابن الحاج. قطن أوّل الأمر مكاناً يُدعى «إتْلاثنْ أوليلي» ثمّ ارتحل إلى وادي يبدر[5].

تلقّى معارفه على أيدي شيوخ أجلاّء مختلفي التّخصّصات، متعدّدي المصنّفات ـ وإن لم نعرف الكثير عنهم ـ وما عرفناه أنّه ـ

---

1 ـ نظم الدّرّ والعقيان ـ تحقيق: محمود بوعياد ، ص 20 .

2 ـ نيل الابتهاج : 573 .

3 ـ نظم الدّرّ والعقيان ـ تحقيق: محمود بوعياد ، ص 20 .

4 ـ ذُكرت هذه المؤلّفات في المظانّ التي عُنيت بحياة وسيرة التّنسي .

5 ـ البستان : 8 .

رحمه الله ـ قد أخذ الأصول والمنطق والمعاني والبيان والعربيّة عن العلاّمة أحمد بن زكري (ـ 899هـ). لكنّ المؤكّد أنّ الآخرين انتفعوا بعلمه، وكَرَعوا من جداول معارفه، وهم كثيرون ؛ منهم : الحاج بن سعيد ولد أخته، وابن عمّه، كما أخذ عنه محمد بن بلال المديوني القراءات السّبع، والعربيّة، والتّصوّف، وأخذ عنه عبد الرّحمن اليعقوبيّ كتب ابن عطاء الله كلّها، وجانباً من التّصوّف .

عُرف عنه أنّه كان ماهراً في الحساب، وبارعاً في الشّعر، وعالِماً في عَروضه، وهذا ما أهّله للتّدريس حيث كان معلّما بمدرسة سيّدي أبي الحسن التّنسي، وكان زاهداً في الدّنيا، قَنوعاً بقسْمه؛ ومن شعره في هذا المعنى قوله :

رضيتُ بقسْم الله ثمّ اختيارِهِ وجَنّبْتُ نفْسي السّعْيَ حولَ اغْتيالِهِ
وفوّضْتُ أمري للّذي هو عالِمٌ بأسباب إصلاح الفتى واخْتبالِهِ
وأَيْأَسْتُ قلبي من رجا غير ربّه لجَلْبِ مُناهُ أوْ لسلْب اعْتلالِه
يقيني يقيني أنْ أرى مُتَذَلّلاً لغير عزيزٍ واحدٍ في جلالِه
وإنّي لأَسْتحْيي من الله أنْ أرى لباب سواه، سائلاً لنوالِه[1]

تُوفّي قريباً من الثّلاثين وتسعمئة (930 هـ) ودُفن في روضة هو وأبوه (سيّدي الحاج) في بني إسماعيل (بني سميّل) من جبل يبدر[2] .

---

[1] - م. س. ص 17 .
[2] - يراجع : م. س. ص 24 .

مؤلّفاته :

- شرح السّينيّة لابن باديس .

- شرح البرْدة للبوصيري (جَمع فيه بين شرح عليّ بن ثابت المتوفّى سنة 577 هـ وشرح سعيد بن محمد العقبانيّ المتوفّى عام 811 هـ وشرح الحفيد ابن مرزوق المتوفّى عام 842 هـ) وإن بدت له إضافة في المعنى أو في الإعراب أضافها ، لكنّه - للآسف - لم يكمله .

شعره :

لقد ترك هذا الفقيه الأديب شعراً كثيرا ، بعضه يدخل في باب النّظْم ، وبعضه الآخر يمكن أن يرقى إلى الخطاب الشّعريّ. بيد أنّه لم يتح لنا الحصول على آثاره كلّها أو بعضها ، ممّا يحول بيننا وبين التّقويم لفنّه.

ومن هذا الشّعر أنّه مدح النّبيّ ﷺ بعدّة قصائد «أتى فيها بالعجب العُجاب»[1] ذكر المؤرّخون لسيرته بيتاً واحداً منها؛ هو :

ومن بعد باسم الله والحمد إذْ به بداءة من يبغي الكمالَ ويطْلبُ

وعدد أبياتها بعدد سور القرآن العظيم مثلما أخبرنا بذلك ابن مريم[2] ومنها قصيدة أخرى مطوّلة كان قد بعث بها ضمنَ رسالة إلى أستاذه (ابن زكري) طالباً منه إجازته ؛ لكنّها قصيدة من نوع النّظم فحسب، وهو ما يجعلها تندرج فنّيّاً في خانة الشّعر التّعليميّ[3] .

---

[1] - البستان : 18 .

[2] - يراجع : م. ن . ص 18 .

[3] - تنظر هذه القصيدة في البستان : 20 - 22 .

فتاواه :

لقد ترك الفقيه المناوي فتاوى متعدّدة في مجالات مختلفة؛ نورد منها واحدة فقط، معتبرينها نموذجاً لفتاويه الأخرى؛ فقد كتب له الفقيه الزّاهد أبو العبّاس أحمد البجائيّ سؤالاً هذا نصّه :

«سيّدي، رضي الله عنكم وأدام بمنّه عافيتكم، ما جوابكم في موضع كثر فيه الظّلم والأشرار، وانتشر فيه الباطل والسّكْر كلّ انتشار، وذلّ فيه المسلمون وعزّ فيه الكفّار، وارتفع فيه الجَوْر والظّلم، واتّضع فيه أهل المعرفة والعلْم، تُمْكَس فيه جلّ المبيعات على المسلمين، وأُشْكل الأمر على المسْتَرْشدين، ولم يظهر من فضائله ناكر لمنكر، فلا أدري أ خوفاً على أنفسهم أم استهزاءً بالأمر ؟ ثمّ إنّ إنساناً اضطُرَّ إلى أخْذ العلم عن علماء الوضْع المذكور، وخشيَ على نفسه ممّا هو قبل مسطور. فهل أعزّكم الله يُسوَّغ له المُكْث في ذلك الموضع مع عدم قدرته على تغْيير المنكر إلاّ قليلاً ويكون بذلك ممتثلاً لأمر ربّه ؟ وهل يسوّغ له الشّراء من بعض المبيعات المَمْكسات إن اضطُرّ إلى ذلك، ويكون آمناً من الوقوع في المهالك ؟ وهل يسوّغ له أخْذ العلم عن علمائه، مع عدم تغييرهم لما ذُكر ؟ وإقامتهم بالموضع المذكور ؟ ولا يناله توبيخ من المولى سبحانه يوم النّشور ؟ أم يجب عليه أن ينتقل من ذلك الموضع لغيره؛ لأنّ ارّاتع حول الحِمى يوشك أن يقع فيه ؟

«بقنو المر لمن اضطُرّ إليه في خاصّة نفسه، واحتاج إليه كلّ الاحْتياج، فلكم الأجر التّامّ والسّلام»[1].

---

[1] ـ البستان : 14 ـ 15 .

وهذا جواب العلاّمة المناوي حيث قال :

الحمد لله الواجب على المؤمن المحقّق، النّاظر لنفسه نظر مشْفق، أن يفرّ بدينه من الفِتن، ولا يقيم إلاّ في موضع تُقام فيه السّنن، ولا يأخذ من علم دينه ما يحتاج إليه إلاّ ممّن تظهر آثار الخشْية والخضوع عليه، ويطلب ذلك في أقطار الأرض ونواحيها، بدليل ﴿ ألمْ تكن ارضُ اللّهِ واسعَةً فَتُهاجروا فيها ﴾[1] هذا مع الإمكان، ووجود بغْيته في غير ذلك المكان. فإن تعذَّرَ عليه ذلك، وانسدّت عنه المسالك، ولم يجد موضعاً صالحاً مرضيّاً، ولا معلّماً صالحاً مهْديّاً، فليُقمْ هناك صابراً صبْراً جميلا، ويكون من المستضعفين من الرّجال والنّساء والوِلْدان الذين لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً[2]. ولْيقلْ كما قالوا ـ إن لم يجد مُعيناً على الدّين ولا ظهيراً. ﴿ ربّنا أخرجْنا من هذه القرْيَة الظّالمِ أهْلُها واجْعلْ لنا منْ لَدُنْكَ وليّاً واجْعلْ لنا منْ لَدُنْكَ نَصيــراً ﴾[3]ويأخذ من العلم ما يُضْطَرّ إليه من كلّ متصدّر للأخْذ عنه. فربَّ حامل علم أهدى ممّن هو أعلم منه. وقد يعالَج المريض المؤمن بدواء الطّبيب الكافر، وقد يؤيّد اللّه الدّين بالرّجل الفاجر، ويُشترى من المبيعات ما يُحتاج إليه لِبْساً وطَعْماً، ولكنْ لا يَغْشِم المعيشة غَشماً، ولْيُعْط الورَع حقّه، ويستعملْ في ذلك اجتهاده ورفْقه، ويتجنّبْ شراء المأخوذ في المَكْس من غاصبه، ويشْترِ ممّا بقي على ملك صاحبه، مع مراعاة قواعد الشّريعة المقرّرة، ومسائل الفقه المسطَّرَة، والوقوف في حدّ الضّرورة،

---

[1] ـ سورة النّساء ـ جزء من الآية 97 .

[2] ـ تضْمين للآية 99 من سورة النّساء .

[3] ـ سورة النّساء ـ جزء من الآية 75 .

وعدم الاسْتِرْسال في الشّهوات المُباحات، فضلاً عن المحْظورات. فإن اقتصر على ضروريّاته لم يخَف على دينه اخْتلالاً، إذْ لو كانت الدّنيا جيفة لكان قوت المومن منها حلالاً، وقد أحسَن الفقيه الكلاعي حيث يقول في هذا المساغ (الطّويل) :

وطاعَةَ مَنْ إليْهِمُ الأمْرُ فالْزَمِ وإنْ جاروا، وكانوا مسلمينا
وإنْ كَفَروا ككُفْر بني عُبيْدٍ فلا تسْكُنْ ديارَ الكافِرينا
فرُبّما يقوم الحقّ يوماً فتَهْلِك في غِمار الهالكينا
تجِدْ في الأرض مُتَّسَعاً فهاجر إلى دار الهُداة الواصلينا

والله سبحانه أعلم، وبه التّوفيق. انتهى»[1].

كلمة ختاميّة :

إنّ ما ذكرناه من أسماء لا يمثّل في واقع الأمر إلاّ ذرّة من رمل، وقطرة من بحر؛ ذلك أنّ علماء تلمسان ومدرّسيها لا يُحْصَوْنَ عدّا، وهم ما زالوا مبثوثين في مظانّ عصْماءَ منيعة : بعضُها تحت رحمة أناس بلغ بهم حرْصهم عليها إلى درجة منعها من التّنفّس خارج بيوتاتهم وصناديقهم فخَنَقوها بذلك وأبادوها، وبعضها الآخر مخْبوء تحت رُكام الأغبْرة والأتْربة والإهمال، لا يدري أصحابه ما قيمته، وصنْفٌ ثالث نائم شبْه منسيّ في المكتبات العالميّة والجزائريّة المنظّمة، وهذا الصّنف الأخير هو الذي يمكن أن يحُقّ ويُنتشَل من الضّياع على الأقلّ.

[1] - البستان : 15 - 16 .

ولعلّ الأيّام المقبلة كفيلة بالكشْف عن كثير من هذه الكنوز التي بوَساطتها يستطيع الدّارسون أن يؤسّسوا للفكر الجزائريّ، ويؤرّخوا له بصدق وأمانة، من غير التّغاضي عن حلقات هامّة ظلّت مغيَّبة ضائعة .

الوصف في الشّعر المغربيّ
غداة الخمسية الهجرية الأولى

ممّا لا يتنازع فيه اثنان، ولا يتناطح عنزان أنّ الشّعر العربيّ وجداني إلاّ أقلّه؛ ولكنْ ليس كلّ شعر يندرج تحت هذا الباب هو بالضّرورة منه؛ فقد نلفي غرضاً من أغراض الشعر الوجداني، ولكنّه مع ذلك لا يتعلّق به إلاّ من حيث إنّه يتناول الصيد، أو الحرب، أو الحكمة، أو الرّثاء، أو الوصف، أو الغزل. ولابدّ من التّنويه بأنّنا أطلقنا (الكل) من باب الجزء ؛ لأنّ التّعاريف للشّعر الوجداني قد تخالفنا الرّأي؛ حيث إنّها تكاد تحصره في الحنين والنّسيب والتّشوّق إلى الإخوان- كما يذهب إلى ذلك عبد السّلام شقور[1]،ولكنّ الذي يزيدنا اطمئنانا إلى ما قرّرناه، هو رأي أحد أقطاب الأدب والنّقد في العصور القديمة؛ ونعني به ابن رشيق الذي أحصى كثيراً من الأغراض التي تدخل تحت باب الشّعر الوجداني، فذكر منها : النّسيب، والمديح، والفخر، والرّثاء، والعتاب، والوعيد والإنذار، والهجاء، والاعتذار[2] فلما انتقل إلى الوصف[3]- مثلما يلاحظ عمر فروخ - لم يتعرّض لأغراض وفنون كانت مألوفة على عهده ذائعة كالخمريّات، والحكمة، والطّرديات، والزّهد، والإخوانيّات[4].

ومن الواضح أنّ الشّعر إذا كان يُعزى إلى هذا الغرض أو ذاك، ولكنّه يخلو من العاطفة الدّفاقة، والمشاعر الصّادقة، والتّأثيرات

---

[1]- ينظر كتاب : القاضي عياض الأديب : د.عبد السلام شقور - دار الفكر المغربي - المغرب 1983م / ط1 ، ص 261.

[2]- ينظر كتاب العمدة في محاسن الشّعر وآدابه: أبو عليّ الحسن بن رشيق القيروانيّ - تحقيق: محمد عبد القادر أحمد عطا - دار الكتب العلميّة - بيروت (لبنان) ط1 / 1422ه (2001 م) - 1: 110 - 181.

[3]- يراجع من : 238- 285.

[4]- ينظر: تاريخ الأدب العربيّ : د. عمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت1385هـ(1965م)1 : 50.

والتّأثّرات؛ فإنّه قمين بأن يُقصى من هذا الفنّ، ويُعزَل من هذا التّصنيف. أضف إلى ذلك أنّ المراد بالشعر الوجدانيّ ليس حتما هو ذلك الشعر الذي يتعمّق ويحاول التّخفّي وراء الرّموز والإيحاءات فحسب، ولكنّه هو أيضا كلّ شعر تلفّع بثوب المشاعر والأحاسيس مثلما يؤكّده أحد الدارسين قائلاً : «إنّ الفائدة المصاحبة للجمال لا يشترط أن تكون فائدة مادية بحتة (كذا)، فقد تكون فائدة نفسيّة، أو روحيّة، أو أخلاقيّة، فالجمال النّباتيّ والزّهريّ بما يعقبه في نفس المتذوّق من مشاعر البهجة، يطرد كذلك مشاعر الكآبة والسّأم، كما يزيل منظر الماء المتدفّق النّضّاخ مشاعر الرّتابة والفراغ والسّكون والهمود...بل إنّ الشّعور بالرّضى واللطف والسّرور وغيرها من المشاعر الجماليّة الخاصّة إنّما هي مكاسب نفسيّة ومنافع وجدانيّة للإنسان.»[1]

هي ذي الوجدانيّة التي يغرض إليها البحث إذاً، وليس الوجدانيّة الرّامزة التي تتغلغل في عالم الخيال، وتختفي بين تعاريج التّصوّف والتّفلسف.

وحين رمنا أن نبحث في هذا اللّون من الشّعر صادفتنا نموذجات كثار، تطمح كلّها إلى أن تُدمَج معه أو تطمع في أن ترتدي ثوب لونه. بيد أنّ القارئ الواعي ـ كما يطلق عليه سارتر ـ[2] لا يأخذ بهذه المسلّمة؛ بل يقبل على تمحيص النّصوص والتّملّي في قراءتها قبل أن يسمح لها بالاعتزاء إلى هذا الغرض أو ذاك.

---

[1] ـ مجلّة المشكاة، ع 12. السّنة 3 ـ يناير، فبراير، مارس 1990 ، مقالة عنوانها: «غائية الجمال الإسلاميّ ومعطياته».

[2] ـ ينظر: ما الأدب ؟ : سارتر(جان بول) ـ ترجمة: د. محمد غنيمي هلال ـ دار العودة ـ بيروت (لبنان) 1984م ، د.ط

وبما أنّ هذه المداخلة تحاول أن تغطّي فترة معيّنة : فإنّه لا مندوحة لها من الاطّلاع على الشّعراء الذين أسّسوا بقصائدهم لهذا الفنّ في المغرب العربيّ ؛ وإن كان الأمر عصيّا، والاستقصاء شبه مستحيل، باعتبار أنّ العدد عديد، والقائمة طويلة، وما أوردناه في هذا العمل لا يعدو أن يكون قطرة من بحر، وذرّة من رمل .

وكان من أهمّ الشّعراء الذين عُنوا بهذا الفنّ ؛ بكر بن حمّاد، وأحمد الصّواف؛ وابن فلفول، وابن النّحوي، والقاضي عياض، والحسن بن زِنباع، والصقلي النحوي، وابنُ رشيق، والشّقراطيسي، وعيسى بن مسكين (214- 257هـ) وعبد الملك بن قُطن (- 255هـ)وهلمّ جرّاً...

وقد يكون من قبيل المبالغة أن نلزم أنفسنا بمسح تاريخي دقيق لتتبُّع هذا الشّعر في مظانّه، لأنّ حجم هذه المداخلة لا يسعها، من وجهة، ولأنّ ذلك يتطلّب كتابة بحث مستقلّ من وجهة أخرى، بل إنّ البحث الأكاديميّ نفسه، والذي يقوم به شخص وحده، يأبى أن يحمله ويشفِق منه، ولا جرم أن يتوزّع هذا العملَ بُحوثٌ كثيرة حتّى يقتربوا من إدراك المُبتغى، ونيل الأرب.

هذا جانب، وأمّا الآخر ؛ فهو أنّ المداخلة ستجتزئ بنموذجات قلائل ؛ فاسحة المجال لمن أراد التّوسّع والتّفصيل[1] ؛ مع الإشارة إلى أنّنا سنقف عند كلّ غرض من أغراض هذا الفنّ؛ مقتصرين على الجديد من الأمثلة، كي لا يحدث اجترار، ولا يقع تكرار لما هو مألوف شائع من الاستشهادات في حدود ما تتيحه الأمثلة، وتوفّره المظانّ.

---

[1]- كان مقرّراً لهذا العمل أن يكون مداخلة فحسب؛ ولكن بعد الاطّلاع على كثرة النّماذج، والاستغراق في البحث تحوّلت هذه المداخلة إلى بحث مستقلّ قد يصدر في كتاب قريبا إن شاء اللّه؛ وبذلك تصبح هذه المداخلة جزءاً يسيراً فقط من العمل الكليّ ؛ فهي مستلّة من بعض عناصره لا أكثر.

الوصف :

إنّ أجمل الشّعر وأروعه بلا نزاع هو الوصف، وحين نجيء إلى هذه الإشارة فإنّنا لا نعني الوصف العابر أو العامّ؛ لأنّ الشّعر العربيّ كلّه يعود إلى الوصف - في نظر ابن رشيق- [1] وإنّما سنقف عند الوصف الذي يتبجّس بماء الحياة، ويتدفّق بعاطفة الإنسانية؛ ونعني به وصف الطّبيعة الذي يهزّ المشاعر النّائمة، ويوقظ العواطف الخاملة. وإلاّ، فَمَنْذا الذي لا يرغب في جلسة هادئة أصيلاً فوق الرّمال، أو على قمم الجبال وقُنَنِها، أو بجنب جدول رقراق يبعث بخرير أمواهه، أو تحت سرحة متدلّية الأفنان، طلحها منضود، وظلّها ممدود.أضف إلى ذلك أنّ هذه الطّبيعة تكون أروع منظراً وأقرب إلى نفسيّة المرء إن كانت في فصل معيّن كفصل الرّبيع؛ والذي صادفت بهجةُ أيّامه انعقاد هذا الملتقى.

ومن الواضح أنّ شعر الطّبيعة في الأدب العربي قليل نادر، وما وصل إلينا لا يمثّل بحّق جمال الشّعور العربيّ، ولاسيّما في الحواضر التي كانت موئلاً لتدفّق المياه، وشذا الأزهار، وشدْو الأطيار، وهنْدسة الغرس، واخضرار الأشجار المثقلة بأطايب الفاكهة، والمنمّقة بمفاتن الاخضرار!... فهل أنّ البيئة العربيّة أقحلت إلى درجة أن جعلت أهلها لا يقدرون على التّغنّي بمفاتن مناظرها ؛ أم أنّ البيادر غلبت الحواضر ؟! ولكن، حتّى إن كان الأمر مفترضا على هذا النّحو؛ فإنّنا لا نعذِرُ الشّعراء العرب الذين أداروا ظهورهم لكلّ ما في الطّبيعة من أشجار وفواكه وسواق وأنهار وبحار وحقول مترامية،

---

[1] - ينظر كتاب العمدة 2: 278.

وحدائق متناثرة...وهذه التّهمة تصمّ جبين الشّعر العربي ليس في المغرب العربي وحده، وإنّما في المشرق العربيّ أيضا. ومن هنا، فإنّنا لا نُثرّب شعراء المغرب العربيّ بدعوى أنّهم مقصّرون في هذا الغرض، ناقصون في هذا المجال.

وقد بدا لنا من الوقفات المتناصّية عند هؤلاء الشّعراء أنّهم استطاعوا أن يرسموا لنا بعض الألواح المثيرة المؤثّرة جميعا من الطّبيعة ؛ إلاّ أنّ عددهم كان محدوداً، والقصائدَ كانت موجزة إلى درجة أن تحوّل كثير منها إلى مجرّد مقطوعات ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإلحاح على التّساؤل تارة أخرى في حيرة : هل فهل أنّ فِكْر هؤلاء أجدب وأمحل فجفّ معه اليَراع، أو أنّ عوادي الزّمن جارت على إبداعهم فلم تسجّل إلاّ ما راق لها، ولم تحتفظ إلاّ بما صادفته في طريقها ؟!

مهما يكن ؛ فإنّ هذا الغرض ذائع الصّيت عندهم، ويمتاز بخصائص ومقوّمات فنّيّة لا تقلّ شأناً عما عرفته الحواضر العربيّة الأخرى كبغداد، ودمشق، وحلب، وغيرها ؛ ويستنتج الدّارس وهو يخافت صوته وحده، ويناجي نجيّه أو فكره أنّ هذا الفنّ الشّعريّ قد تحيّفه بعض القوم فأغفلوا ذكره، وأهملوا أمره، وهذا من شأنه أن يدفعنا نحن إلى أن نكون بهذا الشّعر أحفياء، وبهذا النّوع منه بخاصّة أوفياء إسهاما منّا متواضعاً في كتابة تأريخ للأدب العربيّ في أقاليم المغرب غداة الخمسيّة الهجريّة الأولى.

بيد أنّ الغرض الغالب على الفنون الوجدانيّة جميعا هو غرض الوصف؛وإن كانت هذه الغلبة ليست بدعا ولا عجبا، لأنّ بعض النّقّاد مثلما سبقت الإشارة إليه يكاد يجزم بأنّ الشّعر العربيّ كله

يعود إلى الوصف؛ وبأنّه هو الأصل في الأغراض المختلفة المذكورة؛ يقول ابن رشيق : «الشّعر إلاّ اقلّه راجع إلى الوصف؛ بيد أنّه لم يكن ثمَّةَ من تجزئة هذه التّسمية لاتّساع مدلول الوصف مطلقاً وشموله كلّ شيء تقريبا ، فنظر النّقّاد إلى الموضوعات التي اتّسعت اتّساعاً كبيراً فسمّوْا وصف النّاس الأحياء مدحاً وهجاء، وسمَّوْا وصف الأموات رثاء، وسمّوْا وصف النّساء خاصّة غزلاً، ثمّ إنّهم قسموا الكلام في المرأة قسمين، فما كان منه في وصف أعضائها الظّاهرة من حسْن وجهها وجمال قدّها ولون شعرها واتّساع عينيها أبقوا له اسم الغزل، وما كان يتناول الشّكوى من فراقها والتّشوّق إلى لقائها وإظهار الحبّ لها سمّوه نسيباً...»[1] فصار الوصف منصرفاً إلى وصف الطّبيعة خصوصاً؛ ومن هذا التّحديد جئنا إلى بعض المقطوعات ؛ والتي لم تكن بالكثرة التي يطمح الدّارس إلى الوصول إليها ، بيد أنّها تقدّم تشخيصاً لهذا الغرض وتقرّب توضيحاً له، إذ إنّ ما أوردناه من نماذج قد يكفي لأخذ فكرة ما؛ باعتبار أنّ هؤلاء الشّعراء قد وضعوا اللّمسات الأولى للوصف أو كادوا ، وكان لهم دور في تحديد هذا الاتّجاه الفنّيّ في مقدّمتهم بكر بن حمّاد التيهرتي الذي نلاحظ أنّه بالرّغم من شهرته الشّعريّة ، وطول باعه في وصف الحروب والمعارك، وقدرته على الرّثاء؛ فإنّه لم يوفّق في

---

[1]- من خلال استقصائنا لهذه الأغراض ألفينا وفرة في بعض الأغراض كالوصف والرّثاء والشّكوى والغزل والخاطرة والزّهد ، وشبه غياب لبعضها الآخر كالحكمة مثلاً التي لم نعثر فيها على أكثر من نصّ واحد لابن النّحويّ، والملاحظة نفسها تنطبق على الفخر الذي كان نادراً ، ولم يتأتّ لنا رصْد أكثر من نصّين، أحدهما لإبراهيم بن الأغلب، والآخر ليحيى بن تميم؛ وهو ما يعني ترفّع شعراء المغرب العربي عن التّبجّح والافتخار المبالغ فيهما.

الوصف ؛ وقد يهزأ به النّاقد وهو يقرأ له هذه المقطوعة الوحيدة المؤلّفة من أربعة أبيات في الوصف حين يقول :

ما أخْشنَ البردَ وريعانه وأطرفَ الشّمس بتاهَرْتِ
تبدو من الغيم إذا ما بَدَتْ كأنّها تُنْشَرُ مِنْ تخْتِ
فنحن منها في بحر بلا لجّةٍ تجْري بنا الرّيح على الصّمت
نفرح بالشّمس إذا ما بَدَتْ كفَرْحَة الذّمّيِّ بالسّبْتِ[1]

وممّا لا ريب فيه أنّ هذا الشّاعر معذور، لأنّه لم يكن يجري وراء النّظم في كلّ الأغراض المتداولة على عهده؛ وإنّما كان ذا رسالة مذهبيّة، وكان يعمل على بسط ذهبه، وإرساء دعائمه بقصائد لا ينكر أحد جمالها، ولا يتجاهل امرؤ أيّا كان شأنها الفكريّ، أو قيمتها الفنّيّة.

إنّ شعر الطّبيعة عرف بدايته على أيدي الشّعراء الجاهليّين والعبّاسيّين ثمّ الأندلسيّين الذين تغنّوا بمفاتن الطّبيعة فوقفوا عند كلّ من وصف البساتين، والبروق، والزّهور، والأمطار، ومجالس الغناء والطّرب، وأماكن القصف واللّهو، والرّياض، والجداول، والخمائل، والنّاعورات، وغيرها. وبإمكان الباحث في هذا الغرض عندهم أن يغترف نماذجها اغترافاً، وأن يتجوّل بين ظلالها متبختراً مرتاحا، لكنّ نظيره الذي يؤرّخ لهذه الفترة في المغرب العربيّ يشقى ببحثه، ويُعنّى بقراءته. والأهمّ أنّنا ألفينا بعض النّصوص التي تهزّ النّفوس، وتنعش الأحاسيس؛ ومن ذلكم ما يذكره ابن زنباع واصفاً

---

1 - الدّرّ الوقّاد: من شعر أبي بكر بن حمّاد التّاهرتي – تقديم وجمع وشرح: محمّد بن رمضان شاوش – نشر: المطبعة العلويّة لمستغانم- الجزائر ط1 / 1385هـ (1966م) ص61.

آثار الرّبيع وروعة تأثيره في الطّبيعة بعامّة؛ جاعلاً من الجماد حركة، ومن الصّورة حياة، ومن المشهد استجابة كما لو كانت إنسانا يعي ويسمع ؛ يقول :

أبدتْ لنا الأيّـام زهرة طيبهـا وتسرْبلَتْ بنضيرها وقشيبهـا
واهتزّ عطف الأرض بعدَ خشوعها وبدتْ بها النّعماء بعدَ شُحوبهـا
وتطلّعت في عُنْفُوانِ شبابهـــا من بعد ما بلغت عُتِيّ مشيبهـا

فلولا أنّه يذكر في البدء بنية "الأيّام" لذهب بنا التّفكير إلى أنّه يريد فتاة رائعة الحسن قد اكتست ثوباً فضفاضاً، وتزيّنت بشبابها الفائر الذي يحرّك الجماد، ويهزّ الزّاهد.

ثمّ يتقل إلى السّحب ليُلبِسها بدورها لُبوس الحياة، ويضفيَ عليها الأنْسنةَ فيَجْعلَها تحسّ وتشعر، ولذلك فهي ترحم تلك الأرض التي كانت ظمأى إلى الماء، متلهّفة على الارتواء؛ فيقول :

وقفتْ عليها السُّحْبُ وقْفَة راحـمٍ فبكـتْ لهـا بعيونِهـا وقلوبهـا

وهذا التّأثّر الذي انطبع على السّحب فجعلها تحنّ على الأرض حنوّ المرضعات على الفطيم أفضى إلى أن تحدث علاقة غريبة حيث يغدو التّقطيب سعادة، وتصيرُ الابتسامة ألما وشقاء؛ إذْ إنّ اكفهْرار السّماء ودموع السّحب أسهمت إلى درجة كبيرة في نشر سعادة مطلقة بين عالم الأزهار، وبثّت نشاطاً دائباً، وحبوراً مطلقا بين فصيلتها ؛ ولم تقتصر على ذلك وحده، وإنّما تزيّنت بحُلل ذهبيّة، وأضافت إلى زينتها تزيينا، وإلى بهجة لونها فتنة وإثارة :

فعجبت للأزهار كيف تضاحكت ببكائها، وتباشرت بقطوبها
وتسربلتْ حُللاً تجرّ ذيولها من لومها فيها وشقّ جيوبها
فلقد أجاد المزْن في إنْجادها وأجاد حرّ الشّمس في تربيبها

ومن وصف الطّبيعة يخلُصُ إلى نفسه هو وأخلاّؤهُ من ذوي الصّفوة والسّموّ، ومن أهل البرِّ والصّدق؛ لا رِفاق السّوء، وصحبةِ الأشرار، وجلسةِ اللّهو؛ فيقول :

فأَدرْ كؤوس الأنس في حافاتها واجْعل سديد القول من مَشْروبها
وحديثُ إخوان الصّفاء لذاذةُ تُجْنى، ويؤْمَنُ مِنْ جِنايةِ حُوبها
واركُضْ إلى اللّذّاتِ في ميْدانِها واسبق لسدّ ثغورِها ودروبها
أغريْت خيْلك صيْفَها وخريفها وشتاءها، هذا أوان ركوبها
أو ما ترى الأزهار ما مِنْ زهرة إلاّ وقد ركبت فِقار قضيبها
والطيرَ قد خَفَقتْ على أفْنانِها تُلْقي فنون الشّدْوِ في أسلوبها
تشدو وتهتزّ للغصون كأنّما حركاتُها رَقْص على تطريبها[1]

هذا الوصف الجميل قد زاده الحوار الدّاخليّ بين الضّمائر بهاءً وحسنا، وطبعه الانزياح بطابعه المنوّع ؛ فكانت الأزهار والأطيار والأشجار هي التي تصنع الحدث في هذه القصّة، وهي التي تتمايل مترنّحة، وتتراقص متأثّرة بما ترى وتسمع وتحيا.

أمّا القاضي عياض فإنّه قد أسهم بدوره في هذا الغرض – وإن لم يكثر- ولكن الذي قاله يعدّ من عيون شعر العرب الوصفي؛ يقول في بيتين شهيرين واصفاً سوق الزّرع في نشوة بلوغه أعلى درجة

---

[1] - المغرب العربيّ: تاريخه وثقافته، رابح بونار، ص ص 341 – 342.

النّضج والامتلاء والاستحصاد؛ ذكرتهما معظم الكتب التي ترجمت له واقتصرت عليهما؛ فهل أنّه لم يقل إلاّ هذين البيتين؛ أم أنّ المظانّ لم تجهد نفسها، وتصرّفت في شعره على عادة المؤرّخين القُدامى :

انظر إلى الزرع وخاماتــه تَحْكي، وقَدْ ماسَتْ أَمامَ[1]
كتيبَةً خضـراءَ مهزومـةً شَقائِقُ النُعْمانِ فيها جِراح[2]

إنّها صورة معبّرة مؤثرة يمكن لها أن تتحوّل في يد رسّام ما إلى لوح فيه الألوان، وفيه الظّلال، وفيه الزّوايا والإيحاءات المختلفة.

صورة الزرع بخيلائه وإعجابه بنفسه ⟵ صورة الرّياح في قوّتها وعتوّتها.

= كتيبة خضراء مهزومة = شقائق النّعمان (باللّون الأحمر) = جراح لها.

أجل، إنّ الصّورة الفنّيّة جديدة طريفة، لكنّ الصّورة المعنويّة مهتزّة؛ لأنّ الزّرع إذا انحنت رؤوسه، وجنحت سوقه إلى الأرض؛ فليس ذلكم انهزاماً دائما، وإنّما انهزاما مؤقّتا، لأنّه سرعان ما ينتفض إلى أعلى، ويثور على الرّياح نفسها فيعاود الوقفة في هيئته مستقيمة؛ على حين أنّ الكتيبة المهزومة يتعذّر عليها أن تستعيد عافيتها وتجدّد استعدادها إلاّ بعد مدّة.

وهذا الشّاعر القاضي نفسه ينبري لوصف الطّبيعة هذه المرّة من خلال حديثه عن ليلة غرّاء كما نعتها هو؛ يقول :

---

1 - الخامة: القصبة الرطبة من الزّرع.

2 - المطرب من أشعار المغرب لابن دحية (ذي النّسبين أبي الخطاب عمر بن حسن المتوفّى سنة 633هـ - تحقيق: الأستاذ إبراهيم الأبياري وأحمد بدوي وحامد عبد المجيد – راجعه الدكتور طه حسين - دار العلم للجميع- د. ط / د. ت - ص87.

سمح الزّمان بليْلة غرّاءَ جامعة السّرورْ
أجْنت أكُفّ جُناتِها قطفَ الأمانيّ والْحُبورْ
ما فضّ طين خِتامَها فيما تقدّم من دهورْ

هو وصف لليلة ما إذاً، وكان يمكن أن يمضي في الوصف لهذه اللّيلة بنجومها اللاّمعة، وكواكبها السيّارة المضيئة، وأقمارها المشعّة؛ أو يصف ما يُوحي به دجاها المخيف، ولونها المرعب، أو يصف خلوّ كلّ خلّ فيها إلى خليله، أو روعة السّمر وبهجة السّهر في كنفه بين الأحبّة والخلاّن...إلى غير ذلك ممّا يضفي على وصفه التّوقان، ويكسبه التّفوّق والتّجديد؛ لكنّه هو اختار سبيلاً آخر؛ فقد انتقل إلى المدح الرسميّ ممّا يعني أنّ هذه الأبيات الثّلاثة التي وصف في أثنائها تلك اللّيلة لم تكن إلاّ تمهيداً يقرّبه إلى الممدوح؛ فيقول :

دارتْ على فَلَك السّعْد بمثْلِ أشْباهِ الْبُدورْ
من كلّ مَنْ ملأَتْ مهابته الْعُيُونَ أو الصّدورْ[1]

ولا نسترسل في إيراد الأبيات الباقية، لأنّها مهزوزة فنّيًا من وجهة، ولأنّها لا تمُتُّ بصلة إلى الموضوع المرام دراسته من وجهة أخرى.

وسيدرك المتلقّي وحده كيف أنّ وصف عياض سيتقزّم إزاء وصف ابن حمديس مثلا، مع أنّهما عاشا في فترة واحدة تقريبا[2]، ولكنْ للاتّجاه الشّخصيّ والخلفيّات الثّقافيّة والمِراس الشّعري والزّاد اللّغويّ دور في أولئك كلّه. وقد لا نكون في حاجة إلى أن نورد للشّاعر النّصّ الشّهير الذي يصف به قصر المنصور الحمادي في

---

[1] - أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض :احمد بن محمد المقري - طبع ثلاثة أجزاء بمصر، والرابع والخامس بالمغرب الأقصى - مطبعة فضالة - المحمدية ، د ت - 4: 246.

[2] - كانت وفاة ابن حمديس عام 527هـ، ووفاة القاضي عياض سنة 544هـ.

بجاية، حيث صوّر ما فيه من أشجار ظليلة، وأمواه متدفّقة وأسود متهيّئة للوثوب أو تكاد...وهي قصيدة جميلة متداولة بين المتلقّين[1] وإنّما سنركّز على قسم من هذه القصيدة يتعرّض فيه لوصف الشّجرة –وما أحوجنا في كلّ شهر، بل وفي كلّ يوم إلى من يصف لنا وللأجيال الجديدة الشّجرة- ويتغنّى بها؛ ويمجّد رسالتها وأثرها على الطّبيعة الحيّة والجامدة بعامّة ؛ يقول :

وبَديعةِ الثّمرات تَعْبُرُ نحوها عيناي بحرَ عجائبٍ مَسْجورا[2]
شجريّةٍ ذهبيّةٍ نزعت إلى سِحْرٍ يؤثّر في النُّهى تأثيرا
قدْ صُوّحتأغصانها فكأنّما قبضت بهنّ من الفضاء طيُورا[3]
وكأنّما[4] تأبى لوُقّع طيرها أن تستقلّ بنبْضها وتطيرا[5]
من كلّ واقعة ترى منقارها ماءً كَسِلْسال اللُّجيْنِ نميرا
خُرْسٌ تعدّ من الفصاح فإن شدتْ جعلتْ تغرّد بالمياه صفيرا
وكأنّما في كلّ غُصْن فضّة لانت، فأرسل خيْطها مجْرورا
وتُريك في الصّهريج موقع قَطرِها فوق الزّبرجَد لُؤلُؤاً مَنْثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنّما جعلت لها زهر النّجوم ثغورا[6]

---

1 - نريد قصيدته التي منها: وضَراغِم سكنت عَرينَ رئاسَةٍ تركت خَريرَ الماءِ فيه زئيرا
2 - البحر المسجور: السّاكن والممتلئ معاً –سَجَرَ الماءُ النّهر: ملأه / سجر البحرُ: فاضَ.

3 - صوّح البقل: يبس / صوّحته الرّيح أو الشّمس: جفّفته / تصوّحَ: تجفّف.
4 - وقع يقع وقوعا : الطير على شجلا أو أرض ك فهن وقع ووقوع.
5 - المغرب العربيّ: رابح بونار، ص 349.
6 - خدى البعير يخدي خديا وحديانا : إذا أسرع وزج بقوائمه.

ونختم هذا الجزء من البحث بقصيدة لابن رشيق المسيلي[1] الذي –وإن اشتهر بنظريّاته النّقديّة- فإنّ شعره لا يقلّ شهرة ولا تقديراً ؛ ومن بديع الوصف عنده قوله متحدّثاً عن البرق –الطّويل- :

أرى بارِقاً بالأبْرق الفرد يومِضُ ... يُذهّب ما بين الدّجى ويُفضّضُ[2]
كأنّ سليمى من أعاليه أشرقَتْ ... تمُدُّ لنا كفّا خَضيباً وتَقْبِضُ
إذا ما توالى ومْضُه نفض الدّجى ... له صبغة المسودّ أو كاد ينفُضُ
أرقْت له والقلب يهفو هَفْوةً ... على أنّه منه أحرّ وأوْمَضُ
وبِتُّ أُداري الشّوْقَ والشّوْقُ مُقْبِل ... عليّ، وأدعو الصّبْرَ والصّبْرُ مُعْرِضُ
وأَسْتَنْجِدُ الدّمْعَ الأَبِيَّ على الأسى ... فتُنجدُني منه جداول فيض
وأعْذِرُ قلباً لا يزالُ يروعُهُ ... سنا النّهار مهْما لاحَ، والبرقُ يومِضُ[3]

إنّ ابن رشيق قد ركب مركبا صعبا ، وامتطى بحر رويّ جَموحا ظلّ حَراناً على غيره من الشّعراء، لكنّه هو أذلّه وألانه فانْقاد له خاضعا خانعا ، ولم نشعر بتلك الرّهبة التي يبعثها حرف الضّاد في المبدعين بعامّة ، حيث يعملون غالبا على اجتنابه وعدم النّظم به...

أمّا مستويات هذا النّصّ فإنّها بلغت أوْج التّنسيق والتّنضيد للبنى الإفراديّة والتّركيبيّة معا؛ حيث إنّه استعان بالحوار الدّاخليّ النّاتج عن

---

[1] - أبو الحسن بن رشيق: ولد بمدينة المحمّدية (المسيلة) بالجزائر سنة 385هـ، وبها تلقّى علوم العربيّة وكثيراً من المبادئ في الأدب والشّعر، ثمّ انتقل إلى القيروان حيث ذاعت شهرته أكثر، وازداد ثقافة وتعمّقا في خطابه الشّعريّ وفي تجاربه الأدبيّة والنّقديّة إلى أن توفّي بها سنة 406هـ.

[2] - الأبرق: غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة.

[3] - عنوان الأريب: محمّد النّيفر 1 : 53

- الأدب في عصر بني حمّاد: د. أحمد بن محمّد أبو زراق، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع – الجزائر: ط1 / 1979م، ص 236.

التّنويع في الضّمائر، والتّنميق في إيراد الصّور الفنّيّة المختلفة ما بين التّرادف والتّجانس والتّطابق والتّكنية واللّجوء إلى المجاز اللّغويّ والإيقاع بنوعيه ولم نلاحظ تكلّفا إلاّ في البيت الأخير حيث جاء العجز ثقيلاً ركيكا مثلما يتّضح جليّا في قوله :

- الجناس : بارقا / بالأبرق.
- التّرادف : يذهب / يفضفض.
- الطّباق : تمدّ ≠ تقبض.

الومض ≠ الدجى

أدعو ≠ معرض

أستنجد ≠ تنجدني

مقبل ≠ معرض

- المجاز : نفض الدّجى

أداري الشوق ←——— والشّوق مقبل

أدعو الصّبر ←——— والصّبر معرض

ومجمل القول إنّ هذا اللّون من الشّعر الوجداني قد عرفه شعراء المغرب العربيّ، واستطاعوا أن يبلغوا فيه درجة متميّزة؛ بل إنّ ما وصف به ابن حمديس قصر النّاصر يعدّ تحفة شعريّة فنّيّة لم تجد بها قرائح كثير من الشّعراء العرب؛ ووصفه لذلكم القصر يذكّرنا بالتّصوير الذي خصّ به البحتريُّ قصر المتوكّل وبِرْكته؛ وأنّها لا تقلّ عنها شأنا.

تمازج الشّوق والوصف والتّفلسف في ميميّة امحمد بن الطُّلْبَ

افتتاحيّة

دوافع الدراسة :

لقد شدّني الاهتمام بالأدب العربيّ في موريتانيا منذ زهاء ثلاثة عقود بعد أن وصل إلى يدي كتاب « الوسيط في أدباء شنقيط» للعلامة أحمد بن الأمين الشّنقيطي[1]، وكان من المفترض أن أقوم بقراءة بعض أعلامه قراءة وافية، وأن أقف عند أهمّ مكوّنات النّصوص التي يطفح بها ؛ بيد أنّ انشغالاتي المتعدّدة أنستني ذلك كلّه، ومنذ نحو عام، جدّدت العهد مع هذا الأدب حين شاركت في مناقشة طالب موريتانيّ[2] تقدّم بموضوع لنيل دكتوراه دولة موسوم : « أدب المناقب والكرامات في بلاد شنقيط (خلال القرنين 13 و14 هـ) ـ قراءة في مدوّنات القول وخوارق القوم -»[3]، فأتاح لي هذا الاحتكاك المتجدّد الاطّلاع على عوالم أخرى ونصوص أخرى، أضف إلى ذلك أنّي ألححت على الطّالب الباحث المشار إليه، أن يقوم ببعض الكتابات عن هذا الأدب للتّعريف به كي ننشرها له في مجلة « الفضاء المغاربيّ »[4] فلبّى الطّلب مشكوراً، وبعث لنا بمقالة عنوانها : « تداخل المديح والتوشيح عند الشيخ محمد اليدالي »[5].

---

[1] ـ ط3، القاهرة 1961م،- أهدانيه أحد طلبتي حينما عملت أستاذا متعاونا بثانويّة نواكشوط الوطنيّة ما بين سنتي 74 و75م مشكوراً.

[2] ـ هو الباحث محمدنْ بن المحبوب.

[3] ـ نوقشت هذه الرسالة بجامعة وهران يوم 15 مارس 2004م.

[4] ـ هذه المجلة يصدرها دوريا مخبر الدراسات الأدبية والنقديّة وأعلامها في المغرب العربيّ- كلية الآداب، جامعة تلمسان.

[5] ـ محمد اليدالي (1096 ـ 1166 هـ) من أهمّ مؤلّفاته: «الذّهب الإبريز في شرح كتاب الله العزيز»، و « الحلّة السيرا في أنساب العرب»، و « سيرة خير الورى»، و « خاتمة

وأسبق الأحداث لأقول إنّ ما سأقوم به لا يعدو أن يكون إسهاما متواضعا في التّعريف ببعض هذا الأدب الذي هجرته الدّراسات، وزهدت فيه البحوث، شأنه في ذلك شأن الأدب المغربيّ كلّه، ولولا بعض الأقلام الجادّة التي يعضدها الإيمان بضرورة التّعريف بهذا الأدب لكنّا اليوم لا نعلم شيئا عن حماد بن أبي بكر التاهرتي، ولا عن القاضي عياض، أو الوهراني، وهلمّ جرا...

إنني لا أسعى في هذه المقاربة إلى التّحليل بقدر ما أسعى إلى تقديم نصّ استمالني أسلوبه، وجذبني نسجه، وأثارني إيقاعه، وهزّني تناصّه، وحرّكتني لغته الكلاسيكيّة الجزلة، وبناه الإفراديّة التي تنسجم مع البيئة، وتدلّ على ثقافة صاحبها وعمقها وتنوّعها؛ فكان أولئك كلّه مدعاة لهذه القراءة.

وإذا كانت المنهجيّة تزعم أنّ النّصّ هو الذي يفرض طبيعة منهجه، باعتبار أنّ اختيار منهج مسبق وحشر نصّ بين أسواره غير مستساغ، فإنّ الأمر ينطبق علينا هذه المحاولة، حيث إنّنا تردّدنا كثيرا قبل أن يقع اختيارنا على خطوات عادية في القراءة لا تأسر النص وتحدّ من حرية تحرّكه، ولم يكن أنسب ولا ألأم من المنهج الفني الذي يتّفق النقاد بشأنه على أنّ تطبيقه ينطلق من داخله لا من خارجه، وذلكم ما سنقوم به.

وما لا يخفى على الألباب أنّ توظيف هذا المنهج بدوره قد عرف تنوّعاً في التّطبيق، وثراءً في العمق، وسنقتصر نحن فقط على

التصوّف »..إضافة إلى ديوان شعر محقّق. ينظر: نصوص من الأدب الموريتانيّ ، تحقيق الأستاذ محمد ولد باباهْ. نشر: بيت الحكمة ، تونس 1990م، وتنظر : مجلة الفضاء المغاربيّ ، ع.3 / 205 ص 85 ـ 118.

أوجزه، لأنّنا نعلم أنّ ثمّة فرقا بين نص قديم ونص حديث من حيث الغنى في الرّموز، والتّبحّر في الصّورة، والتّكلّف في الاحتكاك بالأسطورة، وهذا ما يجعل تحليلنا لهذا النص مختلفا لونه عن نصّ حداثيّ معاصر بطبيعة الحال.ومن خلال قراءاتنا المتعدّدة لمقاربات النقاد؛ استوقفتنا قراءة الأديب الناقد سعيد الغزاوي لنصوص معاصرة شعريّة ونثريّة[1] لما تتّسم به من بساطة في التّحليل، وتنويع في التّجريب، وتوضيح في الرّؤى، فآثرت مجاراتها مع إقصاء ما لا ينسجم وطبيعة هذا النص.

1 ـ دلالة العنوان :

ممّا يؤسف له أنّ القدامى كانوا يذرون خطابهم الشعريّ غفلا من العنوان، بدعوى أنّ ها العنوان يُستشفّ من مضامين النصّ وخطواته، ولكنّ هذا المسوّغ مرفوض، لأنّ الوالد أولى بتسمية مولوده، وهذا الإهمال للعنوان أرْبكنا ونحن نتتبّع أبيات النص، والغريب أنّ جامع هذه النصوص نفسه لم يكلف نفسه هو أيضا عناء البحث عن عنوان ملائم، وتركها على حالها، ربّما حفاظا على الأمانة، بتراء جدعاء !.

وإذا جاز لنا أن نتطفّل على هذا الشاعر ونملأ فراغ عنوانه مثلما تجنح إليه نظريّة التلقي، فإننا نقترح أن يكون عنوان هذا النص هو :

---

[1] ـ أصدر كتابا ضمن سلسلة رابطة الأدب الإسلاميّ العالميّة عنوانه: « مقالات في النقد الإسلاميّ ـ تأصيل وتجريب» ـ الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء ت ط1 / 1420 هـ (1999م).

تأوّه وافتخار وتصبّر

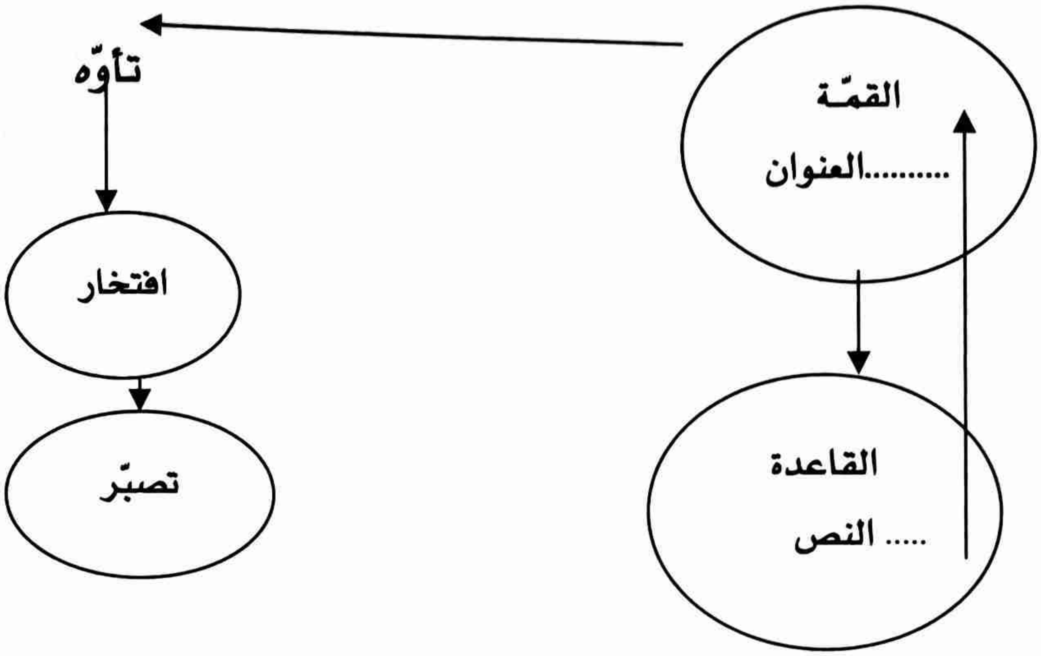
وانطلاقاً من هذه الفجوة، نشرع في الوقوف عند مداليل العنوان الذي يحتمل على الأقلّ ثلاثة احتمالات يكشف عنها الذين عُنوا بالوقوف عند العنوان وأثره ودوره في تحديد وحدات النص كلها، بيد أنّ ثمّة إشكالاً يصادف المهتمّين بتحليل دلائليّة العنوان، وهي أنّ هذا العنوان قد يكون أحيانا مستقلاًّ عن النصّ، أو على الأقلّ لا يعبّر بوضوح عن مكامن أجزاء النص وتركيبته ؛ وهو في هذه الحالة يتسامى إلى « مستوى يسمح لها باستيعاب هذه الخصوصيّة المرتبطة بالعنوان، كما تجعله في مستوى رساليّ لا يقلّ أهمية عن مستوى العمل»

والمولعون بالغوص إلى عمق دلالة العنوان أيضا قد يتوقّعون ما وراء مداليله متجاوبين في ذلك مع ما تكشف عنه نظريّة التلقي بخصوص التفاعل النفسيّ والتّفاعل الذهني، ولكنه مع ذلك يترك فراغات لا حدّ لها في كثير من الأحيان؛ باعتبار أنّ المتلقّي أهمّ من النص.ومن ثمّ، فإنّ البنى الثّلاث المكوّنة للعنوان المقترح«تأوّه + افتخار + تصبّر» تبدو من الوهلة الأولى غير منسجمة مع بعضها، ويسودها النّفور وربّما النّشاز، وإن كانت معبرة تعْبيرا تقريبيّا عن حمولات النص المعنويّة.

ومثلما يذهب إليه الغزاوي نقلاً عن محمد مفتاح[1]، فإنّ قارئ العنوان عليه أن يظفر بمغزى العنوان، مع استخدام المفهوم المحلي من

[1] - ديناميّة النّصّ: د. محمد مفتاح - المركز الثّقافيّ العربيّ - الدّار البيضاء (المغرب). ط 1 / 1987 م . ص 60.

القاعدة إلى القمة، ومن القمّة إلى القاعدة؛ والتي نحسب أنّها تتمثّل في المحور الآتي :



فالعنوان يكون أعلى شيء، وأوّل شيء في النصّ، ومنه يلج القارئ إلى عالم النصّ ليستكشف في وعي ما يحمله من مداليل ودلالات، وهو بعد أن يستوعب محتويات هذا النصّ ومكوّناته يربط أولئك كلّه بالعنوان لتكتمل القراءة لديه، وليقرّر إن كانت القاعدة التي اقترحها محمد مفتاح تتواءم مع طبيعته ونفسيّته وتأثّره أم لا ؛ وهي :

القمّة = القاعدة.

/ القاعدة = القمّة.

إذاً، القمة + القاعدة = الكمال (التّكامل).

/ القاعدة + القمّة = اللّذّة.

وهذا يعني أنّ :

تأوّه = الافتخار، وأنّ الافْتخار يفضي إلى التّصبّر والتّعقّل.

فـ : تأوّه ←—— قمّة المؤثّرات النفسيّة، والافتخار : تنفيس عمّا يعانيه المرسل، والتصبّر : انفراج للأزمة، وثوبان إلى الرّشد.

ولا تزال بقيّة عن العنوان، ذلك أنّ بنية «تأوّه» التي تخذناها كلمة مفتاحيّة لنصّ الشاعر لا تدلّ على التّأوّه المحزن لصاحبه، المعذِّب للمتّصف به، ولكنّها بنية مستحبّة مستعذَبة، بل ومنشودة مرغّب فيها، يجري وراءها كلّ معنّىً متيّم، فهو يتأوّه ويرجو، ويتألّم ويأمل، ويتعذّب ويتوق!!.. إنّ البنية هنا لا توصد باب اللّقاء، ولا تقيم سدّا منيعا يحول بين المرء ووكْده ؛ فأفق التلقي يقتضي تلاشي الحزن، وانجلاء الغبن.

وتكمل هذه الدّلالة ما طبع حالة الباثّ من شعوره بأنّ كلّ ما حدث له لم يمنعه من البقاء واقفا حازما، وأنّ عواصف البنية الأولى لم تقدرعلى اجتثاث سرح إبائه وشموخه، فظلّ مثلما كان، يصدّ اليأس نحو البحر، ويُلقي بجيوشه إلى ما وراءه.وما كان ليتّصف بهذه الصّفات لولا نظراته إلى بعيد، وانفتاح آماله على آفاق عراض لا نهاية لحدودها، ولا منتهى لأقطارها.

فالعنوان المؤلّف من البنى الثلاث إذاً، تداخلت معانيه، وتآزرت دلالاته، وتكاملت علاقاته؛ فانعكس أولئك على محتوى النص لتتشابك القمّة مع القاعدة، وتتصاعد القاعدة إلى القمّة ؛ مع التّأكيد بأنّ العنوان المقترح ليس دقيقا حتما، ولكنّه أفضل من تجرّد النصّ منه تجرّدا تامّاً.

2 ـ الولوج إلى النصّ :

إنّ أوّل ما يثير الانتباه، هو أنّ النصّ من المطوّلات التي تدلّ على شاعريّة (امحمّدْ بن الطّلْبَ) حيث تبلغ عدد أبياته أربعة وثمانين

فالقصيدة في حدّ ذاتها تؤلّف ديوانا مستقلاً، أو على الأقلّ معلّقة على غرار ما تواضع عليه الشّعراء والدّارسون في العصر الجاهليّ.

إنّ هذه المطوّلة ذات أقسام أو وحدات مجزّأة يتّصل بعضها ببعض اتّصالاً يطبعه انفصال، لأنّ كلّ وحدة في الواقع تؤلّف لحمة فيما بينها وبين نفسها، ولكنّها لا تتّصل بنظيرتها السّابقة أو اللاّحقة، ممّا يجعل هذه القصيدة مثلما أبنّا عنه، ذات تمفصلات متباينة، وهو ما يحول بيننا وبين تحديد أجزائها بدقّة متناهية؛ ولعلّها أن تتجلّى في :

2.1 ـ بنية النسيب والشوق (1 ـ 37)

2.2 ـ بنية النوق وصفاتها وقدرتها على التّحمّل (38 ـ 68)

3.2 ـ بنية الانتقاص من شأنه بعد أن وخطه الشيب ودفاعه عن نفسه (61 ـ 65)

4.2 ـ بنية الافتخار بشيمه، ورفضه الاقتصار على الصّورة (66 ـ 75)

5.2 ـ بنية الحياة والموت (76 ـ 77)

6.2 ـ بنية مفهوم الشاعر للمجد والفقر والغنى (78 ـ 85)

7.2 ـ بنية الاتّصاف بصفات سامية (86 ـ 94).

1.2 ـ بنية النّسيب والشّوق

1.1.2 ـ المعجم :

وتداخل الحقلين في هذا الجزء هو الذي مكّن «الدّيناميّة الدّالّة على الفعل والمواجهة» من التّحقّق[1]، وما قلناه بشأن هذين الجانبين الفنيين ينطبق أيضا على الصّور التي هي جزء من الإيقاع أو مكملة له في أقلّ تقدير؛ وهذا ما يحفزنا على الانتقال إلى الحديث عن هذه الصّور التي كانت في معظمها مستلّة من البيئة العربيّة، وسلك الباثّ في التّمثيل بها فجاج السّابقين.

وما لا نغفل التّنويه به، هو أنّنا سندرج التّناصّ عبر مكوّنات هذه الصّور من وجهة، وأنّنا لن نحتفل بالصّور الكلاسيكيّة للبلاغة العربيّة وحدها من وجهة أخرى، وإنما نعدّ صورة كلّ بنية إفراديّة أو تركيبيّة يسمها خيال، أو يلامسها جمال[2].

2.1.2 ـ الصّور الفنية :

تأوّبه طيف الخيال بمريما ←—— كناية عن الحلم الذي يأتيه في المنام.

النّفس أجهشت ←—— تعبير عن حالته النفسيّة

بين الجوانح أضرما ←—— استعان بالاستعارة

للتعبير عمّا خلّفه ←—— هجر حبيبة الشاعر له من حرقة

واضطرام لا صباح لليله ←—— كناية عن كثرة همّه وكثافة معاناته

جرّ على أنجادها ووهادها ←—— من الوشي حوكا سندسيّاً

في هذا البيت تكثيف للاستعارة، فقد استعار الوشم

---

[1] ـ سعيد الغزاوي: م.س.ص 46.

[2] ـ سنطبّق هذه القاعدة على النصّ كلّه، ولذلك لا فائدة من تكرار الإشارة إليه تارة أخرى أدناه.

لاخضرار الأرض وما يزيّنها من النّبات، ووظّف « سندسيّا » بعد ما استعاره من الثياب المخمليّة، وهو رقيق الدّيباج.

سال بهنّ الفجّ ←———— استعار للإبل وتوالي سرها بين الفجاج سيلان الماء وتدافعه وقدرته على الاختراق، وقد وظّف أيضا بنية « عومّا » التي هي للعوم، وهي كناية عن شمول السير كل تلك الفجاج في تتابع وتكاثف وتوالٍ مثلما يكون عليه حال الماء في غزارته وكثرته حتى يغدو صالحا للعوم فيه.

ألوت على الكِنْوَيْن من نسج سَدْوها ←——— كناية عن العنت الذي يسبّبه لها هذا السير قبل اوصول إلى الهدف

فألقت عصيّ السير←——— كناية عن الاستراحة منه والإقامة

3.1.2 ـ الرّموز :

بالرّغم من أنّ الشعر العربيّ القديم ليس محبولاً برموز كثيرة، وهو ما قد يضيّق مجال تحرّكنا فلا يسعفنا بما نأمل في هذه المقاربة؛ فإنّ ذلك لا يمنعنا من نظرة اجتهاديّة، ومحاولة قراءة ما وراء المعجم والصّورة؛ ومن ذلك :

مريما : رمز للمحبوبة المتغزّل بها والمتلهّف عليها؛ فإذا كان الشعراء العرب رمزوا لمحبوباتهم وكنّوا عنهنّ بليلى، وهند، وزينب، ولبنى، وعبلة؛ فإنّ هذا الشاعر المريتانيّ كسر القاعدة وأبدع اسما جديدا تلائما مع خصوصيّة بيئته التي يحيا فيها؛ وهو اسم « مريما ».

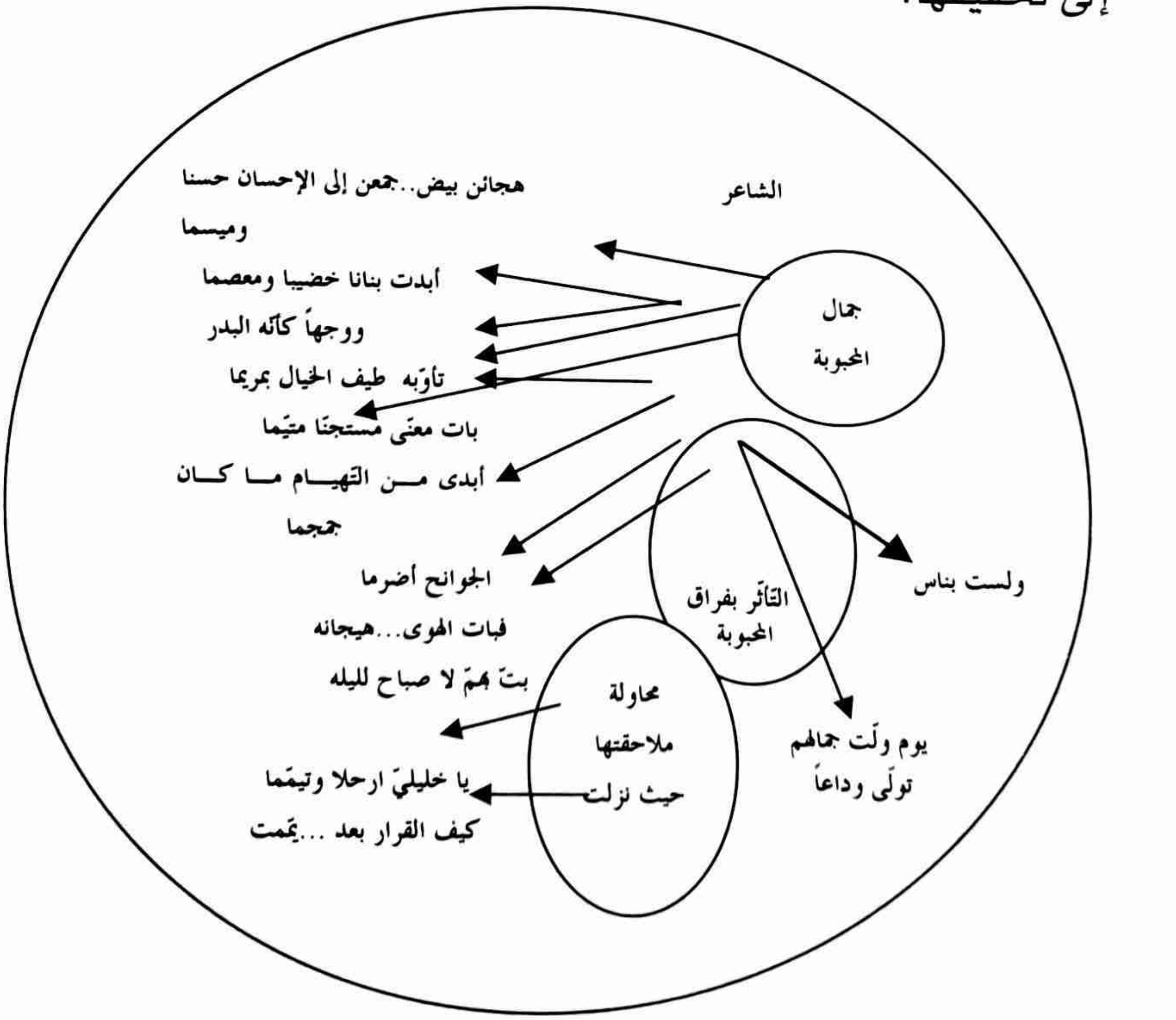
خضيبا : رمز لجمال اللّون القاني في حمرته الذي طبع بنانها.

لليله : رمز للهموم التي تحالفت عليه وتضافرت حتّى ناء بها كلكله.

الوشم : رمز للبقاء والاستمرار (اخضرار الأرض وما يزيّنها من النّبات).

4.1.2 ـ الرّؤية :

نصل الآن إلى محاولة استشفاف مكوّنات الرّؤى التي تنطلي عليها الصّور والرّموز، واتّصال ذلك كلّه بالباثّ وبحالته وتأثّره وتقلّبه في نار الأنين، وجذوة الحنين؛ وآماله التي أبان عنها وهو يطمح إلى تحقيقها.



أثبتنا هذه الدوائر المختلفة في محاولة منا لتجلية وقف الشاعر من المرتحلة عنه، والمهاجرة لحبه، فتركته على الحال التي أوضحنا، ما بين ألم أضناه، وأمل أطمعه.وقد انطلق تأثّره الشّديد من شغفه الكبير بملامح جمالها ومياسم حسنها، فأودع ذلك في

فؤاده نارا متأجّجة باستمرار، وبينا هو يفكّر في الطّريقة التي يطفئ بها غلّة هذا الشّوق، ويزيل أثر هذه الصّبابة؛ إذا هي تفاجئه بالفراق الدّائم، فيتوق إلى ملاحقتها ولكنّه لا يحقّق مأربه، فيكتفي بتشييعها وهي تسلك فجاج البطحاء، مختفية عنه داخل هودج تحمله ناقة قويّة لا تعرف الكلل أو السّأم.

فالوحدة، من هنا، هي إطلالة على غور النصّ وجوهره، ولا تعدو أن تكون حلقة أولى من الحلقات المكوّنة لبنية القصيدة، وقد يتّضح ذلك في الإبانة الآتية.

2.2 ـ بنية النّوق وصفاتها وقدرتها على التّحمّل

1.2.2 ـ المعجم :

حقل النوق		
الأفعال	الأسماء	الصفات
علوْت	بويْزل دفرّ قويرح	

بعد مراجعة القراءة لهذه البنية بدا لنا أنّها تشتمل على ثلاثة حقول

حقل الصّيد		
الأفعال	الأسماء	الصّفات
يدنّ قرين	ذنابه الجَزء	حقْب سماحيج

يحوّزها	هيْفا	السّحيل
تصرّما	خاضبا	وسيقة
أروح	متروّحاً	صفونا
تحطّم	أغوال	مصلّما
تجرْثم	أقواباً	خُرّق
	وقيضا	
	القوادم	

صفات النّوق وتصبّرها		
الأفعال	الأسماء	الصّفات
تخيّرت	نجائب	
لا	وخّد	
يبقينّ	شوازب	مقرّما
يحدوه	مخزّم	أسحم
يتزعّما	عرندسا	عذافر
	حدج	خروس
	سرى	جأبا
	تهجّر	مكدّما

لقد تداخلت الحقول الدّلاليّة في هذا الجزء من النصّ، ومع ذلك، يستطيع الباحث أن يفصل بين الحقل ونظيره ؛ فالنّوق كوّنت عملاً متكاملاً انطلاقاً من (علوت)/ (بويْزل)، وانتهاءً بـ (حدج)/ (مكدّما) حيث إنّ الأفعال والأسماء والصّفات انصبّت في مجملها

على النّوق وصفاتها وشدّة تحمّلها وتصبّرها على الشّدائد.ولولا ذاك، لما قدرت على الصّيد، ولما تمكّنت من مباغتة حمر الوحش المستنفرة في مراعيها، وطيور النّعام الجاثمة في أوكارها. فالصفات الدّالّة على الصّلابة ومقاومة الحر والقيظ، ومواصلة السُّرى باللّيل، هي صفات أضفت عليها طابع التّوقان إلى امتلاكها والاتّصال بها امتطاءً وحضورا.

وبعد هذه الإشارات الخفيفة للوحدة المذكورة، نحاول أن نتعمّق في مكوّنات صورها الفنية من خلال استنباط بعضها.

2.2.2 ـ الصّور :

نؤكّد ما قلناه آنفاً بشأن الوقوف عند بعض الصّور في هذه الوحدة، وهي صور لا ترقى إلى الاختراع أو الإبداع في معظمها، وإنّما هي تقليديّة مألوفة ؛ ومعظمها يتمحور حول الاستعارة والكناية والتّشبيهات، وإن كنّا نحن لا نُعنى إطلاقاً بالتّشبيهات أو نكاد لا نفعل.

تغوّل مجهول التّنائف ←——— كناية عن تلوّن الشيء المجهول على صاحبه.

مجرّ بحنّان ←——— شبه « حنان» الذي هو السّحاب هنا بصوت الرعد الخفيف كحنين الإبل، وذلك أدلّ على كثرة الماء.

الجَزْء فيه تَصرّما ←——— كناية عن اجتزائها بالرّطب عن الماء.

يبادر أغوال العشيّ ←——— كناية عن الهلكة أو الدّاهية.

لقد ندرت الصور في هذه الوحدة، وذلك يعني أنّ الرّموز ستكون نادرة أيضا.

3.2.2 ـ الرّموز:

إنّ الرّموز، على قلّتها في هذه الوحدة، لا تتكرّر؛ بل تتجدّد، وتدلّ كلّها على قساوة البيئة وتعقّدها وتصلّبها؛ منها :

محرما : رمز للحرمة.

الدّوّ: رمز للفلاة.

مسهما : رمز للتقطّع من شدّة الحر، وجفاف المرعى.

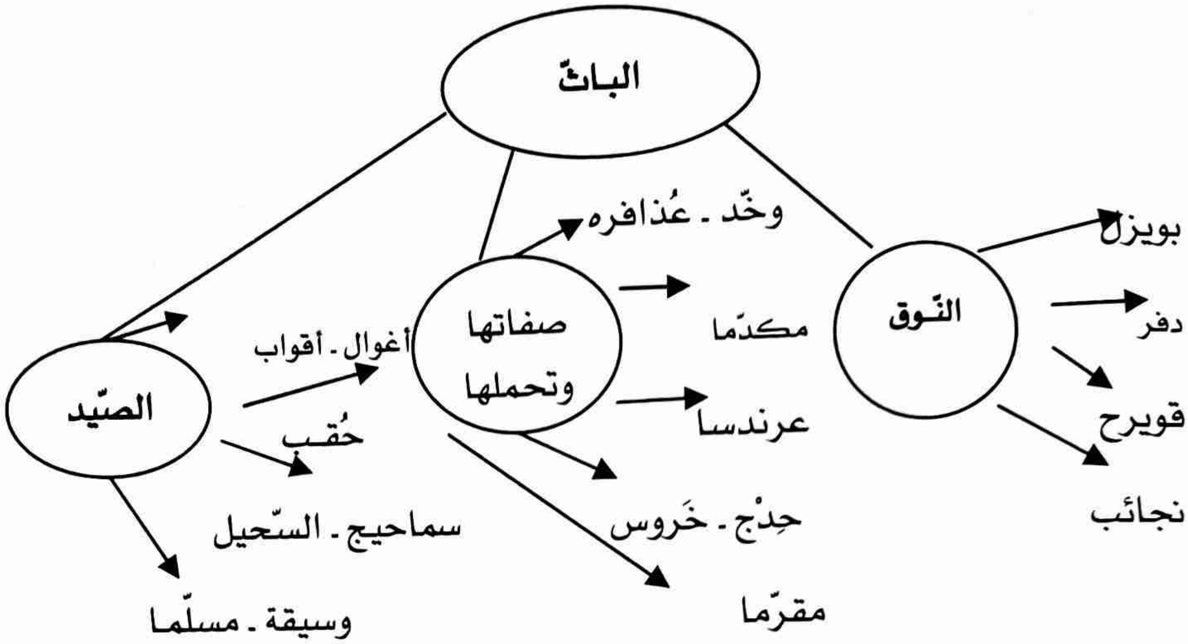
أغوال : رمز للهلكة.

لقد جاءت هذه الرّموز[1] في معظمها دالّة على الضّياع في فلاة البيداء، وفي فيافي الصّحراء؛ وهو ما يعزّز حديث الباثّ عن بيئته ووصفه لمسالكها وفجاجها وتعذّر السير والسُّرى على ظهرها.وباختصار، فإنّ هذا الجزء من النص قد عزّز الجزء السّابق وآزر بناه الإفراديّة.

---

[1] ـ لا بدّ من التّنبيه، بأنّ إطلاقنا صفة « رموز » على البنى المشار إليها في هذا البحث لا يُقصَد به الرّموز الدّقيقة المألوفة والمتعارف عليها في النقد العالمي والنقد العربي، وإنّما يُراد بالرّموز هنا البساطة الخالية من التعقيد الاصطلاحيّ.

4.2.2 ـ الرّؤية :



ممّا يستقطب النّظر في هذه الوحدة أنّ الحقول الثّلاثة متّصلة بعضها ببعض، وليس ثمّة انفصام أو تنافر بين هذا الحقل وذاك، وهو ما يُبعد هذه الحقول عن النّفور أو الاعتزال مثلما نُبين عنه في الخطاطة الآتية :

النّوق
↓
الصفات
↓
الصيد

أو : النوق + الصّفات = الصّيد.

/ النّوق ⟷ الصّفات ⟷ الصّيد

وما ورد من بنى إفراديّة في الحقل الأوّل كان كشفا عن المكوّنات الاسميّة للنّوق وتنوّع مفرداتها من خلال (بويزل ـ دفرّ ـ قويْرح) وكان الثاني وصفا مجسّما لتحرّكاتها وخفّتها وقدرتها على التّحمّل والتّصبّر، وهو ما يتجلّى في (نجائب ـ وخّد ـ شوازب ـ مخزّم ـ

عرنـدس ـ حـدج ـ عـذافر ـ خَـروس ـ مكـدّما...) وغابـت الأفعال والـصّفات في الحقـل لأول أو كـادت، ولـكنّهـا تـكثّفـت في الحقـل الثاني وسجّلت حضورها بقوّة.

أمّا الحقل الثالـث، وإن جاء متمّمـا للحقلين السّابقين، فإنّه امتاز منهما ببنى تتدرج في سقف الصيد؛ مع اتّصال بهما اتّصالاً فنيا على الأقلّ، فكـان البـاثّ يصف النّعـام وحمـر الـوحش، ولـكنْ عبر غطـاء النـاقـة، فجـاءت صـفات (حقـب ـ سمـاحيج ـ وسـيقة ـ هيفـا...) لتُبقي على حبل الاتّصال وثيقا.

وبعـد توصّـلنا إلى حـصول الاتّفـاق بـين الوحـدتين الأولى والثايـة معجماً ودلالة وصورة ورمـزاً تقريبـا نتقـل إلى الوحـدة الموالية لنـرى إن كانت هي أيضا تنسجم مع السّابقتين أم نختلف عنهما.

3.2 ـ بنية الانتقاص من شأنه بعد أن وخطه الـشّيب ودفاعه عن نفسه :

1.3.2 ـ المعجم :

تبدو هذه البنية مختصرة غير مقصّلة، وبعد قراءتها مـرّة وأخرى، يتبدّى ضمنها حقلان دلاليّان هما حقل الإجحاف، وحقل الكمال :

حقل الإجحاف		
الأفعال	الأسماء	الصّفات
عجبت		
زعمت	سفاها	
كبرت	شيبا	شاحبا
هزئت	صباي	
هنت		

حقل الكمال		
الأفعال	الأسماء	الصّفات
(ألم)	معلما	
تعلمي	مكرما	بيضاء
يرى	لا غضاضة	المحاجر
يخلق	كريم	العصب
	غمده	
	لا عيب	

إذ هذين الحقلين، مثلما نرى، يتناقضان ولا يتكاملان، أو يتصارعان لكي يتمّ التّكامل التّامّ بينهما، ذلك أنّ أفعال

«الإجحاف» كادت تتفوّق على أفعال الكمال : (عجبت. زعمت. كبرت - أكبرت - هزئت - هنْت).وتأتي أفعال «الكمال» لتحاول إزاحة ما تطفح به أفعال «الإجحاف» من تجنٍ مجانيّ، ولكنّها لم تك بالقدر الذي يسمح لها بتهميش الأولى، وهذا بالرّغم ممّا تحمله من إشعاعات بإمكانها التّصدّي لأوصاف الأولى ونعوتها، حتى إذا جئنا إلى الأسماء ألفينا العكس، حيث إنّ حقل «الكمال» كان طافحا ببنى إفرادية هي أقوى بكثير من أسماء الحقل الأول، وهذا ما يغلّب طبيعة « الكمال » على« الإجحاف» من هذا الجانب.

ولننطلق من هذا التصوّر إلى الوقوف عند الصّور الفنية.

2.3.2 - الصّور الفنية :

عجبت جمل سفاها ←—— كناية عن الزعم والتّغليط.

أكبرت صباي ←—— كناية عن الهزؤ بها ورميها بالقذف والافتراء على شخصه.

لا غضاضة ←—— ليست صورة فنية بالمعنى البلاغيّ، ولكنّها تحمل شحنة جمالية لا يردّ أحد قيمتها الفنية، أو يقدر على دفع تأثيرها في النفوس.

بيضاء المحاجر ←—— صورة لحسن الفتاة وجمالها، وهي تحمل كناية واضحة.

يتكهّما ←—— كناية عن كلال السيف وضعفه ظاهريًا، ولكنّ المعنى باطنيّا ينصرف إلى فحولته وقوّته وقدرته على مبارزتها.

3.3.2 - الرّمز :

بيضاء المحاجر : رمز لما يبدو من جمال المرأة وسحرها من وراء برقعها أو نقابها.

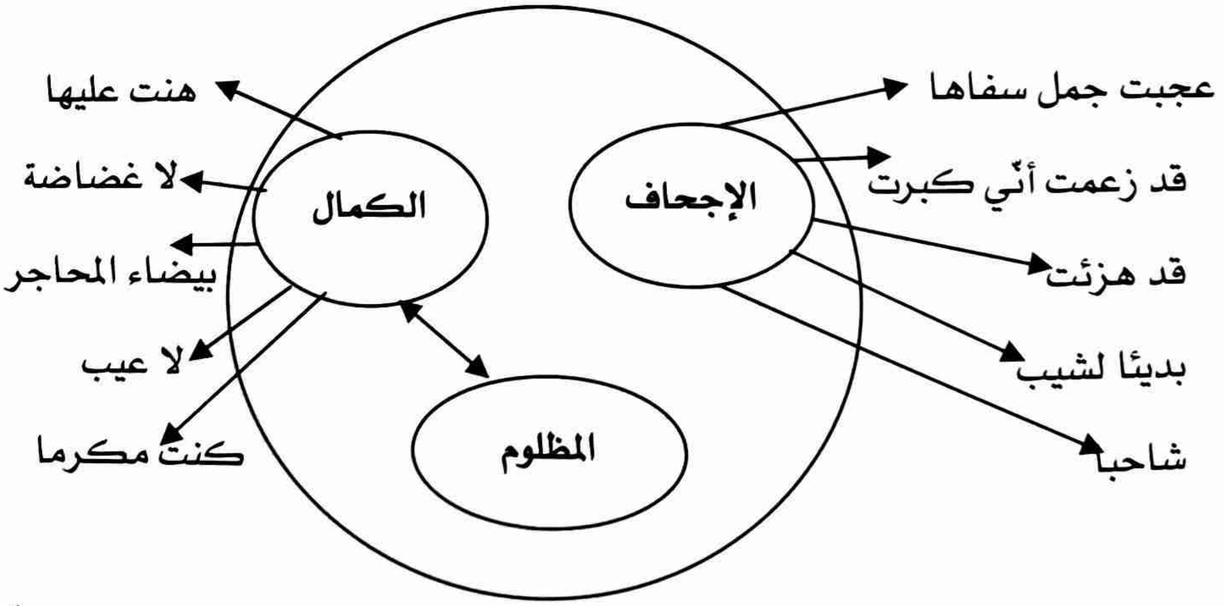
يخلق غمده : رمز لما يعتري كلّ جديد ، وبطال كلّ طريف.

يتكهّما : رمز لضعف الفحولة.

ومن الواضح أنّ الرموز لم تسجل حضورها هنا إلاّ بصورة محتشمة ، وأنّ الباثّ كان صريحا أكثر منه ملمّحا ، وموضّحا أكثر منه مرمّزاً.

4.3.2 ـ الرّؤية :

تمدّنا الوقفات السابقة لدى كلّ من المعجم زالصّور والرّموز في هذه الوحدة بقدرة فنية ، وتبثّ فينا روح الاستطلاع لنلج إلى عالم رؤية الشّاعر من خلال الخطاطة الآتية



لقد أتاحت لنا هذه الخطاطة التّعمّق في عالم الشاعر الوجدانيّ والنّفاذ إلى شكاته من الظّلم الذي لحقه من « جمل» حيث افترت عليه وتجنّت؛ وقد عبّر عن ذلك من خلال :

- عجبت جمل سفاها.
- ما رأت بديئا لشيب.

ـ قد زعمت أنّ كبرت.

ـ أكبرت صباي.

ـ هنت عليها.

ثمّ يبرز «المظلوم» ليدفع عن نفسه التعسّف الذي كان من صاحبته فيدرؤه بوساطة الجمل الشعريّة الآتية :

ـ كنت مكرما.

ـ لا غضاضة أن يرى كريم /

ببيضاء المحاجر مغرما.

ـ الجرز العضب يخلق غمده.

ـ لا عيب إنّ العيب أن يتكهّما.

هذه الوحدة أتاحت لنا استكناه خيط بسيط من خيوط افتخار الشاعر المتشابكة التي سيكشف عنها في الوحدة التّالية وهو يعدّد محاسنه، ويترقّى في درجات أفضاله.

1.4.2 ـ الافتخار بشيمه، ورفضه الاقتصار على الصّورة :

2.4.2 ـ المعجم :

تختلف هذه الوحدة عمّا سلف من نظيراتها، حيث إنّها لا تمثّل إلاّ حقلا واحدا لا يتجزّأ ولا يتعدّد؛ وهو الافتخار بشيمه، لكنْ عبر حقول دلاليّة ثلاثة داخلية أخرى : حقل اللّهو ـ حقل الشّجاعة ـ حقل إفحام الشّعراء.

حقل اللّهو		
الأفعال	**الأسماء**	**الصفات**
سلس	سماكا	
شتوا	مرزما	
يصرما	البيض	آمناً
أسهر	وصلاً	
	الفتيان	
	ملذّة	

حقل إفحام الشعراء		
الأفعال	**الأسماء**	**الصّفات**
لم أفحم	الخِنذيذ	
أتى	ثانيا	
يمجّ	لغاماً	مشهود
فصدّ	المستكين	متخمّطا
أحجما	محسوم الخصاء	مستطيراً

حقل الشجاعة		
الأفعال	الأسماء	الصفات
لم أتلاف	الظّعن	
مدّ	قصرا	مسدّما
أجذما	بحاجر	الألدّ
لأبني	العيس	المسدّما
	المراسيل	
	مجداً	

تبدو الحقول الدّلاليّة الثّلاثة غير منسجمة ومتناقضة، لكنّها مع ذلك هي بمثابة جداول تصبّ في نهر واحد؛ لأنّها ثلاثتها تذبّ عن باثّها تتحدّث عن صفاته، وتعرّف بشيمه وخلاله ؛ وهي، على تعدّدها، يستطيع المرء تمييزها من بعضها؛ ذلك أنّ أفعال اللّهو وأسماءه تكوّنها : شتوا - سماكاً ومرزما - أسهر - الفتيان - ملذّة.على حين أنّ حقل الشّجاعة تؤسّس له أفعال وأسماء غير ما ذكرنا؛ فهناك : لم أتلاف ت أجذما - قصرا - بحاجر - العيس المراسيل - مسدّما - الألدّ المسدّما.وحين ننظر إلى حقل الإفحام نلفي البنى التي تعبّر عنه بجلاء من مثل : لم أفحم - يمجّ - الخنذيذ - لُغاماً - أحجما - محسوم الخِصاء - متخمّطاً..والثّراء في حقول هذه الوحدة يقودنا نحو البحث عن الصّور الفنية الواردة فيها.

2.4.2 - الصّور الفنية :

تُستفتح هذه الصّور بقوله :

ولكن سلي عنّ دخيلي إذا شتوا ←———— الشّاهد عندنا في «دخيلي» التي هي كناية ←———— عمّن يخالط المرء ويتداخل معه

من بطانته، وهذا فيه إشارة إلى إحدى خلاله، وهي الكرم إذا أجدبت الأرض، واشتدّ بالقوم الأمر المدلهمّ.

كأنّي لم أركب للهو/ ولم أنل من البيض وصلاً آمنا

وهي صورة تشبيهيّة أتت لتحمل في كنفها استهزاء بالمنكرة عليه، أو المفترية عليه. والتّناصّ قائم في هاتين الجملتين الشّعريّتين مع بيت امرئ القيس :

كأنّيَ لم أركب جواداً للذّةٍ ولم أتبطّن كاعِباً ذاتَ خِلخالِ[1]

وتتوارد الصّور عن طريق التّكرار من وجهة، والحذف من وجهة أخرى، لأنّه اقتصر على ذكر أداة التّشبيه « كأنّ » في المرّة الأولى فقط لتكون رِكْزا له أساسا أو رُكْحا يعطف عليه ما يتتابع من جمل شعريّة : (ولم أسهر ـ ولم أتلاف ـ ولم أعمل ـ ولم أهد ـ ولم أردد ـ ولم أفحم) وهذه المنفيّات بلم الجازمة كلها ضمنيّا مسبوقة بحرف التّشبيه المشار إليه آنفا.

مدّ سيرا ←——— كناية عن الاستمرار الطّويل فيه.

لأبني مجداً ركنه قد تهدّما ←——— صورة مقلوبة هاهنا، فالتقدير : لأبني مجدا قد تهدّمت أركانه[2].على حين أنّ الإيهام يصيب المتلقي أوّل الأمر، ويندهش لقوله، وهذا هو الغموض المحبّذ.

ولم أهد بالمَوْماةِ ركْباً ←——— وهي استعارة حذف فيها المشبّه به الذي هو الهادي إمّابوساطة القمر، وإمّا عن طريق مصباح أو نبراس ونحوهما.

أتى ثانيا من جيده ←——— كناية عن التّكبّر والصّلف.

---

[1] - ديوان امرئ القيس: تحقيق ـ محمد أبو الفضل إبراهيم.، دار المعارف بمصر 1958 م، ص

[2] - معظم الشّروح اللّغويّة أخذناها عن أصلها من الكتاب.

يمجّ لُغاما مستطيراً ←—— وقد شبّه هيجان الرّجل بلغام الجمل، فحذف المشبّه، وأثبت المشبّه به للاستعارة.

كأنّه من الذّلّ محسوم الخصاء ←—— وهي صورة تشبيهيّة، وتحمل في مضمونها سخريّة لاذعة.

هذه هي بعض الصور الواردة في هذه الوحدة، والتي لا تمثّل إلاّ تمهيدا لما يتّصل بها مثلما صنعنا مع سابقاتها، حيث إنّ هنالك بنى حبلى برموز مختلفة.

3.4.2 ـ الرّموز :

قد يكونمن المبالغة التّحدّث عن رموز، والتماسها في الشعر العربي القديم؛ ولكنّا حين التزمنا هذا المنهج لنطبّق ضمنه آراءنا وقراءاتنا ومقارباتنا؛ فإنّنا لم نك نلحن إلى البحث عن الرّموز العميقة التي يطفح بها الخطاب الشعري العربي الحديث أو المعاصر؛ فذلكم مطلب لا يتحقق، وإنّما نروم الإبانة عن بنى إفراديّة حمولتها إشارات ولمحات. وممّا نؤكّده أنّ هذه الرّموز ليست مكرّرة، ولكنّها جديدة لم يسبق للشاعر أن وظّف مثلها من قبل في هذا النصّ.

دخيلي : رمز لبطانة المرء من أهل وعشيرة.

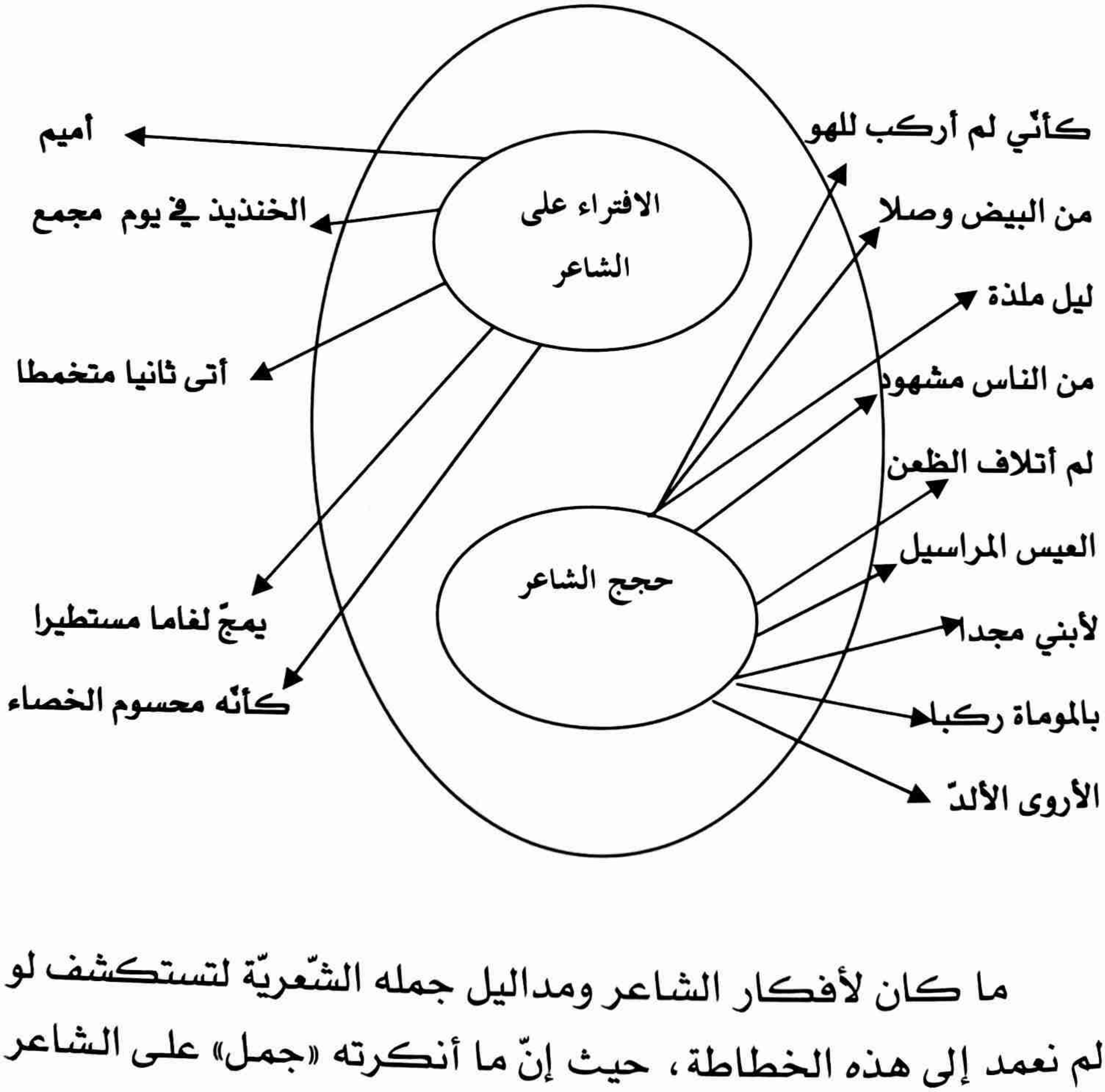
أجذما : رمز للإسراع في السير.

مسدّما : رمز للرجل (الخطيب) الذي رام مقارعة صاحب النص، فلما أخفق إزاء حجّته وسطاعة برهانه، راح يفعل كما يفعل الجمل الهائج حين تستهجنه الإبل وترفض معاشرته أو الاستمرار معه.

محسوم الخصاء : رمز للذّليل الذي يُصاب في أعزّ ما يملك حين يبتر وينزع منه.

على أنّه، وبالرّغم من أهمية الرّموز وقيمتها، فإنّها تظلّ دون الرّؤية التي جنح لها الباثّ، وكان عازما على أن تتّضح خطوطها وتتجلى عبر ما رمز إليه، وذلكم ما يدفع المتلقي ليتتبّع خطواته، ويتسامى معه إلى ما يتوق إليه.

4.4.2 ـ الرّؤية :



ما كان لأفكار الشاعر ومداليل جمله الشّعريّة لتستكشف لو لم نعمد إلى هذه الخطاطة، حيث إنّ ما أنكرته «جمل» على الشاعر من قبل قد صار في الماضي، ولم يعد شيئا مذكورا، فقد تلاشت صفات الجحود والنكران لتختفي إزاء صرامة الباثّ وإعجاز حججه، ولذلك فقد تعدّدت براهين الشاعر وتابعت تترى مشكّلة عقدا متلألئا

في حياته الاجتماعيّة، على حين أنّ التّشنّج الذي أصيبت به «جمل» تفتّت وتناثر نقعا كرماد ذهبت به الرياح في يوم عاصف!.

5.2 . ثنائية الحياة والموت :

1.5.2 . المعجم :

الحياة		
الأفعال	الأسماء	الصفات
تخطّاه أهرم أبقى عاش	ثناءً عيشاً	مخلّدا مذمّما

الموت		
الأفعال	الأسماء	الصّفات
مات	صرف الدّهر صرعين	مقمصا مصمى منمى

في هذا المعجم شبه توازن بين الثنائية التضادية، حتى وإن كانت خانة الموت والفناء أغنى وأثرى، فإن خانة الحياة تصدّت لها بحرف النفي «ما» لتبعد الموت صورة نهائية، وتواجهه بكون الذي يبني مجدا ويصنع لنفسه اسما لن يعتوره الفناء الأبديّ، وإن لم يسلم من أذى مخالب المنيّة التي تكاثرت صفاتها وتعدّدت!.

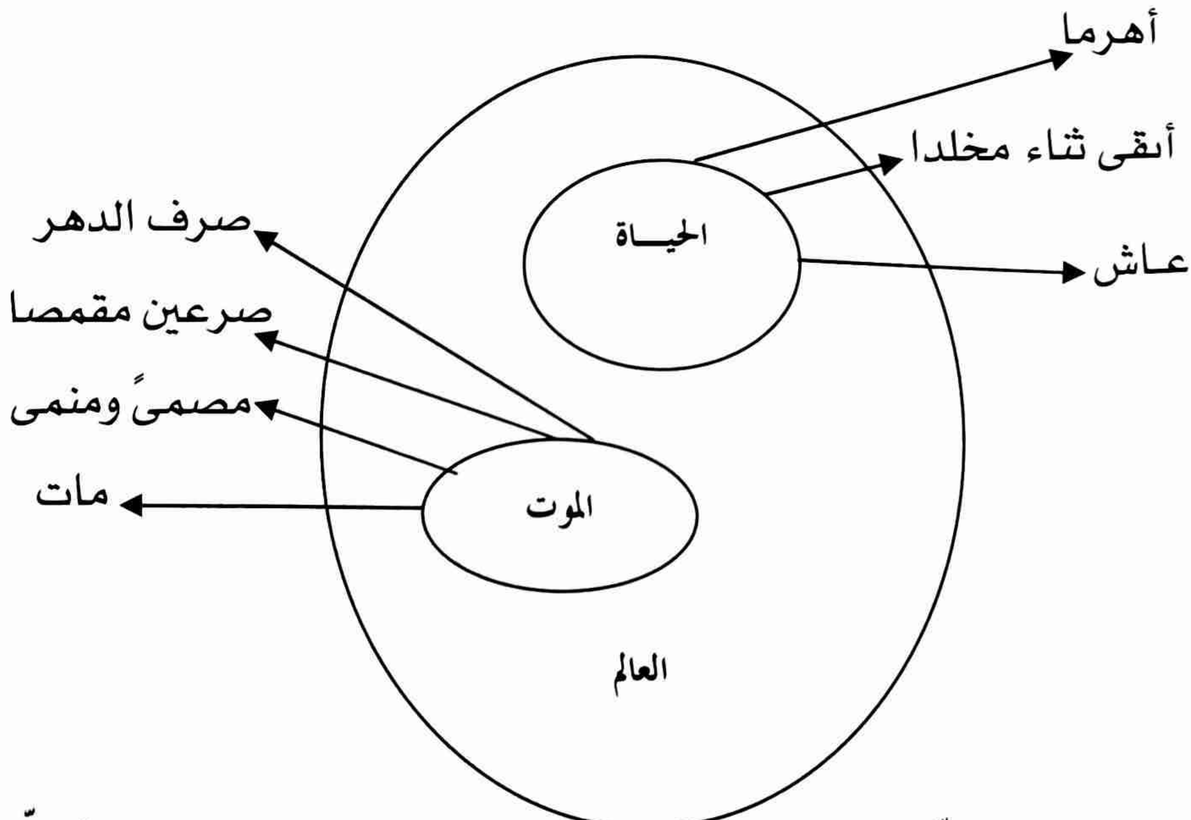
2.5.2 ـ الصّورة الفنية :

ليس من قبيل التكرار القول أنّ الصّورة الفنية ليست متوفّرة بالقدر الكافي حتى يتسنّى للدارس الاختيار، وإنّما هي في معظمها مكرورة أو مستلّة من البيئة القاسية التي كان الباثّ يحيا بين ظهرانيها، فجاءت عصيّة متعسّرة، مثلها في ذلك مثل البنى الإفراديّة التي كانت جزلة قويّة؛ ومن ذلك :

صرف الدهر ←──── كناية عن التّطويق الذي يحكمه الدّهر بالإنسان فيحيط به من كلّ جانب، ولا يفلته حتى يذهب به.

4.5.2 ـ الرّؤية

ما قيل في الصّورة والرموز، يصدق على الرّؤية التي انحسرت داخل ثنائية تناقضية ليس فيها الشيء الكثير.



لقد غلّب الشاعر جانب الحياة على جانب الموت، وأكّد بطرائق مختلفة وجهة نظره، فوظّف حرف النفي ليزيح الفناء « ما

مات»، ثمّ أكّد بفعل «الحياة» ثلاث مرات مكرّرة : (عاش - عاش2 - عيشا) وما ذلك إلاّ ليقرّر بأنّ الحياة مزرعة للآخرة، وأنّ العمل فيها ينقذ المرء من الفناء الأبديّ؛ باعتبار أنّ اسمه يظلّ عالقا بالنّفوس، وأعماله لا تُقبر معه إن كانت أهلا للبقاء بطبيعة الحال، وإنّما تظلّ تفرض نفسها، وتصدع باسم صاحبها منتقلة من جيل إلى جيل، ومن قرن إلى قرن، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

6.2 - فلسفة الشاعر نحو المجد والفقر والغنى :

1.6.2 - المعجم :

المجد واللّؤم		
الأفعال	الأسماء	الصّفات
يجشم يـــــرى أعدما عــــدّ كان	الصّبر موطن الهول المرء غابطا لئيما الموت	

إنّ معجم هذه الوحدة يتّسم بتضافر الثّنائيّة التّضادية : المجد # اللّؤم، والحزم # العجز، والغنى # الفقر.. وهذه الثنائية تنضوي تحت لواء كلمة مفتاحيّة هي الدّهر الذي يغيّر ويبدّل، ويرفع ويضع، ويمنح ويمنع، وهلمّ جرّاً..ودرءاً للتكرار، فسنقتصر على أهم

المكوّنات المعجميّة من خلال الأدوات التي تكوّن هذا المعجم من أسماء وأفعال وصفات، ولاسيّما أنّ أجزاء هذا المعجم قد تعدّدت وتنوّعت، واندمجت في عناوين فرعيّة ليست من الصّعوبة، وإنّما هي أجزاء مبثوثة مشتّتة تفتقر بدورها إلى المساندة والمؤازرة.

الدّهر		
الأفعال	الأسماء	الصّفات
سرّ	الدّهر	
أصبح	لين	
	شدّة	
	مرغما	

	الحزم والعجز	
الأفعال	الأسماء	الصّفات
تقتني	مِرّة النفس	
تتحكّما	شدّته	
تلين	العجز	
تضجر	الرّخاء	
تسأما		

	الغنى والفقر	
الصّفات	الأسماء	الأفعال
	اعتزاز	نجلّ
	قناعة	يذلّ
	أخاها	يشتما
	المرء	يرى
	ضارعاً	ألمّ
	نكبة	يقحما

لقد تغلّبت الأسماء على الأفعال في هذه الوحدة، وغابت الصّفات، حيث لم ترد إلاّ مرّة واحدة، وذلك يعود لكون الباثّ كان ينثر من فيه حكما لا تعوز إلى جمل فعليّة، ولا إلى تعريفات بها، وإنّما يسردها من حافظته، وينقلها من تجربته، فجاءت مفهومة مؤثّرة، لأنّها تخاطب الوجدان، وتحرّك النّفوس والأبدان؛ وهذه الحكم المبثوثة تباعاً تُفضي إلى صور فنية هي أعلى منها درجة، وأسمى ارتقاءً.

2.6.2 ـ الصّور الفنية :

هذه الوحدة على عكس الوحدات السابقة تخلو من الصّور الفنية العميقة، ولم ترد فيها إلاّ الصّور الحسيّة التي لا تعوز إلى تدقيق أو تعمّق.

تجشّم الهول العظيم ←— كناية عن اقتحام الشدائد بغية الوصول إلى تحقيق المجد.

ذاك الذي كالموت ←— التّشبيه هنا قويّ، أو حسّيّ

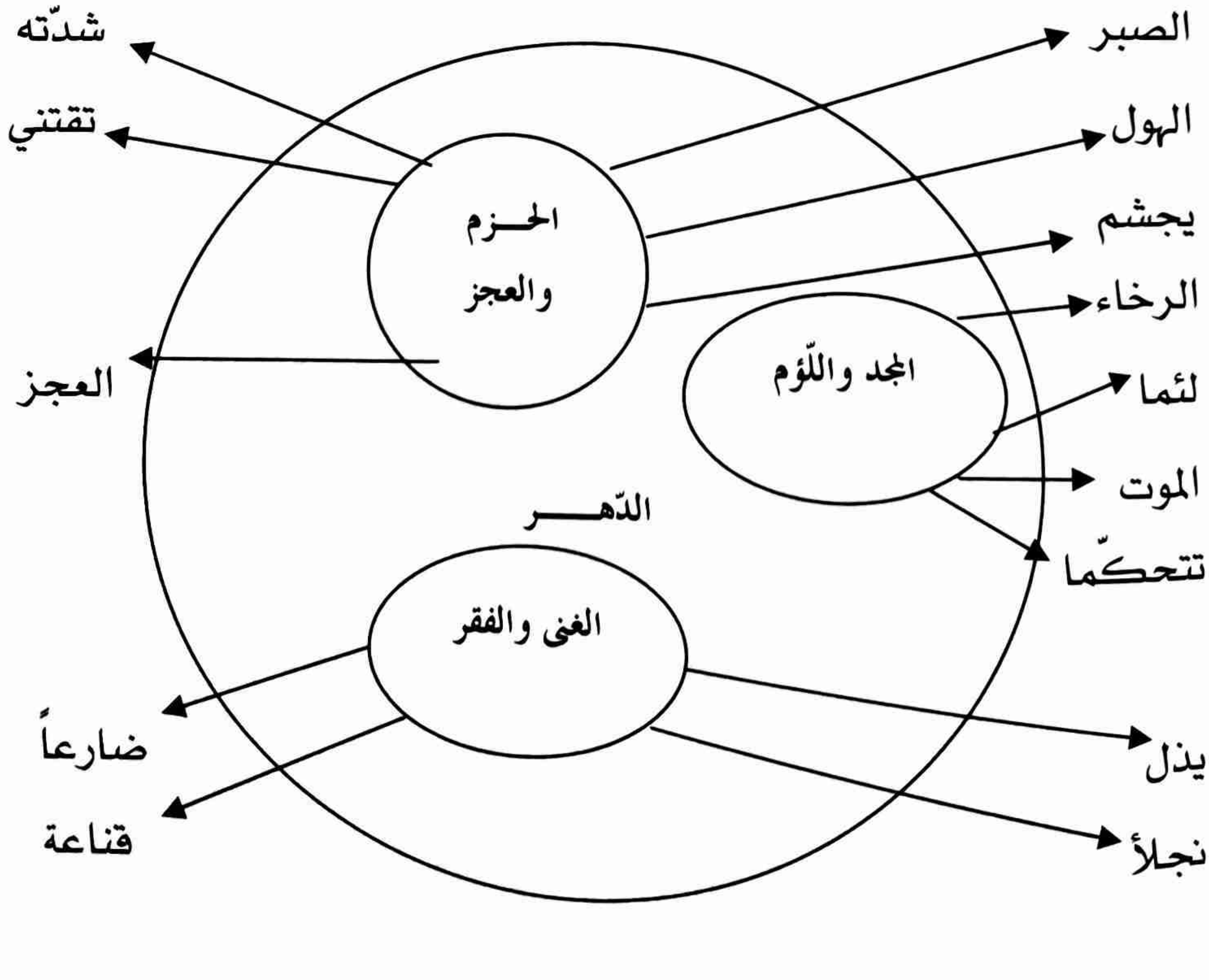
بين لين وشدّة ←—— صورة للثنائية التّضادية : لين # شدّة.

سرّ مسيا # أصبح مرغما ←—— صورة تابعة للسّابقة، وهي تدلّ على تغيّر حالة المرء، وتؤكّد استحالة استمرار امرئ ما على صورة واحدة.

3.6.2 ـ الرّمز :

لا بدّ من التّأكيد بأنّ هذه الوحدة تخلو خلوّا كليا من الرّموز في بناها ومكوّناتها، وقد أجهدنا أنفسنا محاولةً منّا للظّفر ولو برمز واحد على الأقلّ؛ لكنّنا عجزنا عن استنباط ذلك، وهذا ما جعلنا نتخطّى هذه الخاصية هنا، وننتقل إلى ما يجمع بين المعجم والصّورة، وهي الرّؤية.

4.6.2 ـ الرّؤية



جاءت الرّؤية هاهنا لتعكس صراعا بين عزّة النّفس وإبائها، وبين ذلّها وانكسارها، كما جاءت معبّرة عن النّقيض الحاصل بين الحزم الذي لا يكلّ صاحبه ولا يضجر من البحث عن الوصول إلى المعالي، وبين العجز الذي يقف بصاحبه في منتصف الطّريق، ويسوّل له الاستكانة والمهانة والرّاحة المحفوفة بالازدراء والانكسار. وتكاثرت في هذه الرّؤية الأمثال والتّشبيهات، ولاسيّما فيما يتعلّق بمفهوم الغنى والفقر، لأنّ الغنى عند الباثّ هي غير ما في عرف العوامّ وطبقات المحتمع، فهي عنده قناعة، حتّى إذا آمن المرء بهذه الفلسفة كان أغنى النّاس، وهو لم يأت بجديد، وإنّما يتناصّ فيه مع الحديث النبويّ الشّريف: «اتَّقِ المحارم تكن أعبدَ الناس، وارضَ بما قَسَم اللهُ لك تكنْ أغنى الناس، وأحسنْ إلى جارك تكن مؤمناً، وأحبَّ للنّاس ما تُحبّ لنفسكَ تكنْ مسلماً، ولا تُكثرِ الضّحكَ فإنّ كثرة الضَحكِ تُميتُ القلب»[1]. وهذه المعالم التي توالت وتتابعت كانت منصبّة في مجملها على الدّهر، فهو الذي يُعلي من شأن هذا، ويخفض من شأن ذاك، وهو الذي يمنح ويمنع، وهو الذي يبقى في النّهاية بعد أن تندثر كلّ الصّفات المذكورة.

7.2 ـ بنية الاتّصاف بصفات سامية

لقد جاءت هذه البنية لتختم صراعا نفسيّا بين المجد والذّلّ، وبين الحزم والعجز، وبين الغنى والفقر؛ فكانت وصايا في قالب أزمنة طلبيّة مغلّفة بالنّصح والحثّ.

---

[1] ـ رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) وقد قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من يأخذ عنّي هؤلاء الكلماتِ فيعملُ بهنّ أو يُعلّمُ من يعمل بهنّ». فقال أبو هريرة: فقلت أنا يا رسول الله ـ سنن التّرمذي ـ رقم الحديث: 2227.

1.7.2 . المعجم :

لا يختلف المعجم هنا كثيرا عن معجم الوحدة السّالفة، حيث إنّه هو أيضا يتألّف من عناوين متعدّدة لا تحصيها خانة واحدة، ولا تجمعها خطاطة معيّنة أو خاصّة، فهو يشتمل على حكم مبثوثة من الصّعب حصرها في عنوان واحد أو عنوانين.

	صفات الرّجال	
الأفعال	الأسماء	الصّفات
دعا تلعثم	خمر شرّ حبّ سيْب كفّه الكريهة	المجتدى مرامق

	وصايا ونصائح	
الأفعال	الأسماء	الصّفات
تجنّب . يعدين يبرّ . ويكرما جهل . صغّر فاحلم . عظّم ادفع . يعاديك ارحما . فاطّرح لا تقربنّ . أردى	صحاب السوء الصّحيح . حدود الله حقوق الضّيف الجار الجهّال . العار بالحسن سيئا	

تخون ـ تأثما	الظّلم والبغي اليمن ـ البرّ العدل ـ التّقى الشّؤم	

هذه البنى الإفراديّة المكوّنة للمعجم تُفْضي بالمتلقّي إلى التّريّث في مداليلها ، والتّمعّن في حقولها التي تتفرّع تفرّعات متباينة ، وإن ظلّت تصبّ في الحقل الأساس الكبير.

2.7.2 ـ الصّور الفنيّة :

بالرّغم من جزالة الألفاظ وقوّتها ، فإنّ الباثّ لم يحالفه الحظّ كثيرا في اختراع صور تُعلي من شأن خطابه ، وتتسامى به إلى خصائص فنية تزيده طلاوة وعمقا ، ولعلّ حرصه على حشد عديد م الحكم والأمثال، هو الذي لم يمكّنه من توظيف صور فنية كثيرة؛ ومنها :

سيب كفّه ←—— استعارة جميلة ، حيث إنّه مثّل كفّ الكريم بالمطر الجاري الذي يعمّ الأرض كلّها من وهاد وجبال وسهول وحقول.

تلعثما ←—— كناية عن التّردّد في الاستجابة للدّفاع عن المظلوم، أو لإغاثة الملهوف.

ثمّ جاءت الأفعال الطّلبيّة تترى، وهي تحبل بمداليل يطبعها النّصح، وإن استحوذ عليها النّهي إلى درجة الزّجر أحيانا ، وكانت مفاهيمها جليّة بيّنة بوساطة ما ورد فيها من ثنائيّات تضادّية :

خير الرجال # شرّ الرّجال.

صغر # عظّم.

أهان # عظّما.

جهل الجهّال # أحلم.

الحسْن سيّئا.

اليُمْن # الشّؤم.

هي صور ركّزت إذاً على الطّباقات والجناسات أكثر من الصّور الأخرى التي تتطلّب تعمّقا وتثقّفاً كبيرين، وهي صور لها آصرة أيضا بالتّناصّات المختلفة مع الحديث النبويّ الشّريف، ومع التّراث العربيّ بعامّة[1].

3.7.2 ـ الرّمز :

سيب : رمز للعطاء الوفير، والجود الذي لا حدّله.

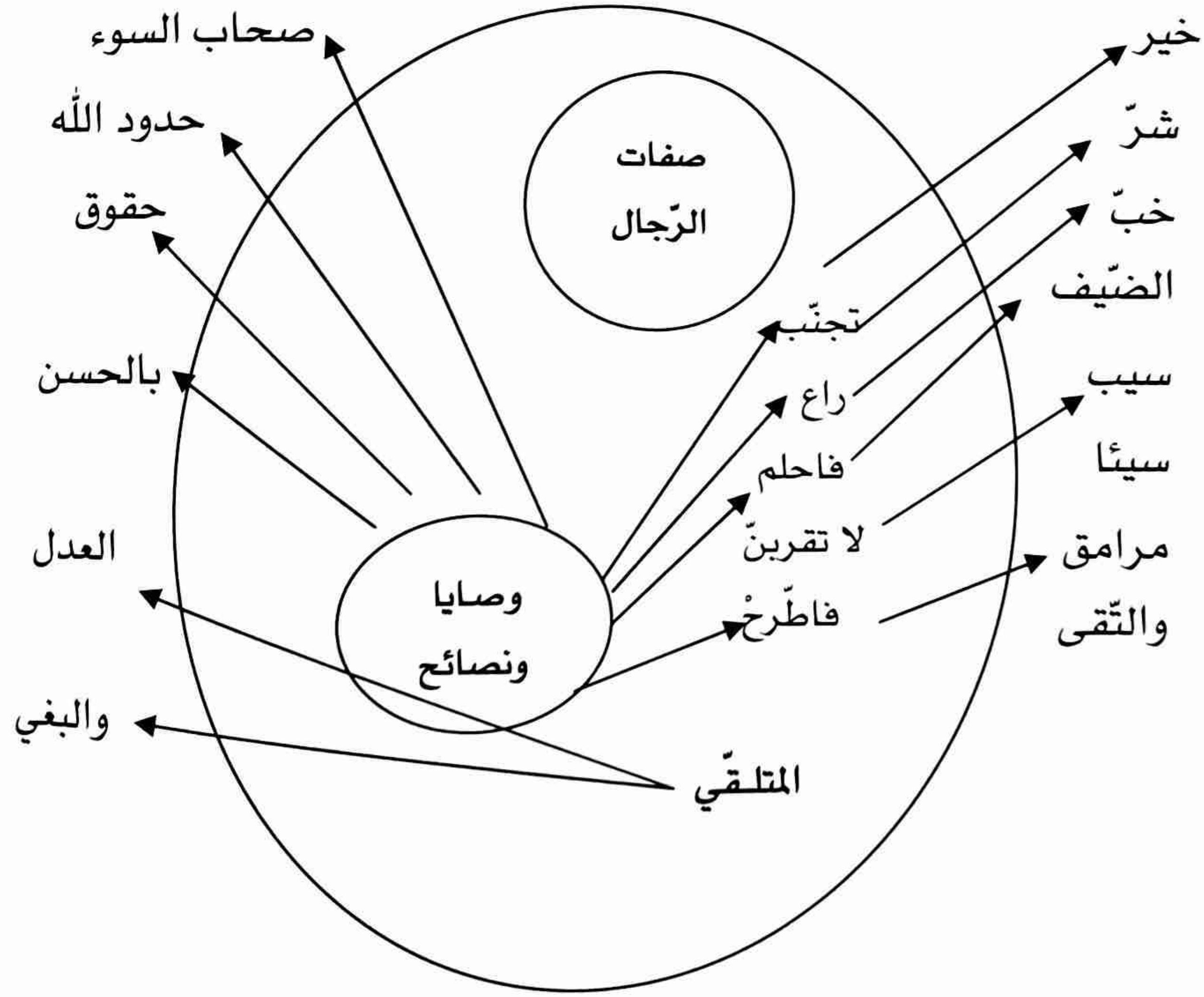
تلعثما : رمز للتّردّد في الإقدام على الأعمال النّبيلة، و«التّلعثم» أصلاً يكون في الكلام، لكنّه خصّ به الخدّاع المنافق أو السيئ الخلق.

---

[1] ـ من ذلك مثلاً من الآياتِ (وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) البقرة229، و(وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً) النساء36، و(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) فصلت34، و(وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) الحج18 ، وفي الحديث القدسيّ « يا عبادي، إنّي حرّمت الظّلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا» ـ روى هذا الحديث أبو ذرّ الغفاري (رض) عن النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) فيما يرويه عن ربّه ـ أخرجه مسلم في صحيحه برقم: 2577 (كتاب البرّ والصّلة، باب تحريم الظلم).
أمّا من الحديث النّبويّ فهناك حثّ شديد على إكرام الضّيف حيث قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنّه سيورّثه ».
رواه ابن عمر (رضي الله عنهما)، وأخرجه البخاري في صحيحه تحت رقم: 5556.

جهل الجهّال : رمز للانفعال وسوء التّصرّف.
اليمْن : رمز لكلّ ما يفضي إلى الخير والنّجاة والفلاح.
الشّؤم : رمز لسوء العاقبة والبغي والضّغينة.

4.7.2 ـ الرّؤية



جاءت الرّؤية هنا لتلخّص فلسفة الباثّ ووجهة نظره في الحياة، فهو قد مهّد لحكمه وآرائه بإشارات وومضات، حتى إذا أوشك على غسل يده من قصيدته، ألفيناه يكثّف الموادّ، ويحشد الرّؤى التي تتمثّل في مكارم الأخلاق، ونظافة المنبت، وكرم الأصل.

كلمة أخيرة :

لقد قمنا بمحلولة تقرّب هذا النص إلى أذهان المتلقّي الجزائريّ بخاصّة، والعربيّ بعامّة، وتجعله يستكشف خطابا شعريّاً من موريتانيا غاية في الجودة، ودقيقا في السّبك، وجزلا في اللّغة، وجميلاً في الإيقاع بقسميه أو بأقسامه.

وكانت هذه المقاربة محاولة من جانبين :

أحدهما : إنّ النص غريب عن المتلقي العربيّ نسبيّا، لأنّنا ألفينا توظيف نصوص من هذا القطر العربيّ وذاك، ولكنّا نتغافل أو نتجاهل ما يبدعه أدباء المغرب العربيّ عادة.

و الآخر : إنّنا طبّقنا منهجا تجريبيّاً لا هو بالبنيويّ ولا بالإحصائيّ، ولا بالتّحليل السيميائيّ؛ وإنّما قطف من كلّ منهج برعما، وجنى من كلّ غصن ورقة، فإن استساغه المتلقّي ورضي عنه فذلكم وكْدنا، وتلك غايتنا، وإن أعرض عنه فله أن يعمد إلى نصوص أخرى ليطبّق عليها ما يراه ملائما لطبيعته، ومنسجما مع نفسه.

ملحق

أ ـ حياة الشّاعر.

ب ـ النصّ.

أ ـ حياة الشّاعر

هو أمحمّد بن محمد بن المختار بن الفغ موسى اليعقوبيّ المشهور بأمحمد بن الطُّلْبَ، ينتهي نسبه إلى سيدنا جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)[1].

عُرف عنه شغفه بالصّيد، وهو ما جعله ينبغ في صنع أدواته، فاشتهر ببَرْي النّبال، وكان دائم التَّرْحال متنقّلاً بين القبائل العربيّة[2].

كان جواداً عالي الثّقافة، وذا باع في جودة الشّعر، والأدلّ على ذلك أنّه كان معتزّا بنفسه، عالي الثّقة في نتاجه، وهذا ما دعاه إلى أن يقول بعد أن انتهى من نظم إحدى جيميّاته وأبرزها للناس: « أرجو من الله أن أقعد أنا والشّمّاخ بن ضرار، في ناد من أهل الجنّة، ونُنشد بين أيديهم قصيدتينا، لنعلم أيّهما الأحسن»[3].

---

[1] ـ يراجع الوسيط: 94.

[2] ـ كان إذا ألقى عصا تَسْياره عند إحدى القبائل، فإنّ أوّل ما يسأل عنه « القاموس»، فإن كان موجودا عندهم قضى يومه في تصفحه، فإن لم يكن، يتركهم للبحث عنه في قبيلة أخرى ـ يراجع: الوسيط، ص 95.

[3] ـ نفسه: 95، ومطلع جيميّته التي تبلغ 102 من الأبيات هو:

تَطاوَلَ ليلُ النّازعِ المُتَهَيّج ... أما لضياء الصّبحِ منْ مُتَبَلّج

وأمّا مطلع جيمية الشّمّاخ بن ضرار الغطفانيّ الصّحابيّ الجليل فقوله:

ألا ناديا أظْعانَ ليلى تُعَرّجِ ... فقدْ هِجْنَ شوقاً ليته لم يُهَيّج

هذا ، ولقد قيلت في الشاعر آراء كثيرة تتّفق كلّها على جودة شعره، وكرم نفسه، وعلوّ همّته، [1]ومن هذه الآراء ما قاله فيه (محمّدٍ فالْ بن متالى التّندغيّ) : « هذا عربيّ أخّره الله، ولا تكاد تعُدّ طبقة، إلاّ بدأت به في أوّلها ، إذا عُدّ الكرام فهو حاتمهم، أو العلماء اللّغويّون، فما هو بدون ابن سيده، وكلّ أخباره تُكتب بالذّهب، وإنّما لُقّب بيته بالطّلْبَ، لأنّهم كانوا أعلم أهل ناحيتهم، فكانت الناس ترحل إليهم في طلب العلم، وكان مولعا بالعربيّة، لا يقترمن التّنقيب عنها والتّحرير »[2].

هذه هي حال الأدب العربيّ في الأقطار المغاربيّة، فقد لقي إجحافا من أقرب المقرّبين إليه، وقوبل بإهمال من أبناء بيئته ومرتبطي الوشاج به، فكيف ننتظر ا ، يهتمّ به الأباعد وقد أضاعه ذوو رحمه وأقاربه ؟!..إنّ المتلقّي لن يعرف شيئا ذا بال عن الشّاعر: متى ولد؟...ومتى تةفّي ؟...وما هي مؤلّفاته ؟...ومن هم شيوخه ؟...ومن هم تلامذته ؟...وما هي أهمّ آرائه الأدبيّة والنقديّة ؟!..

هي أسئلة كثيرة جاءت تترى، واستفسارات متعدّدة تتزاحم على الأذهان، ولكنّ الأجوبة عنها تظلّ معلّقة قائمة.وإنّنا نهيب بالباحثين الموريتانيّين أن يرفعوا هذا الغبن عن أدبهم، وأن يعرّفوا برجالاتهم وشيوخهم، ولاسيّما أنّ الفترة التي بدأ فيها هذا الأدب العربيّ في ديارهم ليست ضاربة في جران التّاريخ، ولا ممدودة جذورها إلى القرون الأولى ؛ لأنّه لو كان الأمر كذلك لكانت

---

[1] ـ هذا ما يؤكّده صاحب الوسيط، لكنّه لم يورد إلاّ رأيا واحدا ، وذلكم ما جعلنا نقتصر نحن أيضا عليه ولم نتعدّه إلى غيرم بسبب غياب المرجعيّة.

[2] ـ الوسيط : 94.

المصيبة أعظم، ولتعذّر على الدّارسين التّأريخ الدّقيق لهذا الأدب مثلما هو الشّأن في سائر الأقطار المغاربيّة الأخرى.

هذا، وقد وقع اختيارنا على مطوّلته التي حلّلناها لما لمسناه فيها من صور جميلة، وفرائد من الألفاظ منسابة، وجملاً من الشّعر تمتدّ جذورها إلى التّراث العربيّ القديم، وتتّصل اتّصالاً مباشرا بالعصر الذي عاش فيه الشّاعر.ويبدو أنّ هذه المطوّلة كانت من خطابه الشعريّ الذي يفتخر به في أسماره وأحاديثه ؛ بدليل تقريظه لها بقوله بعد أن أنشدها أمام القوم : « أرجو من الله أنّي أنا وحميد بن ثور، ننشد قصيدتينا في ناد من أهل الجنّة، فيحكمون بيننا»[1] وها هي ذي ميميّته :

ب ـ النّصّ

تأوَّبَهُ طيف الخيالِ بمريما فبات مُعنّىً مُستَجَنّاً مُتيَّما[2]

نأوّبه بعد الهُجوع فهاضَهُ فأبدى من التَّهْيام ما كان[3]

لطافَ بها حتّى إذا النّفسُ أجْهَشَتْ وأبدتْ بَنانالي خَضيباً ومِعصَما[4]

---

[1] - كتاب الوسيط، ص 118.

[2] - تأوّبه: أتاه ليلاً. وطيف الخيال: مجيئه ليلاً.والمُعنّى: اسم مفعول من عنّاه؛ أي: أتعبه. والمتيّم: المريض بالحبّ.

[3] - الهجوع: النّوم. وهاضه: حرّك هواه الكامن في نفسه؛ وهو من قول القائل: هاض العظمَ: كسره بعد جبر. وجمجم: أخفى ما في صدره.

[4] - لطاف بها: هذه اللاّم يقال لها: لام التّمهيد؛ وهي مؤذنة بالقسم، وورد في القرآن الكريم قوله تعالى:(وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) الروم51.وقال النّابغة الذّبياني:

لكلّفتني ذنبَ امرئٍ وتركْتهكذي العرّ يكوي غيرَه وهْو راتعُ

وأجهشت: فزعت إليه، كالصبيّ يفزع إلى أمّه.

ووجْهاً كأنّ البدرَ ليلةَ أربعٍ وعشرٍ عليه ناصلاً قد تَهَمّما[1]
تولّى كأنّ اللّمح بالطّرْف زورُهُ وكان وداعاً منه أنْ هو سَلّما[2]
فمنْ ذا ولا مَنْ ذا رأى مثلَ زَوْرِهِ ومثلَ الذي بين الجوانحِ أضْرَما[3]
فبات الهوى يستنُّ بي هيجانه فأسدى بلُبّي ما ما تَبَغّى وألحَما[4]
وبتُّ بهمٍّ لا صباحَ لليْله إذا ما حداهُ الصّبحُ كَرَّ ودوَّما[5]
فقلتُ أما لليل صبحٌ كما أرى أم الصُّبحُ ممّا هيّج الطّيفُ أظلما
بلى، كلُّ ليلٍ مصبحٌ غير أنّني أرى الصّبحَ يا للنّاس للصّبح أنجُما
ألا يا خليليَّ ارحلا وتيمَّما بنا حيث أمسى رائد الظّعْن يَمّما
فكيف القَرارُ بعد ما قيل يمَّمتْ مرابعَها بالجوّ أظعانُ مريما
ظعائنُ يَهديهنَّ في كلّ نجمةٍ من القوم مينافُ إذا همَ صَمَّما[6]
تَحَمّلْنَ أنْ قد شِمنَ من جال تيرِسٍ مَخيلاً بها ألقى البَعاعَ ودَيَّما[7]
فخبَّرَهم روّادهم بعد سبعة بما سرّهم أن جادَ فيها فأفعما[8]

---

[1] - ناصلاً: حال من البدر. وتهمّم: ذاب فوقه، فدخل نوره فيه.

[2] - زوره: زيارته.

[3] - فمن ذا ولا من ذا رأى:؛أي: من الذي رأى مثل زوره، ولا أحد رآه، فإنّ من: تقع نكرة موصوفة وتامّة.وأضرم: أنار الحزن؛ من: أضرم النّارَ، أوقدها.

[4] - الاستنان: الجولان في القلب، مأخوذ من استنان الإبل في عدْوها. وهيجانه: شدّته. وأسدى، من السّدوة: أي: أحدث له شوقا، وهو مأخوذ من أسدى الثوب:.وألحم: مأخوذ من ألحم الثوب:إذا جعل فيه لحمته إبّان النّسيج.

[5] - لا صباح لليله: كناية عن طوله.وحداه الصّبح: ساقه.وكرّ: عطف.ودوّم الطّائرُ: حلّق في الفضاء.

[6] - النّجمة: ارتياد المرعى. والميناف: الطّويل. وصمّم: أمضى عزمه.

[7] - تحمّلن: احتملن.وشمن: من الشّيم؛ وهو نظر البرق بخاصّة.وجال تيرس: جانبها.والمخيل:ج. مخالة: وهي السّحابة. والبعاع: ثقل السّحاب من المطر.

[8] - الرّوّاد: ج. رائد: وهو الذي يرتاد الكلأ. وأفعما: ملأ غدرانها ماء.

وجـرٌ علـى أنْجادهـا ووِهــادها من الوشم حَوِكاً سندسياً وانعما
فمـن يـك يومـاً ذا عَـزاءٍ ونَـسْوة لطـول ثـنـاءٍ أو لطـولِ تَـصَرُّمـا
فلستُ بناسٍ يـومَ ولَّتْ جِمالهـمْ وسـالَ بهـنّ الفـجُّ بـالظَّعْن عـوَّما[1]
هجـائنُ بـيضٌ مـن عَقائـل عـامرٍ جمعْنَ إلى الأحساب حُسْناً وميسما
تخيَّـرْنَ للأحْـداج كـلَّ مُنَـوَّقٍ مـن البُـزْل فَعْمـاً قيْسَريّاً عثَمْثَمـا[2]
يَزيـفُ بميهـاج كـأنّ مُروطَــها تُخـالُ بـرئمٍ مـن غُـشَيْواءَ أرْثمـا[3]
جعلن على الأحداج خَملاً وكِلّةً وعـالَيْنَ رقمـاً عبقريّـاً منمْنَمـا
تظلُّ عِتاق الطّير في كلّ رحلـةٍ إليـه مُـديماتٍ عُكوفـاً وحُوَّمـا
كـأنّ العيونَ اللاّمحاتِ إذا بـدا تَمُـجُّ عليـه أُرْجُوانـاً وعَنْدَمـا
فلم أرَ يوماً كـان أحسنَ منظـراً وأهـوى هـوىً يَقتـادُ صَبّاً متيَّمـا
وآنَـسَ أُنْـساً لـو يُـرامُ مَنالُــهُ وأَلهـى لُهِيّـاً للـصّديق وأصرمـا[4]
ولله عينـا مـن رأى مثل سيـرها إذا رجّـعَ الحـادي بهـنّ وهَمْهَمـا
سَلكْنَ جِواءَ الفجـِّ ثـمّ تطلّعـت من الصّخرة البيضاء نجداً مُهَضَّما
جعلن قِبابَ الوُطْس نَصْبَ عيونهـا وكـان لهـنّ الـوُطْس قِدْماً ميمَّمـا

1 - الفج: الطريق الواسع بين الجبلين. وعوّما: سرن سيراً يشبه العوم في البحر.

2 - تخيّرن: اخترن. والأحداج: ج. حدج: وهو مركب من مراكب النّساء. وكلّ منوق: كلّ جمل أحسنت رياضته. والبزل: ج. بازل: وهو الذي طلع نابه. والفعمّ الغليظ. والقيسريّ: العظيم. والعثمثم: الشّديد الطّويل.

3 - يَزيف: يتبختر في مشيته. ومبهاج: امرأة مبهاج (من البهجة). ومروط: ج. مِرْط: كساء من صوف لأو خزّ. والرّئم: الظّبي الخالص البياض. وغشيواء: اسم موضع في موريتانيا. والأرثم: المبيضّ طرف الأنف.

4 - لو ينال مناله - لو: هنا حرف تمنّ، ومثلها في قوله تعالى: **﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾** - الأحزاب 20.

ويـامنَّ عـن نجـد الغُويْـرِ ويـاسَـرَتْ   عن الأَيْق نُكْباً سيرُها لنْ يُئمِّما
فحلّت ببطن الأثْـوِ مشياً ومـا بت   عَـلاقٌ فبـات الظّهـر حَـدْباً مُزَمَّما[1]
وأبكـرنَ يَخْبطن الجفـاجف غَـدوةً   كإصـرام عيدانٍ أنـى أن تَصَرَّمـا[2]
فألوتْ على الكِنْوين من نسج سدوها   هجيراً برأي مُحكَم النّسج أقْتما[3]
يحاولن بالسَّبع الأضَيّاتِ مَشْرَبـا   من الغُدْر، أو عينـاً بجَلْواءَ عَيْلَما[4]
وروضـاً بأكْنـاف الأمـاكرِ زاهـراً   قد ارزم فيه الرّعد سبتاً وزمزما[5]
فألقتْ عِصيَّ السَّيرِ فيه وخَيَّمتْ   بحيث بَعـاعُ المُـزْنِ سَحَّ وخَيَّمـا[6]
عسى الله يُدني بعد بُعدٍ مَزارهـمْ   فيـأْنسَ صبٌّ بعـد حُـزْنٍ وينعمـا
فهـل تُبْلغَنّـيهمْ نجائـبُ وُخّـدٌ   شـوازبُ لا يُلقـينَ للّيـل مَحْرمـا[7]
نجائـبُ يحـدوها سُـرىً وتهـجّرٌ   يبـاري بهـا الـدَّوُّ النَّعـامَ المُخَزَّمـا[8]

---

[1] ـ الأُثْو: موضع بعينه. والعَلاق: ج. علاقة: وهو ما تتبلّغ به الماشية من الشّجر. والظّهر: الرّكاب التي تحمل الأثقال في السّفر على ظهورها. وحدبا: مناخة معقلة. ومزيما: مجعولة فيه أزمّته من شدّة الجدب.

[2] ـ الجفاجف: ج. جفجف: وهو الأرض المرتفعة ليست بالغليظة. والإصرام: مصدر أصرم؛ 21: حان أن تصرّم. وأنى: حان.

[3] ـ الكنوينّ موضعين بعينهما. والنّسج: شحمها الذي نسجت منه أسنمتها محكم النسج: مصمّم. الأقتم: الأسود.

[4] ـ جلواء: اسم موضع. واليلم: الماء الذي عليه الأرض، أو الذي علته الأرض، وهو المندفن.

[5] ـ الأكناف: النّواحي.و والأماكر: أماكن بعينها في موريتانيا. ووأرزم: صوّت صوتا شديدا، وزمزم: بمعناه.

[6] ـ الضّمير في ألقت: للظّعن، يعني أنّها أقامن به. وبعاع المزن: ثقله. ووسحّ: صبّ الماء صبّا متابعاً.

[7] ـ الوخّد: ج. واخدة، من الوخد: وهو الإسراع. ووشوازب: ج. شازب وشازبة، وضامرة. ومحرما: حرمة.

[8] ـ الدّوّ: الفلاة. والمخزّم: الذي جعلت في آنافه الخزائم.

نجائبُ لا يُعْظِمْنَ للهول كلّما تَغَـوَّلَ مجهـول التّنـائفِ مُعْظَمـا[1]
تخيَّرْت منها لاهتمامـي عَرَنْدَسـاً يُخالُ على التَّرحالِ والحلِّ مُقْرَمـا
بُـوَيْزِلُ عـامٍ كالمَـصاد عُـذافرٌ كـأنّ عليـه خِـدْرَ حِـدْجٍ مُخيَّمـا[2]
زِفَـرٌ خَـروسٌ لـو تـولّى لرحـله بحـدّ المواسـي زَمَّ أنْ يَتَزَغَّمـا[3]
كـأنّي أداري إذ علـوتُ قُتـوده به أبلقَ الكشحينِ جأباً مُكَدَّمـا[4]
قُـوَيْرحُ عـامٍ أو رَبـاعٌ خـلاله مَجَـرٌّ بحنّـان مـن الـدّلو أسحمـا[5]
كـأنّ رُبـاهُ والهُجـولَ تَجَلَّلَـتْ زرابـيَ أو وشْـياً يمـانٍ مُـسهَّمـا[6]
يَدين به حُقْبٌ سماحيجُ باكـرتْ لُعـاعَ تَنـاهى روضِـه حـينَ وَشَّمـا[7]
كـأنّ صـراخ المستغيثِ سَحيلُـه بكلّ صباحٍ غيرَ أنْ كـان أعجَمـا

---

[1] - التّنائف: ج. تنوفة: وهي الأرض الواسعة البعيدة الأطراف. ومعظم: ما يعظّمه من رآه لصعوبته. والعرندس في البيت الموالي: الشّديد من الإبل.

[2] - بويزل: تصغير بازل، وهو الذي بزل نابه؛ أي: طلع. وبازل عام: بزل منذ سنة. والمصاد: الجبل. وعذافر: عظيم شديد. وخدر حدج مخيّما: عظيم السّنام.

[3] - الذّفر: عظيم الذّفرى، وهو العظم الشّاخص خلف الأذن. وخروس: لا يسمع له رغاء. وزمّ: تكبّر. وبتزغّم: يردّد رغاءه في لهازيمه.

[4] - درى الصّيد دريا: ختله. وجأبا: غليظا. ومكدّما: كدمته الحمر، أي: عضّته.

[5] - المجر: المكان الذي جرّ فيه السّيل الماء. وبحنّان: بسحاب كثير الحنين، وهو أن يكون صوت الرّعد خفيفا كحنين الإبل، وذلك أدلّ على كثرة الماء بخلاف ما إذا كان شديد الصّوت. والدّلو: برج في السماء. وأسحم: أسود، صفة للسّحاب.

[6] - الهجول: ج. هجل: وهو المطمئنّ من الأرض. وتجلّلت: لبست. ومسهّم: مخطّط (شبّه نبات الأرض بالزّرابي والوشم).

[7] - يدين به حقب: اعتدن الرّعي به. والحقب: جمع أحقب وحقباء، وهو من الحمير ما كان في بطنه بياض، أو الأبيض موضع الحقب؛ أي: الحزام. وسماحيج: ج. سمحاج: هي الطّيلة الظّهر. واللّعاع: نبت ناعم في أوّل ما يبدو. وتناهى: ج. تنهية وتنهاة: وهو حيث ينتهي الماء إلى النّهى؛ وهو الغدير..ووشم : أظهر الوشم، وهو شيء تراه من النّبات أوّل ما ينبت. والسّحيل (في البيت الموالي): النّهيق.

يَـدِنَّ لــه حتّــى قَــرِينَ ذُنابَــه   وأحسنَ لِقْحاً عن حِيالٍ مكتَّمـا[1]

وقـد جَعلـتْ لَيّـاً بأذنـابها لــه   إلى السَّلْم من بعد المناورات سلّما

يُحوِّزهـا في كـلّ فـجٍّ كأنّهـا   وَسيقةُ تـاج مـن عِدىً نـال مَغْنمـا[2]

يظـلّ رقيبـاً حــولهنّ كأنّــه   رَبِـيءٌ عــلا مــن ميفَـعٍ مُتَسنَّمـا[3]

فلمّـا جرتْ هيف الجنائب بالسَّفا   وأيقَـنَّ أنّ الجَـزء فيـه تَـصَرَّمـا[4]

ولَوَّحَهـا هَيْـجُ الـسَّموم وسومـها   فظلّـت صُـفوناً بـالظّواهر صِيَّمـا[5]

تَـوَخّى بهـا عينـاً رِوىً قـد تَعَـوَّدتْ   بهـا الـرِّيَّ قِدْماً بالمَصائف مَعْلَمـا[6]

فشَجَّ بهـا الحـزّانَ شجّاً كأنّمـا   تَـشُبُّ على الحُـزّان غابـاً مُـضَرَّمـا

أو ارْوَحَ هَيْفـاً خاضِـباً مُتَرَوِّحـا   يبـادرُ أغْـوالَ العـشيِّ مُـصَلَّمـا[7]

تَهَـيَّجَ للأُدْحـيِّ مـن نـازحٍ غـداً   يجـول بـه في يـوم ريـحٍ تَغَيَّمـا[8]

فلمّـا دنـا الإمسـاءُ والـشّمسُ حَيَّـةٌ   تـذَكَّرَ أقوابـاً وقيـضاً محطّمـا[9]

---

[1] - يدنّ انقدن، والضّمير للأتن، ولم يتقدّم لهنّ ذكر لعلمهنّ ذهنا. وقرين: تتبّعن. والذُّناب: الذّنب.

[2] - يحوّزها: يضمّها في كلّ فجّ. والوسيقة: القطيع من الإبل يطردها الشّلّال.

[3] - يظل: أي العير. رقيبا: حول الأتن. وربيئة القوم: الذي ينظر لهم العدوّ ويحفظهم، ويقال له الطّليعة. الميفع: المكان العالي. والمتسنّم: بمعناه.

[4] - الهيف: ج. هيفاء، وهي الرّيح الحارّة. والسّفا: التّراب الذي تثيره الرّيح والجَزء: اجتزاؤها بالرّطب عن الماء. وتصرّم: تقطّع من شدّة الحرّ.

[5] - لوّحها: أعطشها. وصفونا: قائمة على ثلاث قوائم وطرف الرّابعة. وصيّما: قائمة على غير علف.

[6] - توخّى بها: قصد. وعينا: ماءً جارياً. وروىً: كثير مُرْوٍ. ومعلم. مظنّة لوجود الماء. والحزّان (في البيت الموالي) : ما غلظ من الأرض. وشجّ قطع.

[7] - الأروح: المتباعد ما بين الفخذين. والهيق: الظّليم. والخاضب: الذي اغتلم فاحمرّت ساقاه. ومتروّحا: رائحا. ومصلم: صغير الأذنين.

[8] - تهيج: هاج واضطرب. والأُدحيّ: الموضع الذي تبيض فيه النّعام. وتغيّم: كثر غيمه.

[9] - الأقواب: ج. قوب، وهو الفرخ. والقيض: قشر البيضة. ومحطّم: مكسّر.

تحطّم عن زُغر القوادم خُرّقِ كمثل أروم من حُليٍّ تجرثما[1]
الا عجبتْ جُمْلٌ سَفاهاً وما رأتْ بديئاً لشيب بالمفارق مُعْلِما[2]
وقد زعمتْ أنّي كبِرْتُ وأكبرَتْ صباي ولم تنقم لعمرك مُعْظَما
وقد هزئتْ لمّا رأتني شاحباً وهنْتُ عليها بعد ما كنت مُكرَما
ألم تعلمي أنْ لا غضاضةَ أنْ يُرى كريمٌ ببيضاء المَحاجرِ مُغْرَما
وأنّ الجُراز العَضْبَ يخلُقُ غِمْدُهُ ولا عيبَ إنّ العيب أنْ يَتَكَهَّما[3]
ولكنْ سلي عنّي دخيلي إذا شتَوا وأخلف ماشيهم سِماكاً ومِرْزَما[4]
كأنّيَ لم أركب للهو ولم أنل من البيض وَصْلاً آمناً أن يُصَرَّما
ولم أُسهر الفتيانَ ليلَ ملَذّةٍ طويلاً، ألا يا ربَّ طول قد اسأما
ولم أتلافَ الظّعْن قصراً بحاجرٍ على إثْر حيٍّ مدَّ سيراً وأجْذَما[5]
ولم أعمل العيسَ المَراسيلَ بالفَلا لأبنيَ مجداً رُكنُه قد تَهَدَّما
ولم أَهد بالمَوْماة رَكْباً ولم أُرِد بهمْ أُخْرَياتِ الليلِ ماءً مُسَدَّما[6]
ولم أَردد الأَلْوى الألَدَّ كأنّه أَميم كما عَنَّ المُعَنّى المُسَدَّما[7]

---

1 ـ الزعر: ج. أزعر، وزعراء، وهو قليل الشّعر المتفرّقه. والقوادم: عشر ريشات في أعلى الجناح. وخرّق: لا تقدر على الحركة.

2 ـ بديئاً: أي شيبا ظاهراً. ومعلما: أظهر علامة كبر.

3 ـ الجراز: السّيف القاطع. والعضب: مثله. ويخلق غمده: يبلى. والتّكهّم: الكلال عند الضّرب به.

4 ـ دخيلي: بطانتي. والسّماك: الأعزل. والمرزم: نجم معروف، وهما مرزمان من الشّعريين.

5 ـ قصراً: وقت اختلاط الظّلام. وحاجر: موضع بعينه. ومدّ سيرا: أطاله. وأجذم: أسرع السّير.

6 ـ الموماة: المفازة الواسعة، وجمعها: موام. والمصدّم: الماء المتدفّق.

7 ـ الألوى الشّديد الخصومة. وأميم: فعيل بمعنى مفعول، أي: مأموم (به شجّة)، أي: أصبت أمّ رأسه. وعنّ عرض. والمسدّم: الفحل الذي يخرج من الإبل استهجاناً لفحالته، أي: أتى يهدر كالفحل الهائج الذي يرد عن الإبل.

ولم أفحم الخِنذيذَ في يوم مَجمَع   من النّاس مشهودٍ وما كان مُفحَما
أتـى ثانيـا مـن جيـده مُتَخَمِّـطاً   يَمُـجُّ لُغامـاً مـستطيراً وبلغمـا[1]
فصَدَّ صُدود المستكينِ كأنّـه   من الذُّلّ محسومُ الخصاء وأحجما
أرانا لصرف الدّهر صَرْعينَ مُقْمَصاً   فمُصنمىً ومُنْمـىً إن تَخَطّاه أهرما[2]
ومـا مـات مـن أبقـى ثنـاءً مخلّدا   ومن عاش من قد عاش عيشاً مُذَمَّما
ومـا المجدُ إلاّ الصبرُ في كلّ موطن   وأنْ نجشُم الهول العظيمَ تكرُّما[3]
وما اللّؤمُ إلاّ أن يُرى المرء غابطاً   لئيمـاً لمـال في يديـه إن اعْدَمـا
فذاك الذي في الموت في النّاس عيشه   ومـن عَـدَّ مـالاً مالـه كـان الأمـا
ومـا الـدّهرُ إلاّ بـين لـين وشـدَّةٍ   فمن سرّ مُسْياً فيه أصبح مرغما[4]
وما الحزمُ إلاّ مِرَّةُ النّفسِ تُقْتَنى   لـشدَّته مـن قبـلِ أن تتَحَكَّمـا[5]
ومـا العجـزُ إلاّ أن تلـين لمسّهـا   فتَضجرَ مـن قبـل الرَّخـاء وتسأما
ولـيس الغنـى إلاّ اعتـزاز قناعـة   تُجِـلّ أخاهـا أن يُـذَلّ ويُـشتما
ومـا الفقـر إلاّ أن يُرى المـرء ضارعـاً   لنكبـة دهـر قـد ألمَّ فيَفْجَعـا
وخيرُ الرّجال المُجتدى سَيْبُ كفّه   وأجـرؤهم عنـد الكريهـة مقدمـا[6]

---

[1] ـ أتى ثانيا من جيده : أتى متكبّرا. واللّغام في الأصل : زبد الجمل، واستعاره للإنسان. ووالبلغم: خلط من أخلاط البدن.

[2] ـ الصّرعان : الليل والنهار ، أو الغداة والعشيّ، يقال : أتيته صرعى النّهار، أي: غدوةً وعشيًا. والمقمص : من أقمص، إذا ضربه ضربة فمات مكانه. والمصمى: مثله.

[3] ـ الجشم: تكلّف الأمر على مشقّة. والهول : الأمر الذي يهوّل الناس، أي: يفزعهم

[4] ـ المُسْيُ والمِسْي : خلاف الصباح والصّبح، أي: ما بين الظهر إلى المغرب، أو : وقت زوال الشمس، ووقت غروبها.

[5] ـ المِرّة : الخلق. وتُقتنى لشدّته: تدّخر لشدّة الدّهر.

[6] ـ السّيب : ج. سيوب، المطر الجاري، أو العطاء، أو المال.أما السُّيب (بكسر السين) فمعناها : مجرى الماء.

وشـرُّ الرّجال كـلُّ خَـبٍّ مُرامـقٍ   إذا مـا دعـا الـدّاعي لأمـر تلعثمـا[1]

تجنّبْ صِحاب السّوء ما عشْتَ إنّهم   لكالجُرْب يَعْدينَ الصّحيحَ المسلّما

وراعِ حـدودَ اللّهِ لا تتَعَـدَّهـا   وصـغِّرْ وعظِّـمْ مـا أهـان وعظّمـا

وراعِ حقوق الضّيفِ والجـار إنّـه   لعمـرُكَ أوصـى أن يُبَـرّ ويُكرمـا

وإنْ جهِـلَ الجُهّـال فـاحلُمْ وربّمـا   يكـون عليـك العـار أن تتَحلّمـا

وبالحَسَن ادفـعْ سيّئاً فـإذا الـذي   يعاديـك كـالملى الأحَـمّ وأرحَمـا

ولا تقـربنّ الظّلـمَ والبَغْيَ فاطّـرحْ   فغِبُّهمـا قـد كـان أردى وأشأمـا[2]

ومـا اليُمْنُ إلاّ البـرُّ والعـدلُ والتُّقـى   ومـا الـشُّؤمُ إلاّ أن تَخـون وتأثمـا

---

[1] - الخبّ (بفتح الخاء) : الخدّاع، أمّا بكسرها فهو : هيجان البحر واضطرابه. يقال : «أصابهم خبّ» أي : التوت عليهم الرّياح واضطربت الأمواج. والمرامق : السيئ الخلق. والرّماق : النّفاق. تلعثم : نكص عن مساعدة غيره.

[2] - الغِبّ : ج. أغباب، العاقبة، يقال : «للأمر غِبّ» أي : عاقبة.وماء غِب : بعيد.ومنه المغبّة، أي: العاقبة.

ابن مرزوق الحفيد

ورؤْيته الإبداعيّة

أ ـ لمحة عن سيرته الذّاتية والعلميّة

مدخل : عصر الشّاعر

ممّا هو قمينٌ بالتّنويه، أنّ العلاّمة ابن مرزوق الحفيد عاصر زمناً يمكن أن نُطلق عليه زمن عباقرة الجزائر في تلمسان التي حظيتْ بنصيب الأسد في بروز مجموعة من العلماء والمفكّرين أدركهم الأجل قبله أو بعده بقليل، فقد عاصر ابنُ مرزوق الحفيد الإمام قاسم بن سعيد العقباني (ـ837هـ) وأحمد بن زاغو (ـ 845هـ) والعالم الحسن بن مخلوف أبركان (ـ857هـ) والعالم الرّياضي أحمد بن سعيد الحبّاك (ـ870هـ) والعلاّمة محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني (ـ871هـ) والإمام إبراهيم بن قاسم بن سعيد العقباني (ـ880هـ)والصّوفيّ محمد بن يوسف السّنوسي (ـ885هـ) والحافظ الأديب محمد بن عبد الجليل التّنسي (ـ899هـ) وأحمد بن زكري (ـ899هـ) والإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي (ـ909هـ)[1] وهلمّ جرّاً...

فعصر ابن مرزوق الحفيد إذاً، كان عصراً طافحا بعشرات الأسماء في هذه المدينة، وفي مدن جزائريّة أخرى على غرار وهران (محمد بن عمر الهواري) المتوفّى سنة 843هـ وإبراهيم التّازي (ـ 866هـ) وبجاية التي احتضنت مجموعة كبيرة من العلماء كالمشدّالي (886هـ) والشيخ الحسناوي (ـ 887هـ) والإمام عيسى بن أحمد الغبريني (ـ815هـ) والإمام أحمد الغبريني (ـ 770هـ) وقسنطينة التي عاش فيها علماء عاصروا الفترة المذكورة، والجزائر العاصمة التي برز فيها

---

[1] ـ تنظر مجلة الثّقافة الجزائرية (شهرية) كانت تصدر عن زارة الإعلام والثّقافة، السنة2، ع7 ـ محرم 1392هـ (مارس 1972م)ص 46 ـ مقالة للمرحوم : رابح بونار عنوانها: " عبد الرحمن الثّعالبي"

يومئذ بصورة أخصّ الوليّ الصّالح والشّيخ الوقور عبد الرّحمن الثّعالبي (875هـ)، وكان لمعظم هؤلاء الشّيوخ علاقة بابن مرزوق الحفيد، مثلما سيتّضح لاحقا، إمّا تعلّماً وإمّا تعليماً.

1 - اسمه ولقبه ودراسته :

هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق الحفيد العجيسي المولود بتلمسان سنة 766هـ الموافق لـ 1364م، وهذا العالم هو غصن من شجرة علمٍ مباركة، فالمرازقة وَرِثوا العلم وورّثوه أباً عن جدّ، وحفيداً عن حفيد الحفيد، فهم أولو النّهي والرّشاد، والذّكر الحسن والسّداد. فقد تعرّض لسيرهم الأوّلون، وكتب عنهم المتأخّرون عنهم والمُعاصرون لهم، فأشادوا بذكرهم، واستنْشقوا من عطرهم، واستلهموا كثيراً من آرائهم ومصابيحهم. وسيكون من الصّعب على المرء أن يؤرّخ لهم جملةً وتفصيلاً، وذلكم ما حفّزنا على أن نصطفي من هذه الأسرة الضّاربة في جِران المجد حفيدها وحده عسانا أن نوفّيهُ بعض حقّه، ونشرّع الأبواب على مصارعها للاهتمام بشخصيّاتنا الوطنيّة بعامّة، والتّلمسانيّة بخاصّة. وبعد عمرٍ حافل بالنّشاط العلميّ والتّدريس، أسلم روحه الطّاهرة إلى بارئها يوم الخميس 14 شعبان 842هـ الموافق لـ 30 يناير 1439م بتلمسان، ودُفِن بالجامع الأعظم.

لكنْ، وبالرّغم من منزلة هذه الأسرة وفيضان علمها على بقاع العالم الإسلاميّ من تلمسان مروراً بفاس ومرّاكش إلى غرناطة، وتونس والقاهرة وبلاد الشام، فإنّ كثيراً من الغموض ما يبرح يكتنف آثارهم، ويغطّي على مآثرهم؛ ولا ندري ما هو السّرّ في أولئك كلّه ؟!. ونقدّر أن الاحتمال الأقرب إلى هذه الضّبابيّة هو انتشار الفتن في ربوع تلمسان

يومئذ، واشتعال الاضطرابات ما بين الآونة والأخرى، والهجمات الخارجيّة الطّامعة في الاستيلاء على هذه المدينة، ثمّ ما طمسه الاستعمار الفرنسيّ ومسحه أو مسخه على الأقلّ. وإلاّ، فهل يَعقلُ أن تطوف هذه الشّخصيّات أرجاء العالم العربيّ برمّته فيذيع في العالمين ذكرهم، ثمّ لا يظفر المرء بأدنى شيء عنها إلاّ ما انْفلت من الإتْلاف، ونجا من الإفْناء. والغريب أنّ الدّيار التي زارتْها هذه الشّخصيّات مشرقاً ومغرباً وتركت فيها آثاراً يكون من المفترض ألاّ تُنسى، ولاسيّما أنّها أدّتْ نحوها دوْراً عظيماً في التّدريس والفُتْيا والقضاء، فكانت بمثابة الزّهور التي تَضَوّع رحيقها وانتشر في الآفاق عبيرها قبل أن يُهمل سقْيها ويُتكاسل عن حمايتها لتذْروها الرّياح، وتتطاير أوراقها ذات اليمين وذات الشّمال، حيث داستْها الأقدام، وغَيّبها النّسْيان!.

2 ـ **شيوخه :**

ممّا لا ريب فيه أنّ ابن مرزوق قد تلقّى مبادئ تعلّمه الأوّل على أيدي شيوخ تلمسان عهدئذ، فحفظ القرآن الكريم، وعلم الأصلين، وما أتيح له أخْذه؛ وكان أبوه وعمّه ابنا الخطيب ابن مرزوق في طليعة من أخذ عنهم. ومن أشهر الشيوخ الذين أخذ عنهم؛ هناك الشيخ العلاّمة الشّريف أبو محمد عبد الله بن الإمام، وسعيد العقباني الذي لُقّب بعالم المغرب، وأبو إسحاق المصمودي [1]، وأبو الحسن الأشهب الغماري، وغيرهم.

وكان الحفيد ابن مرزوق شديد الحرْص على إثْراء معارفه، ومضاعفة تحْصيله، فانتقل إلى تونس لإشباع نفسه من ينابيع العلم عقْلاً ونقْلاً، فالتقى الشيخ ابن عرفة وأخذ عنه، وتَزامن هذا الأخذ مع وجود أبي العباس القصار الذي أفاد من علمه هو أيضاً. وبعد

[1] - يذكر صاحب "نيل الابتهاج" أنّه أفرد ترجمة تلميذه ابن مرزوق بتأليف – ص 505.

مدّة، قرّر العودة إلى مسقط رأسه، لكنّه ما عتّم أن ارتحل إلى فاس باحثاً عن التّحكّم في القواعد وأسلوب البيان، فتلقّى النّحو على يد الشيخ الشهير ابن حياتي، وفِطْحِل من فطاحل العربيّة والنّحو الشيخ المكودي، وشيخ الأصول الحافظ محمد بن مسعود الصنهاجي الفيلالي.

وكانت شخصية الحفيد ابن مرزوق تبحث باستمرار عن الكمال، وترْنو إلى الطّمع في الازدياد؛ لأنّ ذا الهمّة لا تشْبَع نفسُهُ من الأخذ؛ ولله دَرّ الشّاعر الهذليّ[1] الذي يقول عنها :

والنّفس راغبةٌ إذا رغبْتها وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنَعُ

فابن مرزوق أقبل بنهم على العلم لا يُرضيه النّزر القليل منه، ولا يشبع طموحه الاقتصار على جوانب قد تكون ما تبرح في حاجة إلى إضاءة وتبيين؛ ولذلك ارتحل إلى القاهرة فتتلمذ على أيدي أئمّة أجلاّء من أمثال الشيخ السّرّاج البلقيني، والحافظ أبي الفضل العراقي، والسّرّاج ابن الملقّن، والشّمس الغماري، والشيخ الفيروز أبادي[2] (أبي طاهر محمد)، والإمام ابن هشام[3] (محبّ الدين)، والقاضي العلاّمة ناصر الدين التّنسي.

تلامذته :

إنّ رجلاً هذا شأنه، لابُدّ أن يستثمر معارفه في تعليم الآخرين، حيث أقبل عليه المتعطّشون لعلمه من مختلف الولايات والأقطار كي يرتشفوا من منبَع علمه الثّرّ؛ وهؤلاء صاروا بدورهم أعلاماً بلّغوا عنه

---

[1] ـ صاحب البيت الشّهير: **وإذا المنيّةُ أنْشَبَتْ أظفارَها ألْفيْتَ كلَّ تميمَةٍ لا تَنْفَعُ**

[2] ـ صاحب القاموس المحيط.

[3] ـ ابن صاحب المغني.

ما زرعه فيهم، وما منهم من أحد إلاّ ويُشار إليه بالبنان؛ فكان كلّ من الشيخ الثّعالبي، وعمر القلشاني (قاضي الجماعة) والإمام محمد بن العبّاس، والشيخ نصر الزّواوي، والفقيه الحسن أبركان، وأبي الفضل المشدّالي، وإبراهيم بن فائد الزّواوي، وأبي العبّاس أحمد بن عبد الرّحمن النّدرومي، والعلاّمة عليّ بن ثابت، وابن كحيل التّجاني، ومحمد بن مرزوق الكفيف، وأحمدبن يونس القسنطيني، ويحيى بن بدير، وأبي الحسن القلصادي، والشيخ عيسى بن سلامة البكري، والعلاّمة يحيى المازوني، والحافظ التّنسي، والإمام ابن زكري، وهلمّ جرّاً...

فلنتأمّل إذاً هذه الأسماء التي تمثّل الرّواسي الشّمّ في عالم الفكر والثّقافة والتّأليف والإبداع. وبحسْب امرئٍ من التاريخ الثقافي لهذه المدينة أن يُرجع البصر كرّتيْن ليحيا مع حِلَقِ علم هؤلاء، ويستلذّ بسماع دروسهم، ويستضيء بآرائهم وشروحهم الشافية الكافية. فأينانا من ابن زكري، أو الحافظ التنسي، أو أبي الحسن القلصادي، أو أبي الفضل المشدّالي؟ ومَنْ في مِكْنَتِه أن يُجادل الشيخ عبد الرحمن الثعالبي، أو العالم بالنّوازل يحيى المازوني ؟! إنّهم كانوا خير خلف لخير سلف، ولا يذرُ الزّهرُ الطّيّبُ العَرْف إلاّ نفحات عَبَقٍ وعطر، ولا تنتج الشجرة الطّيّبة إلاّ ثماراً شهيّةً لذيذة.

4 ـ آراء الآخرين فيه :

لا يُنازعنا أحد في وصف ابن مرزوق الحفيد بالموسوعة المتنقّلة، فقد جمع العلوم المختلفة، وأدرك ثقافة عالياً مستواها، شامخةً معارفُها، متنوّعة التّخصّص والثّراء.

وصفه التبكتي بأنّه «معدن العلم، وزناد الفهم، وكيمياء السعادة، وكنز الإفادة (...) أمّا الفقه فهو فيه مالك، ولأزمّة فروعه حائز ومالك، فلوْ رآه الإمام لقال له : تقدّمْ فَلَك العهدُ والولاية، وتكلّم فمِنْك يُسمع فقهي لا محالة»[1].

ويمضي الباحث نفسه في الحديث عن سعة علمه، وتنوّع معارفه فيذكر أنّه كان محيطاً بالحديث وفنونه، وحفْظ رواياته ومعْرفة متونه، قبل أن يُفيض في ذكر ما حواه فكْر هذا التّلمساني صاحب الموهبة الفذّة، والحافظة الغريبة، فيقول :

«وأمّا الأصول فالعضد ينقطع عند مناظرته ساعده، والسّيف يكِلُّ عند بحثِه حدَّه حتّى يترُك ما عنده ويُساعده، والبرهان لا يهتدي معه لحجّة، والمقترح لا يقترح عنده بحجّة[2]».

ثمّ يُشيد ببراعته في النّحو والصّرف، وقدرته على التّأويل النّحويّ والصّرفيّ إلى درجة التّفلسف فيقول :

«وأمّا النّحو فلو رآه الزمخشري لتجلْجلَ في قراءة المفصّل، واسْتقلّ ما عنده من القدر المحصّل، أو الرّمّاني لاشتاق لفاكهته وارتاح، واسْتجْوَى مِنْ ثمار فوائده وامْتاح».

وما كان علمه ليتوقّف عند قواعد النّحويين، ويقتصر على كيفية إعراب الكلمات والجمل والضمائر، وإنّما قد شمِلَ البلاغة وأبوابها، والفصاحة ومفاتيحها : فيقول :

---

[1] - نيل الابتهاج، ص 500.
[2] - نفسه، ص501.

«وأمّا البيانُ فالمصباحُ لا يظهرُ له ضوء مع هذا الصّبح، وصاحب المفتاح لا يهْتدي عنده للفتح، وأمّا فهمُهُ فعَنْهُ تنْحطّ الشُّهُبُ الثّواقب، وبمطالعة تحقيقاته يتحيّر الناظر فيقول : كمْ للّه تعالى من مواهبَ لا تَسَعُها المكاسب[1]».

وحتّى تكتمل موسوعيّته، وتبلغ إلى المعالي همّته، فإنّه لم يُصِبْهُ الكِبْر والعُجْبُ بالنّفس، ولكنّه أضاف إليها جواهر الزّهد، وجليّ التّواضع وخفْضَ جَناح الذّلّ؛ يقول عنه :

«وأمّا زهدُهُ وصلاحه فقد سارت به الرُّكبان، واتّفق على تفضيله وخبْرته الثقلان، هو فاروق وقته في القيام بالحقّ، ومِدْفَعَة أهل البدع بالصّدق. هو البحر، بل دون علمه البحر. هو البدر، بل دون فلقه البدر. هو الدّرّ، بل دون منطقه الدّرّ(...) فهو شيخ العلماء في أوانه، وقُطبُ الأئمّة والزّهّاد في زمانه[2]».

ورفع بين المتلقّين ذكرَهُ تلميذهُ أبو الفرج بن أبي يحيى الشّريف التلمساني عبْر ما عدّه من خلاله، وتحدّث عن معارفه وثقافته بعامّة فقال:

«شيخنا الإمام العالم جامِعُ أشتات العلوم الشّرعيّة والعقليّة حفْظاً وفهماً وتحقيقاً راسخُ القدم، رافعُ لواء الإمامة بين الأمم، ناصرُ الدّين بلسانه وبيانه وبالعلم، مُحْيي السّنّة بفِعاله ومقاله وبالشيم. قطب الوقت في الحال والمقام، والنهج الواضح والسبيل الأقوم. مستمرٌّ الإرشاد والهداية، والتّبليغ والإفادة، ذو الرّواية والدّراية والعناية. ملازم للكتاب والسنّة على نهج الأئمّة المحفوظين

---

1 - نيل الابتهاج، ص 501.

2 - نفسه، ص 503.

من البدع في زمن مَنْ لا عاصم فيه لأمر الله إلاّ منْ رحِم. ذو همّة عليّة، ورتبة سنيّة، وخُلق رضيّة، وفضل وكرم. إمامُ الأئمّة، النّاظرُ للحكمة ومنير الظُّلَم سليل الصّالحين، وخلاصة مجْد التّقى والدّين، جامعٌ بين الشّريعة والحقيقة على أصحّ طريقة[1]».

وبعد هذا الثّناء والتّقدير لرجل أذهله بحافظته، وأثّر فيه بطريقته، وبهره بلغته وأسلوبه، وتبحّره في العلوم العقليّة والنّقليّة؛ فنقل ما يجيش به صدرُه، ويعبّر عنه وجدانه؛ قال رابطاً بين سيرته الذّاتية والعلمية وبين سيرة الشيخ ابن مرزوق :

«اتّصلْتُ به فآويتُ منه إلى ربْوة ذات قرار ومعين، فقصرْت توجّهي عليه، ومَثُلْتُ بين يديْه. فأنزلني، أعلى الله قدرهُ، منزلة ولده رعايةً للذّمم، وحفظاً على الودّ الموروث من القدم (....) فقرأتُ عليه جملةً من التفسير، ومن الحديث الصّحيحيْن، والتّرمذي وأبا داوود بقراءتي، والموطّأ سماعاً وتفقّهاً، والعمدة، وأرجوزته الحديقة في علم الحديث (...) وجميع كتاب سيبويه تفقّهاً، وألفيّة ابن مالك، وأوائل شرح الإيضاح لابن أبي الربيع، وبعض مغْني ابن هشام. (...) والبيان لابن رشد، والرسالة تفقّهاً، وتفقّهتُ عليه في كتب الشافعيّة في تنبيه الشّيرازي، ووجيز الغزالي. ومن كتب الحنفيّة مختصر القدّوري تفقُّهاً. ومن كتب الحنابلة مختصر الحوفي تفقُّهاً. ومن الأصول المحصول، ومختصر ابن الحاجب والتّنقيح، وكتاب المفتاح،

---

[1] - نيل الابتهاج، ص 502.

وكتاب المصالح والمفاسد له. (...) وفي القراءات الشّاطبيّة تفقُّهاً، وفي التّصوّف إحياء الغزالي إلاّ الرّبع الأخير منه»[1].

هل يحتاج هذا النّصّ إلى تعليق ؟ وهل يحتاج ابن مرزوق إلى مزيد؟ هذا البحر الذي تلاطمت أمواجه فأوصل منسوبه إلى كلّ بقيع، وهذا الفقيه الموسوعيّ الذي شرح وأوضح، وفسّر فأفلح. وهبه الله ذكاءً خارقاً، ومنحه حافظة وزّعت مخزونها على أفواج من الطّلبة فما نفِدَت، وبحسْب أحدنا اليوم أن يكون على بيّنة من القراءات أو من النّحو أو من التّفسير أو من التّاريخ أو من الفرائض. أمّا أن يكون أولئك كلّه، فإنّ هذا ما لا قِبل لأحد بامْتلاكه !...

ولكنْ كيف رُزِق الرّجل هذه القدرة على التّحكّم في شتّى صنوف المعرفة وألوان الثقافة ؟ لا مِرْيةَ في أنّ نّ الاجتهاد وحده ما كان ليحقّق له كلّ ما يرغب المرء فيه؛ بل ثَمّةَ سرّ إلهيّ يتمثّل في الإلهام، وهنا يحدث اختلاف، ويقع الفراق بين شخصين وُفّر لهما الجوّ نفسه، ومُنحا التّساويَ في كلّ شيء، فإذا التّميّز يتّضح، والتّفوّق ينجلي بعد فترة ليعود كلّ منهما إلى أصله.(فأمّا الزّبَدُ فيَذْهَبُ جُفاءً. وأمّا ما ينْفَعُ النّاسَ فيَمْكُثُ في الارْض)[2] وهذا السّرّ الإلهيّ لا يُدركه إلاّ من ارتقى إلى مثل منزلة الشيخ ابن مرزوق، وذلكم ما ذهب إليه كثير من الدّارسين العرب والأجانب[3] حيث يقول عبد الباقي يوسف عن كاتب الفصّة، والذي ينطبق قوله على مختلف أشكال الإبداع : "الواقع أنّ الموهبة وحدها لا تكفي

---

[1] - م. س. ص 502- 503.

[2] - سورة الرعد، جزء من الآية 17.

[3] - يُعْزى هذا التّفسير إلى الأمريكيّين.

للإبداع، ولكنْ ثمّة تفاصيل لا يراها ولا يلمسها ولا يحْياها إلاّ المبدع نفسُه، ثمّةَ أسْرارٌ لا تنْكَشف إلاّ أمام روح المُبدع ذاتِه. إنّه يمْتلئ بالعالم والحياة والميتافيزيقا (...) ثمّةَ قوّةٌ مجهولة تُلقّنه حروف هُوِيّته المجهولة ككائنٍ مستقلٍّ في العالم. وهكذا، فإنّ الكاتب يعيش حياة استثنائيّة مُغايرة لحياة النّاس أجمعين"[1]. فقد كان بالرّغم من تبحّره في العلم، وتمكّنه من أدواته، لا يفْتخر بنفسه، ولا يتعالى على من هو دونه، فكان طلبته ينظرون إليه فيرونه بسيط اللباس، كثير الإطراق، دائم الاستجابة لأسئلتهم واحتياجاتهم، يملأ كيانه خوفُ الله، ويؤثّر فيه الذّكر والحديث والتّفسير؛ وذلكم ما ينقله لنا تلميذ آخر من تلامذته هو الشيخ الجليل الثعالبي في قوله عنه :

«وقدِم علينا بتونس شيخنا أبو عبد الله ابن مرزوق فأقام بها، وأخذتُ عنه كثيراً، وسمعْتُ عليه جميع الموطّأ بقراءة صاحبنا أبي حفص عمر، وختمت عليه أربعينيات النّووي قراءةً عليه في منزله قراءة تفهّم، فكان كلّما قرأتُ عليه حديثاً يعلوهُ خشوع وخضوع، ثمّ أخذ في البكاء، فلم أزل أقرأ وهو يبكي حتّى ختمت الكتاب[2]».

وتحدّث عنه في أكثر من موضع فقال مؤكّداً أقوال غيره ممّن وصفوا علمه، وأثْنوا على مكانته ومقدرته :

«هو سيدي الشيخ الإمام الحبْر الهُمام، حُجّة أهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم، ورحْلة النّقّاد وخلاصتهم، ورئيس المحقّقين وقادتهم

---

[1] - مجلة الفيصل الأدبيّة، مج5، ع3 - 4 جمادى الأولى - رجب 1430هـ / شعبان - شوال 1430هـ ، ص 114 - مقالة للكاتب المذكور أعلاه عنوانها: " هكذا تولد القصّة القصيرة".

[2] - نفسه، ص 504.

السيد الكبير، والذّهب الإبريز، والعَلَمُ الذي نصبهُ التّمييز ابن البيت الكبير، والفلك الأثير، ومعدن الفضل الكثير[1]».

وكان من حظّ تلمسان أن اجتمع عبقريّان أستاذ وتلميذ، أمّا الأستاذ فمن نحن بصدد الحديث عنه، وأمّا التلميذ فهو سيّد النّوازل وأحد علمائها؛ ونعني به المازوني الذي عبّر عن اندهاشه ممّا شاهده من علْمِ هذا الرجُل وقدرته على التّفسير والتحليل فقال :

«شيخنا الإمام الحافظ، بقيّة النّظّار والمجتهدين، ذو التّآليف العجيبة، والفوائد الغريبة، مستوفي المطالب والحقوق»[2].

ويلخّص القلصادي الآراء السابقة التي قيلت في تقديره واستعراض دُرر من مسيرته العلميّة الحافلة بالعمل السّرمديّ الذي كان منه، حتّى يُخيَّل للذي يطّلع على حياة هذا العالم الموسوعيّ أنّه هجر النّوم والأصحاب والرّاحة بأنواعها، وأقبل على العبادة والتّدريس والاستيزاد من فنون المعرفة، قال القلصادي :

«كان، رضي الله عنه، من رجال الدنيا والآخرة، وأوقاته كلّها معمورة بالطّاعة ليلاً ونهاراً من صلاة وقراءة قرآن وتدريس علْم وفُتيا وتصنيف، وله أوْراد معلومة، وأوقات مشهودة، وكانت له بالعلم عناية تُكشف بها العَمْاية[3]، ودراية تعْضُدها الرّواية، ونباهة تُكسِبُ النزاهة. قرأتُ عليه بعض كتابه في الفرائض، وشيئاً من شرح التسهيل، وحضرْتُ عليه إعراب القرآن وصحيح البخاري،

---

1 - نيل الابتهاج، ص503- 504.

2 - نفسه، ص 504.

3 - العَماية والعماءة: الغِواية.

والشاطبتين، وفرعي ابن الحاجب، والتّلقين، وتسهيل ابن مالك، والألفيّة، والكافية، وابن الصّلاح في علم الحديث، ومنهاج الغزالي والرسالة[1] ».

5 . آثاره :

أوّلاً : تآليف كاملة (أنجزها ونُسخت)

- إظهار صدق المودّة في شرح البُرْدة (ضمّنه سبعة فنون في كلّ بيت).[2]
- المفاتيح القرطاسيّة في شرح الشّقراطيسيّة.
- المفاتيح المرزوقيّة في استخراج رموز الخزْرجيّة.
- المُقنع الشافي (في 1700 بيت) عبارة عن أرجوزة.
- تلخيص المفتاح (أرجوزة).
- تلخيص ابن البنّا (أرجوزة).
- جمل الخونجي (أرجوزة).
- اختصار ألفيّة ابن مالك (أرجوزة).
- نهاية الأمل (في شرح جمل الخونجي).
- اغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة.
- المعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن سراج.
- نور اليقين في شرح أولياء الله المُتّقين.
- النّصح الخالص في الردّ على مُدّعي رتبة الكامل الناقص.
- مختصر الحاوي في الفتاوي.
- الرّوض البهيج في مسألة الخليج.
- أنوار الدّراري في مكرّرات البخاري.

---

[1] - نيل الابتهاج، ص 504- 505.

[2] - تتلخّص السبعة فنون فيما عبّر عنه هو نفسه في أنّها: الغريب، والتّفسير، والمعاني، والبيان، والبديع، والإعراب، وأخيراً الإشارات الصّوفيّة.

-مناقب الوليّ ابراهيم المصمودي.

-تفسير سورة الإخلاص.

-عقيدة أهل التّوحيد المخرجة من ظلمة التّقليد.

-الآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات.

-إسماع الصمّ في إثبات الشرف من قِبَلِ الأمّ.

ثانياً - تآليف غير كاملة (لم يتمكّن من إنهائها)

- المتجر الرّبيحُ والسّعيُ الرّحب الفسيح في شرح الجامع الصّحيح.

- روضة الأديب في شرح التّهذيب.

- المنزع النّبيل في شرح مختصر خليل.

- التّحرير والاستيفاء.

- التّنزيل لألفاظ الكتاب.

- إيضاح المسالك في ألفيّة ابن مالك (انتهى فيه إلى اسم الإشارة والموصول).

ب- قراءة في آثاره

يستنتج الدارس أنّ ابن مرزوق الحفيد ركّز في نتاجه على العلوم النّقليّة فتحدّث بإسهاب عن أكثر من مسألة، وواجه علماء عصره وجادلهم فيما جانبوا فيه التّأويل، ولكنّ هذه الآثار الدينيّة كانت في كثير من الأحيان والمناسبات مطيّة إلى علوم لغويّة، وشروح أدبيّة وبلاغيّة ممّا يندرج تحت فنّ النّقد الأدبيّ؛ ومن هذا المنظور، كان كتابه «إظهار صدق المودّة» الذي انطلق تأليفه من التّعمّق في شرح البردة، حتّى إذا شرع في عمله ألفى شعر البوصيري حافلاً بمصطلحات لابدّ من أن تُشرح وتُفصّل، وقد وزّع شرحَها على سبعة فنون.فهي، في نظره، تشتمل على الغريب من القول، وعلى

معانٍ لغويّة وبلاغيّة، وعلى إشكالاتٍ إعرابيّة، وعلى إشاراتٍ صوفيّة، فالتزم بتناول ذلك كلّه عبر القصيدة الدينيّة الشهيرة، وكان يتناول وحدة منها قد تضمّ بيتين مثلاً، أو يخصّص كلّ هذه الوقفات لبيت واحد فحسب؛ منطلقاً من مطلعها الشهير :

أمـن تـذكّر جيـران بـذي سـلـم   مزجْت دمعاً جـرى مـن مقلة بـدمِ

إلى نهايتها مطبّقاً منهجَهُ الذي ارتضاهُ، وأبان عنه في مقدّمة كتابه.

نموذج نقديّ من كتابه «إظهار صدق المودّة»

إنّ هذا الكتاب، في نظر كثير من الدارسين، يمثّل حلقة هامّة من حلقات الأدب الجزائري ونقده في تلمسان الشامخة، فهو عصارة لثقافات الرجل المختلفة، أو هو اليمّ الذي صبّت فيه مختلف خلفيّاته الفكريّة والمعرفيّة، فهو لم يقتصر على الجانب الأسلوبيّ وحده في نقده، ولم يقف لدى الجانب الجمالي في الجملة الشعريّة، ولم يكتف بإبراز ما تضمّنتهُ البردة من فيْضٍ في السيرة النّبويّة وما صاحبها من معجزات باهرة؛ ولكنّه قرّر مع نفسه أن يطرق هذه القضايا جميعَها، وكان كلّ عنصر، في واقع الأمر، بحثاً مستقلاً مثلما سيتّضح لنا لاحقاً.

على أنّ ما يحزّ في النّفس، ويُحزن القلب، هو إهمال هذا المخطوط الذي كان في الأصل كتاباً أملاهُ ابن مرزوق على تلامذته، ونسخهُ أولئك كي يحقّق الشّهرة التي يستحقّها، ويحظى بالشيوع والانتشار فيَصِل إلى مكتبة كلّ جزائريّ مثقّف، لكن الذي حصل، هو ضياع هذه النُّسخة وانتقالها بين بعض الأماكن مشرقاً ومغرباً، فأهْملت إلى أن تآكلت أو كادت؛ إذ من المثبت تاريخيّاً أنّ (أدريان بيرو) كتب سنة 1836م إلى صديقه وأستاذه

(شامليون فيجياك) يُخبره عن مغامرته في تلمسان ومعسكر لجمْع المخطوطات العربيّة، وقد نجحت خطّته، فنَهَب من تلمسان 200 مخطوط ونقلها إلى فرنسا[1]. فمن هذا الباب، طال تُراثنا تشويهٌ وتخريب، ولم يبْق لنا إلاّ بعض الفُضْلات التي لا تُلبّي حاجة/ ولا تقدّم جديداً للبحث الأدبيّ في الجزائر بعامّة، وتلمسان بخاصّة.

ويعزّ على الباحث المعاصر الآن، أن تتنقّل عيناه بين عناوين هذا الدرّ النّظيم، وهذا الكنز الثمين، ثمّ لا يظفر بقليل منه أو كثير، ولكنْ عزاؤنا أن نتناول ما في أيدينا، ونعمل باستمرار على الوصول إلى مظانّ هذا التّراث فنُزيحَ عنه إهْمالَ السّنين، ونعيد إليه جوهره الجذّاب، ولونه البرّاق.

ج- قراءة في الكتاب

إنّ هدفنا من تناول «إظهار صدق المودّة» يصبو إلى تحقيق شيء من كلّ أولئك، فقد شدّنا الإعجاب بهذا الكتاب إلى أن نعرّف به حتّى ندفع المتلقّي إلى تصفّح مُحْتوياته، ولا أقول دراسته أو التّعمّق في قراءته، لأنّ ذلك لا يتأتّى إلاّ ضمن بحث مطوّل، قد يكون أطروحة جامعيّة، أو مشروع بحث يتقاسم الاهتمامَ فيه فوجٌ من الباحثين، كلّ واحد يعالج محوراً من محاوره الكبرى التي اشتمل عليها.

---

1 - اصطنع هذا المحتال طريقة ملتوية للحصول على مبتغاه، حيث تزيّى بالزّيّ العسكريّ مع الجيش الفرنسي ثم راح يسطو بطرقه الشيطانيّة للحصول على مبتغاه- ينظر: تاريخ الجزائر الثقافي، د. أبو القاسم سعد الله – المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر1981م- 1: 312- 313.

ولكنْ، وقبل مقاربة التعريف به، نرى من الأنسب أن نشرح منهج ابن مرزوق في كتابه المذكور[1]، حيث إنّه كان على دراية بأنّ كلّ ناقدٍ يسعى إلى قراءة نصّ قراءةً واعية؛ لا مناصَ له من أن يتسلّح بمنهج يُبينُ فيه عن فهمه، ويكشف عن إدْراكه، ويتلاءم مع الموضوع المراد الخوضُ فيه، وقد لا يختلف اثنان، بأنّ أيّ ناقد له منهجان : خارجيّ وداخليّ، أو برّاني وجوّانيّ، وكان هذا حال ابن مرزوق الحفيد الذي هيّأ في نفسه كيفيّة الولوج إلى عالم هذا النّصّ، وكانت له دواعٍ دفعتهُ إلى ذلك بطبيعة الحال، ثمّ أقبل على صنوف المعارف التي تزخر بها البردة، فدفعه ذلك إلى أن يعود إلى المظانّ التي تساعده على إنجاز مهمّته من تتْميم لبعض المعاني؛ أو شرح لأسلوب، أو وقوف عند إشارات صوفيّة. ولم يكن ابن مرزوق يفعل ما نقوم به نحن اليوم من عودة للكتب، وإنّما كان يستقي مصادره من أفواه الرجال بصورة مباشرة، على غرار القُدامى جميعاً، أو من مخْزونه الثّقافيّ الذي كان نهراً متجمّداً سرعانَ ما يُرْوي الظّمآن إذا لمستْه أشعّة النّور. فهو لم يُخبرنا بأنّه رجع إلى الكتاب الفلاني، ولكنّه أخبرنا بأنّه روى عن الشيخ...وعن الحافظ...وعن العلاّمة...، وهلمّ جرّاً.

أمّا المنهج الذي ارتضاه وطبّقه على نصّ البردة[2]، فهو المنهج الجواني الذي ينطلق من النّصّ ويعود إليه، وما يمثّل ذلك هو المنهج

---

[1] - تعرّض الدكتور محمد طول إلى كثير من هذه القضايا في كتابه في النقد الأدبيّ الجزائريّ القديم" – دار الغرب للنشر والتوزيع- وهران، د. ط/ د.ت. حيث تناول هذا المخطوط معرّفاً به وبصاحبه، وذاكراً نماذج من نقد الرجل.

- "البردة": صارت أشهر من نار على علم، وعرفت شروحاً متعدّدة، وتقع في 160 بيتاً على الأرجح، نظَمها البوصيري الذي وُلد بقرية (دلاص) إحدى قرى بني سويف من

الفنّيّ بطبيعة الحال؛ وقد عمد الحفيد إلى تحديد خطوات شرحه من البدء، وراح ينجز عمله في ضوئها مُلْتزماً بالتّرتيب الذي ارْتضاه؛ وتتلخّص هذه الخطوات في :

1 – الغريب (البنى الإفراديّة).

2 – التفسير (المعنى).

3- المعاني (التراكيب).

4- البيان (المجاز بأنواعه).

5 – البديع (المحسّنات اللّفظيّة والمعنويّة).

6 – الإعراب.

7 – الإشارات الصوفيّة[1]

وقد نتساءل عن اتّجاه ابن مرزوق الحفيد، والجواب بسيط، وهو أنّ القرن الذي عاش فيه هذا الناقد كان عصراً ذهبيّاً في النّقد الأدبيّ في تلمسان وغيرها من الأقطار المغاربيّة إلى درجة أنّ أصحابها استطاعوا أن يهيّئوا لأنفسهم خصوصيّة تختلف عن النقد المشرقي الذي كان سائداً مختلف الأقطار العربيّة[2].

ولقد كان ابن مرزوق منهجيّاً بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فهو قد أبان في مقدّمة كتابه المذكور عمّا دعاه إلى تأليفه،

صعيد مصر في أول شوال من عام 608هـ (7مارس 1213م) لأسرة ترجع أصولها لقبيلة صنهاجة المغربيّة، وتوفّي بالإسكندريّة سنة 695هـ (1295م).[2]

[1] - إظهار صدق المودّة، المقدّمة / عن "في النقد الأدبي الجزائري القديم"، د. محمد طول، ص 111- 112.

[2] - بالإضافة إلى ابن مرزوق، كان من شيوخ هذه المدرسة حازم القرطاجني (منهاج البلغاء وسراج الأدباء)، وابن البنّاء المراكشي (الروض المريع في تجنيس أسليب البديع)، وابن خلدون في مقدمته، وهلمّ جرّاً....

وأوضح ماذا سيعالج فيه، وما هي المراحل التي يقطعها لإيصال آرائه المختلفة إلى المتلقّي؛ مبيّناً إيّاها واحدة تلو الأخرى؛ منطلقاً من ذوقه الفنّيّ أو منهجه الداخليّ؛ وإن كان قد أعدّ توطئة في ذهنه لتتكامل مع منهجه المذكور؛ وحتّى لا يظلّ قولنا ضبابيّاً مُبهماً؛ نورد ما قاله في مقدّمته، وهو يستفتح حديثه عن العلّة من وراء التّأليف إلى طلب بعض أصدقائه؛ وهي شيمة القُدامى غالياً في مؤلّفاتهم المختلفة، ولاسيّما الأدبيّة منها؛ يقول :

«دعاني بعض إخواني من الأصحاب إلى التكلّم عمّا في القصيدة منْ لُباب البديع والإعراب، فأجبْتُه إلى ذلك، ووضعْتُ فيه مجموعاً سمّيْتُه (الاستيعاب) فوقع من الإخوان لفضلهم موقع التّعظيم والتّبجيل، فاستدعوا منّي أن أضمّ لذلك التّكلّم عليها بالشرح ليقع التّكميل، فوضعت عليها شرحاً يذلّل من اللّفظ صِعابه، ويحطّ عن وجه المعنى نقابه»[1].

ثمّ يكشف بعد ذلك عن إفادته من السابقين عليه، وكيف أنّهم فتحوا ذهنه على قضايا ذات صلة بشرح نصّه بلاغيّاً ولُغويّاً ونحويّاً[2].بيد أنّ ابن مرزوق أضاف إلى طريقتهم في تناول النصوص الشعريّة تنظيراً لكلّ ما يزمع على تطبيقه، فكان عالماً متمكّناً من مادّته، ثابتاً في آرائه.

---

1 - إظهار صدق المودّة، المقدّمة، ص 2.

2 - مثل هذه الطريقة نلفيها لدى القدامى على غرار الزوزني في شرح المعلّقات السبع، وحماسة البحتري، وغيرهما.

نموذج من عمله في الكتاب :

إنّ دراسة هذا الكتاب شموليّاً يتطلّب وجوده بين يدي الدارس، وبما أنّ غيابه هو الذي يطبع عملنا؛ فقد ارتأينا أن نقتصر على نمْذجة بيتين اثنين اتّكاءً على من له فضل السبق[1] في التعرض لهذا الرجل العبقريّ؛ والبيتان المعنيّان هما افتتاحيّة لقصيدة البردة في قوله :

أمن تذكّرِ جيرانٍ بذي سلَمِ مزَجْتَ دمْعاً جرى منْ مُقلةٍ بدَمِ
أم هبَّتِ الريحُ من تِلْقاءِ كاظمةٍ وأوْمَضَ البرقُ في الظّلْماء منْ إضَمِ

ولنتْقفْ منهج ابن مرزوق الذي قرّر من أوّل الأمر أنّه سيتناول ثمانية أصناف من هذا النّصّ بالترتيب مبتدئاً إيّاها بالغريب، ومختتمَها بالإشارات الصوفية.

ومن أوّل وهلة، يبدو للمتلقّي أنّ إلزامه نفسه باسْتمراء كلّ أولئك من بيت أو بيتين سيكون عليه عسيرا ؛ غير أنّ ابن مرزوق لم تُثبّطه هذه العقبات أوْ تحُلْ دون عزيمته على ما أبان عنه من قبل؛ فأفاض في كلّ مرحلة وفصّل وأطال؛ كاشفاً عن موهبة فذّة، وعن خلفيّات ثقافيّة أثْرت كتابته، وأكملت موسوعيّته. ولذلك لن نلتزم بإيراد كلّ ما علّق به أو دقّق في تبيينه، وإنّما ننقل موجزاً لكلّ أولئك حتّى لا تخرج هذه المداخلة عن هدفها، فتتحوّل بدورها إلى بحث مطوّل.

---

[1] - هنالك أسماء أسهمت في التعريف بهذا الكتاب من المعاصرين من أمثال: الزّركلي في الأعلام، وعادل نويهض في أعلام الجزائر، والسّيوطي في بغية الوعاة، وعبد الرحمن الجيلالي في تاريخه، وسعد الله في تاريخ الجزائر الثّقافي، وغيرهم...كما أنّنا استعنا ببعض المواقع الإلكترونيّة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، ولكنّنا نستأنس بها على أمل تملّك هذا المخطوط قريباً إنشاء الله، فتكون الرؤية أفضل، والأحكام أشمل.

ومثلما أبنّا عنه آنفاً، فإنّ ابن مرزوق الحفيد حدّد معالجته لنصّ البردة في ثماني مراحل سار عليها ملتزماً بالترتيب الذي حدّده من قبل[1]. ونحن هنا لن نشوّش منهج ابن مرزوق أو نتصرّف فيه فنقدّم ما حقّه التقديم، أو نُنْسئَ ما حقّهُ التّأخير؛ وإنّما سنسلك السبيل الذي عبّده لإيصال ما رام أن يوصله إلى المتلقّي؛ وسننقل هنا شرحه بحذافيره لنأخذ نظرة عن عمله الجليل في هذا الكتاب :

1 – الغريب :

«**التذكّر** : مصدر تذكّرَ، تفعّل من الذّكر، وله معانٍ، وهو هنا ضدّ النّسيان، قال الله تعالى : (وما أنْسانيهِ إلاّ الشّيْطانُ أنَ اذْكُرَهُ)[2]. وفُسِّر بالحفظ أيضا لأنّه ضدّ النّسيان، ويُقال ذكرَ، وذِكرى (غير منون) وذكره. وليكنْ على ذكْر منك بكسر الذّال وضمّها؛ أي : لا تنْسَه، وذكرتُ الشيء بعد النّسيان، وذكرتهُ وذكر بمعنى، ومنه (وادّكَرَ بعْدَ أُمّةٍ)[3] أي : ذكر بعد نسيان، كذا فسّره الجوهريّ؛ أصله : إذْتكرَ؛ أُبدِلَت التاء دالاً وأُدْغِمت فيها الدال بعد إهمالها».

ويمضي في تشريح هذه البنية اللفظيّة رابطاً معناها بما يصدر عن الفكر الذي هو بدوره متّصل بالدّماغ، كما أنّه يشعّب المفهوم حتّى يصل به إلى معانٍ فلسفيّة عقليّة، لينتقل بعدها إلى لفظة "جيران" فيقول : «والجيران : فعلان، بكسر الفاء وسكون العين، جمع جار، وهو جمع كثرة، شائع في المعتلّ العين، كنار ونيران، وقاعٍ وقيعان، وقد جُمع على جيرة (...) وأصل جار "جَوَر" قلبت الواو

---

1 - تراجع ص 16 من هذا البحث.

2 - سورة الكهف، الآية 63.

3 - سورة يوسف، الآية 45.

ألفاً لتحرّكها بعد فتحة، وهو مَنْ قربت داره من دارك، **وهذا معناه** هنا (...) وذو سلم : موضع بين مكّة والمدينة. والمزج : **الخلْط**، ومزجت : خلطت. وقيل الخلْطُ أعمّ، لأنّه يكون فيما لا يصير بعد الخلْط حقيقة واحدة (...) **والدّمع** : ماء مالح يخرج من العين، فإن كان لفرح كان بارداً وإن كان لحزن كان ساخناً(...) ».

ويسترسل ابن مرزوق في الحديث عن الدمع ومسبّباته النّفسيّة والفيزيولوجيّة مفصّلاً القيل، مطيلاً التّمثيل؛ قبل أن يعرض صفات الدمع ومراتبه ليخلص إلى الحديث عن لفظة "المقلة" قائلاً :

«**والمقلة** : شحْمة العين التي تجمع السواد والبياض، وفي المقلة : الحدقة، وهي السّواد الذي في وسط العين، وجمعه حَدَق وحِداق. وفي الحدقة النّاظر والإنسان، وهو موضع البصر منها الذي تراه كأنّه صورة وليس بخلق مخلوق (...) **والدّم** : معروف، وهو أحد الأمشاج الأربعة التي خُلِق منها الجسم (...) وأصله "دَمَوٌ" بالتّحريك، حُذفت لامُه على غير قياس، وقُلِبت الواو ياءً (...) وهبّت الريح : هُبوباً وهبيباً؛ أي هاجت. قال الجوهري : والهبْوة[1] التي تثير الغبرة، وكذلك الهبوب والهبيب».

ويستعرض، كدأبه، أنواع الرياح وأسماءها مازجاً ذلك بالمشاهدة وبآراء المفسّرين الدّينيّين والعلماء اللّغويّين؛ فيقول :

«**وتلقاء**، قال الجوهري : جلس تلقاءه، أي حذاءه. والمعنى في البيت : من قرب أو من ناحية. وكاظمة : موضع، قاله الجوهري : وقال غيره : اسم ماء. وماء كاظمة : ملح صلب يصلح عليه الحديد،

---

[1] - الريح.

وكاظمة : من مياه بني شيبان (...) **وأومض البرق إيماضاً** : لمع خفيّاً. وكذلك وَمَضَ يَمِضُ ومْضاً ووَميضاً ووَمضاناً. وهذا إنْ لم يعترض في نواحي الغيم، فإن اعترض فيها ولمع فهو الخفيّ، فإن استطال في وسط السماء وشقّ الغيم ولم يعترض يميناً ولا شمالاً فهو العقيقة».

إلى غير ما يتناوله في توضيح معاني ألفاظ البيتين المذكورين، مع وقوفه عند آراء اللّغويّين والصّرفيّين، وما قيل عنها في كتب التفسير، وما ذهب إليه أهل السّنّة بشأن الرّعد والبرق، فهو لا يستنْكِف من التّفصيل، ولا يسأم من التّطويل، بل يثبت ما قاله غيره قبل أن يستقرّ على رأيه الشّخصيّ في المعنى المناسب للكلمة التي وقف عندها شارحاً أو مؤوّلاً.

2- التّفسير :

أمّا فيما سمّاه "التفسير" تناصّاً مع ما هو متداول في الشريعة الإسلاميّة، فإنّه يفصّل ويؤوّل ويستشهد بأبيات شعريّة تؤيّد رأيه، وتزيد تفسيره تجليةً وتفصيلاً فيقول : «معنى البيتين : أنّ النّاظم نزّل نفسَهُ منزلة مخاطَب يخاطبه لمّا رآه باكياً قد امتزج دمْع عينه بالدّم، فاستفهمه عن سبب بكائه على الوجه المذكور : أهو من أجل تذكّر جيران بذي سَلَم؟ أو جاروك بذي سلم؟ أم هو من أجل أنْ هبّت الرّيح من ناحية كاظمة، ومن أجل لمع البرق خفيّاً في الظّلام من ناحية إِضَم بذكْراك أحبابك من أهل الموضعين؟ أعني : كاظمة وإضم (...) قال الشاعر :

أمُـرُّ علـى الـدّيارِ دِيـارِ ليْلـى   أُقبّـلُ ذا الجِـدارَ وذا الجِـدارا
ومـا حـبُّ الـدّيار شَـغَفْنَ قلْـبي   ولكـنْ حُـبُّ مَـنْ سَـكَنَ الدّيارا

(...) ويدلّ على أنّه خاطب نفسه قوله بعد هذا :

نعَمْ، سرَى طيفُ منْ أهْوى فأرّقني

إلى قوله : ظلمتُ سُنّة، .....وقوله : **أستغفر الله (...) ويُحتمَلُ أن** يكون الناظم تخيّل إنساناً بصفة ما ذكر فخاطبَهُ. قال بعضهم : وهذا المعنى لا تكلّف فيه بخلاف الأول. قلت : والصّواب العكس عند منْ غُذّيَ بلُبابِ الأدب، وارْتشف الضّرب من لسان العرب بالعودة إلى الإخبار عن نفسه كما تقدّم؛ إلاّ أن يُقال إنّه على حذْف القول؛ أيْ قال في المخاطب : **نَعَمْ سرى**، وفيه من التّكلّف والخروج عن المَهْيَع ما لا يخفى (...) وفي قوله "مزجت" على هذا التفات، وحقيقته : سواء جعل من علم المعاني أو من علم البديع، نقْل كلام من المتكلّم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، سواء نقل بعد ذكره أو كان مقتضى الظّاهر ذكره، فعدل عنه إلى غيره. هذا رأي السّكاكي. وهو عند الجمهور : نقْل ما ذكر من الثّلاثة إلى آخر منها، وما عبّر به أوّلاً فليس بالْتفات، ولو اقتضى المقام غيره، فكلّ التفات عندهم، التفات عند السّكاكي، ولا عكس. ففي قول امرئ القيس :

تَطـــاوَلَ ليْلُـــكَ بالإثْمِــدِ ونـــامَ الخَلــيّ ولم تَرْقُــدِ[1]
وبـــاتَ وباتَـــتْ لـــه ليلـــةٌ كليْلَـــة ذي العـــائرِ الأرْمَــدِ[2]
وذلـــك مـــنْ نَبَـــأٍ جـــاءني وخُبّرْتُـــهُ عـــنْ أبـــي الأسـود[3]

---

1 ـ الخليّ: الخالي من الهموم/ الإثْمد : موضع بعينه.

2 ـ باتتْ له ليلةٌ ـ أراد: وبات في ليلة ، فنسب الفعل إلى اللّيل على المجاز العقليّ / العائر (هنا): الوجع في العين/ الأرمد: الذي فيه رمَد (وفي البيت التفات من الغائب في قوله: وبات).

3 ـ أبو الأسود: رجل من كِنانة، هجا امرأ القيس (وفي البيت التفات من الغائب/ وبات إلى المتكلّم: جاءني.

ـ ديوان امرئ القيس، دار بيروت للطّباعة والنّشر ، بيروت ـ د.ط/ د.ت ـ ص 84.

ثلاثة التفاتات عند السكاكي، واثنان عند الجمهور، أوّلها على الأوّل "ليلك" فإنّ مقتضى الظّاهر : ليلي، وعلى الثاني : "جاء بي" (...) وأقسام الالتفات ستّة مذكورة في علم البيان، ويسمّى أيضاً : تلو الخطاب. وفائدته : تنشيط النفس لاستلذاذها بلون جديد؛ وهو في البيت من التّكلّم إلى الخطاب، لأنّ الأصل مزجْت، نحو(إنّا أَعْطَيْناكَ الكوثرَ فصَلِّ لِرَبِّكَ)[1] ، أي لنا. وأمّا على احتمال أن خطبَ إنساناً فيصبح على معنى التجريد (...) وفائدة الالتفات أو مخاطبة الإنسان نفسه، أو تجريد، إمّا أن يكون وبّخ نفسه على البكاء المفرط وقلّة الصّبر كفعْل الكرام، ومنه "تطاول ليْلك" أو حرّضها على الازدياد منه؛ إذْ هو راحة المكروب لاسيّما المُحِبّ، ومنه قول أبي الطيّب :

لا خيْلَ عندَكَ تُهْديها ولا مالُ   فلْيُسْعد النّطقُ إنْ لمْ يسْعدِ الْحالُ

واجْزِ الأميرَ الذي نُعْماهُ فاجئةٌ   بغيْرِ قوْل، ونُعَمى القومِ[2]

حرّض على مدح الأمير، ونصحها لتتْرك ما هي فيه، خوفاً من تفطّن الوُشاة لقوله بعد هذا :

أيحسب الصّبّ..................................البيت

أو خوّف تلك النّفس، ومنه قول أبي الإطنابة :

أقولُ لها وقدْ جشأتْ وجاشتْ   مكانك تحمدي أو تستريحي[3]

---

[1] - سورة الكوثر، الآيتان: 1، 2.

[2] ـ ديوان المتنبي ـ شرح العكبري ـ تحقيق: مصطفى السّقا وصاحباه دار الفكر للنشر والتوزيع ـ بيروت، ط1/ 1418هـ ـ (1997م) ـ ج3 ص 276 ـ 277.

[3] ـ هناك خلاف حتى في إيراد الاستشهاد، حيث إنّ ابن وهب الكاتب يورد بيتين آخرين هما :

فإنّه لمّا وطّن نفسه على احتمال المكروه جرّدها وخاطبها نُصحاً، وهذا البيت ثبّت معاوية يوم صفّين بعد أن كاد يضطرب[1]. وهو في الأحوال كلّها مخاطب بالاستفهام عن سبب مزج الدّموع بالدّم (...) ويحتمل كلام النّاظم وجوهاً كثيرة من التقريرات غير ما ذكر، يطول تتبُّعُها لاسيّما على احتمال التجريد.

ويحتمل الخطاب في **مزجت** أن يكون من الخطاب العام، وهو ما يخاطب به غير معيّن ممّن اتّصف بمثْل صفة هذا المخاطب للإيذان، فإنّ الأمر لعظمه لا يختصّ به واحد دون آخر، كقول الأعشى :

إذا أنتَ لم ترحل بزاد من التُقى ولاقيْت بعد الْموتِ منْ قد تزوّدا

ندِمْتَ على أنْ لا تكونَ كمِثْلِهِ وأنّك لم تُرْصِد كما كانَ أرْصدا[2]

أبت لي همّتي وأبى علائي وكسْبي الحمدَ بالثّمن الرّبيح

وإجشامي على المكروه نفْعي وضربي هامةَ البطلِ المشيح

ينظر: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: محمد حفني شرف، مكتبة الشّباب - القاهرة 1969م، ص 162.

[1] - لعلّ أنّ هذه الرّواية تحمل من الأسطورة المضحكة ما لا قِبَل لأحد بقبوله، ومثل هذه ما ورد في سيرة المتنبّي من أنّه حينما هاجمه اللّصوص أراد الفرار من وجوههم، فقال له خادمه (مفلح): أولست أنت القائل: الخيلُ واللّيلُ والبيداءُ تعرفني والسّيفُ والرُّمْحُ والقِرْطاسُ والقلمُ

فقال له: قتلتني، قتلك الله. وراح يقاتل حتّى قُتل .!!

[2] - ديوان الأعشى الأكبر (ميمون بن قيس) شرحه وقدّم له: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلميّة - بيروت (لبنان) ط2/1413هـ (1993م) - ص 50 - 51، ومطلع القصيدة : ألم تَغْتَمض عيناكَ ليلةَ أرْمدا وعادَكَ ما عادَ السّليمَ المُسَهّدا

وفي التنزيل : (ولوْ ترى إذِ المُجْرِمونَ...)[1] أي : تناهت حالُهُم في الظّهور حتّى لا يختصّ بها مخاطب، بلْ كلّ منْ يتأتّى منه الرّؤية.... ».

ويُتابع الحديث عمّا أطلق عليه "التفسير" في تفصيل مطوّل؛ لاجئاً إلى الاستشهادات الكثيرة بآياتٍ قرآنية كريمة، وأحاديث نبويّة وأبياتٍ شعريّة لكلّ من امرئ القيس وذي الرّمّة، وكثيّر، والعماد الأصفهاني، وأبي القاسم بن عامل القائم بأمر الله، والمرتضى، وابن الرّوميّ. كما وظّف أبياتاً أخرى قال إنّها لبعض الأعراب ذكوراً وإناثاً، ونقل أقوالاً نثريّة لبعض النّقّاد والحكماء على غرار أبي عمرو بن العلاء.

3 – المعاني :

«وفي قوله مزَجْتَ : الالتفات على رأْي من جعله من هذا الفنّ، وعلى رأي من رآه من البديع، ينبّه عليه في ترجمته، أو يُقال فيه الخطاب العامّ، وهو أيضاً على الرّأيَيْن، وفيه الإسناد المجازي، فإنّ المخاطب لم يخرج الدّمع بالدّم، بل فعل سببه، وهو البكاء، فهو نحو : بنَى الأمير المدينة. ولقائل أن يقول : ليس مثل هذا السبب بالذي يخرج الإسناد عن كوْنه حقيقة بحسب اللّغة، وهذا هو الظّاهر. والتّنكير في جيران وفي دمعاً وفي مقلة وفي دم : إمّا للتّعظيم، وإمّا للنّوعيّة (...) ووحّد الريح ولم يجمعها، لأنّه تهيج عليه الأحزان، لأنّهم قالوا : الرّياح وردت في القرآن في الخير، والريح في ضدّه...»).

4 – البيان :

ممّا نبّه عليه الدّارسون لابن مرزوق قبلنا[1] ، أنّ الرّجل لم يطبّق المنهج الذي التزم به بحذافيره، حيث إنّه لم يتطرّق إلى هذه الخاصيّة

---

1 – سورة السجدة، الآية 12.

في البيتين المثبتين قبلئذ، وذلكم ما جعلهم ينتقلون إلى البيتين الرابع والخامس كي تكتمل الصورة لدى المتلقّي عن منهج ابن مرزوق في شرحه لهذه الخاصيّة في البيتين الآتييْن :

فما لِعينيْكَ إنْ قُلْتَ اكْفُفا هَمَتا وما لِقَلْبِكَ إنْ قُلْتَ اسْتَفِقْ يَهِمِ
أيَحْسِبُ الصَّبُّ أنّ الحبَّ مُنْكَتِمٌ ما بيْنَ مُنْسَجِمٍ منهُ ومُضْطَرِمِ

«في البيت الأوّل : تشْبيه العينيْن بباكييْن، وتنْزيلهما منزلة مخاطبين يعْقلان الخِطاب، لأنّ إدراك الْعَيْنَين أظهر من إدْراك سائر الجوارح، فكأنّهُما الذّات، ولذا، يُقال جاء فلان عينُهُ ؛ أي ذاتُهُ. وتشبيه القلب بمخاطب، ووجه التّشبيه فيه أظهر، فإنّهُ الْمِلكُ كما تقدّم. وفي الصحيح : «ألا وإنّ في الجسد مضغة»، الحديث[2]. وفيه المجاز المرسل على رأي من فسّر "إن قلت" بأن أردْت، وتقدّم ما فيه. وفي البيت الثاني : مجاز الحذف : أي : من دَمْعه، نحو : (واسْألِ الْقَرْيَةَ)[3]، وفيه الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل، فإنّ التّقدير : ومضطرم منه، نحو : (والذّاكرينَ اللّهَ كثيراً والذّاكِراتِ)[4] أي : كثيراً.».

ونعود لتتمّة الشرح الذي خصّصه ابن مرزوق للبيتين الأوّليْن، بعد أن قطعنا الصّلة بهما في عنصر "البيان" للتّعلّة التي أبنّا عنها؛ يقول في الحديث عن البديع :

---

1 - يراجع: في النقد الأدبيّ الجزائريّ القديم: د. محمد طول، ص 172 مثلاً.

2 - والحديث كاملاً هو: "ألا وإنّ في الجسد مُضْغةً إذا صلَحتْ صلَح الجسد كلُّه ألا وهي القلب" - أخرجه البخاري - رقم الحديث:50 - (كتاب الإيمان)، ورواه النّعمان بن بشير.

3 - سورة يوسف، الآية 82.

4 - سورة الأحزاب، الآية: 35.

«في البيت الأوّل : التّجنيس الناقص في دمع ودم لاختلافهما بزيادة حرف العين، وحقيقة هذا اللّقب ألاّ تختلف الكلمتان إلاّ في أعْداد الحروف، فقد يكون النّقص من أوّل، نحو : (بِالسّاقِ إلى ربِّكَ يومئذٍ المْساقُ)[1] أو من الوسط، نحو : جدي، جهدي، أو من الآخر، نحو :

يمدّون مِنْ أَيْدٍ عواصٍ عواصِمٍ تَصولُ بِأَسْيافٍ قَواضٍ[2]

فإن قلت : دم خالف أيضا بحركة؛ قلت الظّاهر أنّهم اغْتفروا مثل ذلك (...) وفيه التّجنيس الشّبيه بالاشتقاق في الجيران وجَرَى؛ وهو أن تشتبه الكلمتان في الحروف، ولا يجمعهما اشتقاق ؛ نحو : (إِلى الأرْضِ أَرَضيتُمْ)[3]. وهو أيضاً في البيت الثاني في قوله : **إضم، وأوْمَضَ**....».

ويمضي ابن مرزوق في شروحه التّفصيليّة عن البديع، ويطيل القول في ذلك متعرّضاً إلى بعض الأوجه الشّبيهة بشرحه عبْر ما يستشهد به من آيات قرآنيّة أو أبيات شعريّة كديْدنه في مختلف ما تناوله في الخصائص السّابقة قبل هذه فيقول : «وفيه أيضاً براعة الاستهلال، ويُسمّى : براعة المطلع، وحسْن الابتداء، وهو أن يؤتى في أوّل القصيدة أو الرّسالة أو الخطبة بما يدلّ على مقصود المتكلّم مع سهولة اللّفظ وصحّة السّبْك ووضوح المعنى، وتجنّب الحشو، ورقّة التّشْبيب في الشّعر وتناسُب القسميْن، وألاّ يكون البيت متعلّقاً بما بَعْده. وهذا المقام من المواضع التي ينبغي للمتكلّم أن يتأنّق فيها، لأنّ الابتداء إذا كان حسناً أقبل السّامع على ما بعده، وإلاّ مجّهُ (...) وفي

---

1 - سورة القيامة، الآيتان: 29- 30.

2 - البيت لأبي تمّام، وهو من قصيدته التي مطلعها: على مِثْلِها منْ أرْبُعٍ وملاعبٍ أُذيلت مصوناتُ الدُّموع السّواكبِ

3 - سورة التوبة، جزء من الآية 38.

البيت الثاني : مراعاة النّظير، ويسمّى بالتّناسب والائتلاف والتّوفيق، وهو الجمع بين أمر وما يناسبه بالتّضادّ، نحو : (الشَّمْسُ والقمرُ بِحُسْبانٍ. والنّجمُ والشّجَرُ يَسْجُدانِ)[1] ، ومنه قول ابن رشيق :

أصَحُّ وأَقْوى ما سَمِعْنا في النّدى ... من الخَبَرِ المأثور منذُ قديمِ
أحاديثُ تَرْويها السّيولُ عنِ الحيا ... عن البحر، عن كفّ الأمير تميمِ[2]

فجمع فيه بين الصّحّة والقوّة والسّماع والخبر المأثور والأحاديث، وهذه كلّها متناسبة، ثمّ السيل والحيا والبحر وكفّ تميم. وهو هنا جمعه بين الريح والبرق والظّلماء، ولا يبعد تقديره في ألفاظ البيت الأوّل.».

«(...) قال بعضهم : وفي قوله : من مقلة حشو، لأنّ الدّمع لا يجري إلاّ منها، وأتى به للوزن لا لمعنى غيره...».

6 – الإعراب :

وفي هذه الخاصيّة يتعرّض لإعراب البيتين، على غرار ما صنع الزوزني في شرح المعلّقات[3]، بيد أنّ أبن مرزوق الحفيد يتميّز من الزوزني في كونه يفصّل الإعراب، ويأتي على كلّ ألفاظ البيتين؛ متحدّثاً عن التّقديرات والمحذوفات، ومؤوّلاً ما يراه ألصق بالمعنى، وأدنى إلى الواقع من حيث المدلول؛ يقول :

«تحتمل الهمزة الاستفهام المحض والتّقرير، إنْ جُعِلت أمْ إضراب انتقال لا إبطال على رأي بعضهم ويدلّ عليه تعيين الموضعين، وهي للتّعجّب. قال، والمعنى : أنّه تعجّب من تذكّره سبباً. ويحتمل

---

1 - سورة الرّحمن، الآيتان: 5، 6.

2 - ديوان ابن رشيق - جمعه وحقّقه وشرحه: د. محيي الدين ديب، المكتبة العصريّة، بيروت 1418هـ (1998م) - ص 131.

3 - ينظر "نظريّة القراءة"، محمد مرتاض (مخطوط).

الإنكار والتّوبيخ : لقوله بعد : (أيحسب الصّبّ) و(لولا الهوى). و(من تذكّر) : جار ومجرور، وجيران مضاف إليه، وهو منصوب المحلّ من إضافة المصدر إلى المفعول. والفاعل : ضمير المخاطب، وهو محذوف أو مستتر على الرّأيين. و(منْ) : للتّعليل، متعلّقة بـ (مزجت). ولما كان المستفهم أو المقرّر أو المنكر هو موجب المزج أوْلاهُ الهمزة، لأنّ همزة الاستفهام أو ما في حكمها لا يليها إلاّ المستفهم عنه أوْ ما في حكمه، فإن استفهمت عن الفعل قلت : أضربت زيداً وعن المفعول قلت : أزيْداً ضَربْتَ ؟ (...) وبذي سلم : الباء ظرفيّة، وهو صفة لجيران، وعامله محذوف وجوباً : أي : كائنين. ووقع في شرح شيخنا أبي العبّاس القصّار التّونسي (رحمه الله) في هذا ما نصّه : المحلّ المجرور إن تعلّق بظاهر لا محلّ له من الإعراب، ويوجد مثله كثيراً له ولابن السيد شارح أبيات الجمل في شرحه المذكور؛ أي : لا محلّ له منتقلاً؛ وإلاّ فتظافرت نصوص المعربين والنّحويين أنّ محلّه النّصْب. ولا يصحّ تعلق (بذي سلم) (بتذكّر) ولا بِـ (مَزجْتَ) لأنّ المعنى يأْباه (...) ودمعا : مفعول لمزجْت. ومن مقلة : متعلّق بـ (جرى)، وينازعه فيه مزجت، فيعمل مزجت في ضميره؛ أي : مزجْت دمعاً به (...) والباء في (بدم) : للمصاحبة ؛ أي : مع دمع أو للإلصاق، وجملة (جرى) وما تعلّق به صفة لدمع، ويصحّ أن يكون (بدم) حالاً من دمع لوصفه بالجملة، أيْ كائناً أو جارياً (...) و(من تلقاء) : متعلّق بمهبّ. و(مَنْ) : لابتداء الغاية المكانيّة، ويحتمل أن يكون حالاً من الرّيح، وأومض : معطوف على هبّت... ».

7 – العَروض :

يقف عند هذه النّقطة محاولاً تأويل تسْمية البحور.فالبسيط : سُمّي كذلك لانبساطه عن الطّويل والمديد، مثلما ذكر الأخفش، أو

لانبساط الأسباب في أوائل أجزائه السُّباعية مثلما فهم الزّجّاج؛ مُضيفاً بعد ذلك من شخصيّته وخلفيّاته الثّقافية إضافات توضيحيّة؛ يقول :

«....هذه القصيدة من البحر المسمّى بالبسيط، وسُمّي بسيطاً لانبساطه عن مدى الطّويل والمديد، فجاء وسطه (فعلن) وآخره (فعلن).حكاه الأخفش عن الخليل، وقيل لانبساط الأسباب في أوائل أجزائه السُّباعيّة، قاله الزّجاج (...) إلاّ أنّ الجزء الأوّل من البيت الأوّل في كلام النّاظم مخبون لأنّه حذف ثانية السّاكن.

ويجوز في هذا البحر من الزّحاف : الخبن والخبل. فالخبن : تقدّم. والطّيّ : حذْف الرابع السّاكن من (مستفعلن). والخبل : اجتماعهما. فالخبن : يصير فاعلن (فعلن) ومستفعلن (مفاعلن) كما في جزء النّاظم. وهو حسن، لاسيّما في الخماسي، لاعتماده على الوْتد بعده، والطّيّ : يصير مستفعلن (مفتعلن) وهو صالح، والخبل : يصير مستفعلن (متعلن) فنقل في الوزن إلى (فعلتن). وفي البيت الأوّل (التّصريع)، وحقيقته في علْم العروض أو توافق العروض في الشّيء الذي يختصّ بالضّرب. وقسّمه ابن الأثير في كتابه (المثل السائر) إلى سبعة أقسام باصطلاح آخر، وأنّ هذا الذّي عند النّاظم هو السادس، ويسمّى (التّصريع المعلّق) وهو أن يكون المصراع الأوّل معلّقا على صفة يأتي كرها في أوّل الثاني. قال : وهو معيب جداً.....».

8 – الإشارات الصوفيّة :

وهذه الخصوصيّة : لا نعلم أحداً من الشّارحين لقصائد مدح الرّسول (صلّى الله عليه وسلّم) قد سبق إليها، لكنْ إذا عُرِف السّبب بَطَلَ العجب كما يُقال، فابن مرزوق الحفيد عالم جليل، انغمس في التّعلّق بالله سبحانه وتعالى، وذاب صبابة في حبّ الرّسول

(صلّى الله عليه وسلّم) وأقبل على أعمال البرّ والصّلاح، فارتقى في روحانيّته، وتسامى في رؤاه، واخترق حاجب الولاية فانصاعت له نظراً لزهده وإخْلاصه وصدقه، ولذلك استنبط من البُردة إشاراتٍ صوفيّةً مهيبة، لا يُدرك كنهها إلاّ من رُزِق قلباً خاشعاً وفكراً واعياً، فعبّر ابن مرزوق عمّا أجّج عاطفته، وزلزل وجدانه، فقال :

«فتح الله بصائرنا لمعرفة ما أُريد بنا، وللعمل بما علمنا بمنّه وفضله. اعلم، رحمك الله، من المحتمل أن يكون أجْرى اللهُ على لسان هذا النّاظم الابتداء بذكر البُكاء والاستفهام عن موجب مزْج الدّمع بالدّم لا عن المزج، لأنّ المزج مستحقّ الكينونة، ولا ينبغي أن يكون عن الاتّصاف به بينونة، فإنّ الله سبحانه وتعالى لمّا أخبر عن كيفيّة خلْق الموجودات قدّم في الذّكر ما هو أعظم المصيبات، ممّا سُكِبَتْ من أجل حلوله العبرات، وهو الموت الذي لابدّ منه، والذي لا محيدَ لمخلوقٍ ذي روح عنه، فقال تعالى : (لِيَبْلُوَكُمُ أَيُّكُمُ أَحْسَنُ عملاً)[1]. فمِنْ أعلمِ أوّلِ كلِّ شيءٍ أنّ الموت مخلوق له، وحلوله به لا مردّ له. فكيف يلَذّ قراراً، أم كيف يضحك سرّاً وجهاراً. وليت إذْ كان الموتُ لم يكن سواه، ولا أهوالٌ ومحاسبات، يكون بعدها للمرء في إحدى الدّاريْن مثْواه؛ فقال :

ولـــو أنّـــا إذا مِتْـــا تُرِكْنـــا   لكـان الْمـوتُ راحـة كلّ حيٍ
ولكِنّـــا إذا مِتْـــا نُـــشِرْنا   ونُـسْأَلُ بعْـدها عـن كُلِّ شيٍ

---

[1] - سورة الملك، الآية 2.

قال الله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أحْسَنُ عملاً)[1]. ولا يخفى أنّ الابتلاء للمجازاة. وروينا من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : «لوْ تعلمون ما أعلمُ لضحِكْتُم قليلاً ولَبَكيْتُم كثيراً»[2]، وفي بعض الرّوايات : «وما تلذّذتُم بالنّساء على الفُرُشِ، ولخرجْتُم إلى الصّعدات تجْأرونَ إلى الله »[3]. ويُرْوى أنّه (صلّى الله عليه وسلّم) قال بإثر هذا : «يا ليتني كنت شجرة تُعْضدُ» ورفعه بعضهم. قال الله تعالى : (فلْيضحْكوا قليلا ولْيَبْكوا كثيراً)[4].وفي حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) قال : «لا يدخل النّارَ منْ بكى من خشية الله حتّى يلج اللّبن في الضّرع، ولا يجتمعُ غبار في سبيل الله ودخان جهنّم في مِنْخَرَيْ عبدٍ أبداً»[5]. وكفى بهذا دليلاً على الرغبة في اسْتدامة البكاء والحزن، وموجب البكاء خوف الله أن يحلّ به مكْروه أو يفوت محبوب. ويحتمل أن يكون تنبيه الله تعالى إيّاك ببكاء الناظم من أجل تذكّر جيران بذي سلم، أن تبكي خوفاً ألاّ تكون مجاوراً لأهل الجنّة فيها، لأنّهم الكائنون بذي سلم، فإنّ الجنّة دار السّلام، (واللّهُ يدْعُو إلى دار السّلام)[6]، (تحيَّتُهُم فيها سلامٌ)[7]، (سلامٌ عليْكُمْ بِما

---

1 - سورة الملك، الآية 2.
2 - أخرجه البخاري في صحيحه - رقم:425 - رواه أنس بن مالك.
3 - سنن النّسائي والتّرمذي وابن ماجه (كتاب الجهاد).
4 - سورة التوبة، الآية 82.
5 - سنن النسائي، والترمذي، وابن ماجة، (الجهاد).
6 - سورة يونس، الآية 25.
7 - سورة إبراهيم، الآية 23.

صبَرْتُمْ)[1]، (....) وأمّا البرق فقال تعالى : (يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصّواعِقِ)[2]، ثمّ قال : (يكادُ البرقُ يخطَفُ أبْصارَهُمْ)[3].ولأنّ البرق نار أو كالنار، بل إنّما كنّى عن جهنّم بكاظمة، أي مكظومة؛ لأنّها مقيّدة عن الخلائق اليوم، ففاعل : بمعنى مفعول، كما دافق : أي : مدفوق، وشعر قاطٍ، أي : مقطوط، وكاتم : أي : مكتوم. (...) ويحتمل أن يُراد بالريح ريحها (جهنّم)، وبإيماض البرق لهبها. ولعلّه العنق الذي يخرج منها لالتقاط أهلها ، فهي أعرف بهم من الوالدة بولدها ، كما قال (صلّى الله عليه وسلّم) أجارنا الله منها بمنِّه : «ثمّ تلتقطهم التقاط الطّائر حَبّ السِّمْسِمِ» أو حين تزفر زفرة فلا يبقى ملك مقرّب، ولا نبيٌّ مرسل إلاّ جثا على ركبتيْه، كما في الصّحيح؛ ويدلّ عليه قوله في الظّلماء، فإنّها سوداء مظلمة. (...) وإنّما وُفِّق للابتداء بذكر الجنّة، وإنْ كان درْءُ المفاسد أهمّ؛ لقوله تعالى فيما حكى عنه رسول الله (صلّى الله عليه وسلّم) : «إنّ رحمتي سبقت غضبي»[4].

ويسترسل ابن مرزوق في التّأويلات المتباينة للبنية الواحدة، وكأنّه حاضر بيننا ، يطبّق منهجاً من مناهج التحليل المعاصر، إذ إنّه يبدي التّأويل لكلمة واحدة ليجعلها حمّالة أوجه من حيث الإشارات الصّوفيّة. وقد استطاع أن يطيل في ذلك ويكشف في الآن ذاته عن

---

[1] - سورة الرعد، الآية 24.

[2] - سورة البقرة، الآية 19.

[3] - سورة البقرة، الآية 20.

[4] - والحديث كاملاً هو: "إنّ الله لمّا قضى الخلْق كتبَ عنده فوق عرشه إنّ رحمتي سبَقتْ غضبي" - أخرجه البخاري في صحيحه، رقم الحديث:6873 (كتاب التّوحيد)، وقد رواه أبو هريرة (رضي الله عنه).

خلفيّاته الثّقافيّة التي أبنّا عنها من قبل، ولخّصناها في صفة واحدة هي "الموسوعيّ" حيث يتّضح هذا جليّاً في استشهاداته المختلفة شعراً ونثراً وحكماً ولغة، ولا نتحدّث عن توظيفه للآيات القرآنيّة والأحاديث النّبويّة، فهو فيها بحر بلا شُطْآن، لا يكاد يجاريه أحد من معاصريه أو منْ أتى من بعده.

ويختم إشاراته الصّوفيّة للبيتين بنصوص تؤكّد قدرته على التّمثيل، وحضور بديهته في استْقاء ما يروم أن يجلّيه، ويرغب في أن يوصله؛ يقول :

«وبالجملة : فالتزام الحزن والبكاء خوفاً من نَقَم اللّه لا يسْكن إلاّ قلبَ تقِيٍّ كما قال بشر الحافي : «الخوف ملك لا يسْكن إلاّ في قلب تقيّ». وقال الكرماخ : «علامة الخوف من اللّه الحزن الدائم». وقال معاذ بن جبل : «المؤمن لا يطمئنّ قلبه ولا تسْكن رَوْعتُه حتّى يُخلِّف جسر جهنّمَ وراء ظهره». وقال سفيان بن عيْينة : «لوْ أنّ محزوناً بكَى في أمّة لرحم اللّهُ تلك الأمة ببكائه». وقال الطفيل : «خمسٌ من علامات الشقاء : القسوة في القلب، وجُمودُ العين، وقلّة الحياء، والرّغبة في الدّنيا، وطول الأمل». وقال بعض السّلف : «أكثرُ ما يجده المؤمن في صحيفته من الحسنات الهمّ والحزن». وأكثرهم على أنّ المحمود من الحزن ما يتعلّق بالآخرة. وقال أبو عثمان الجيري : «الحزن بكلّ وجْه فضيلة وراحة للمؤمن، إلاّ المعصية، لأنّه إنْ لم يوجب تخْصيصاً يوجب تمحيصاً.(....). وفي الكلام من الإشارات أكثر من هذا، وفيما ذكرْناه مع التّوفيق ممتع، واللّه المستعان».

ذلكم هو ابن مرزوق، عالم تلمسان ومفكّرُها، وفقيهُها وأديبُها، وهبَهُ اللّهُ علماً لم يتوفّر عُشرُه لِكثيرٍ من المعدودين في

صنفِ أكابر العلماء؛ فكان بحقّ رمزاً من رموز المعرفة في الجزائر بخاصّة، وفي العالم الإسلاميّ بعامّة، وكان آية في الحفظ والاستيعاب، وفلْتةً من فلتاتِ الدّهر في القرن الثامن الهجريّ، فأثْرى المكتبة العربيّة، وأسهم في تدوين التاريخ الثقافي للجزائر، وألّف العديد من المصنّفات، وأرْسى معالم الثقافة العربيّة الإسلاميّة في هذه الدّيار بصدق وجدّ وإخلاص.

فنّ المولديّات

في الشّعر المغربيّ القديم

لن أتعرّض للحديث عن شخصيّة الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، فذلكم أمر معروف، وحديث على الألسنة مألوف؛ فهو الإنسان الكامل خَلْقاً وخُلُقا، وهو العظيم الذي هدّ أركان الشّرك، والحليم الذي تأثّرت بعطفه وحُنُوّه جذوع الأشجار، واشتكت حالَها إليه الغِزلان والجِمال.

إنّه أكرم مخلوق، وأفضل من يمشي على قدم، ولذلك نحاول في هذه المداخلة الموجزة أن نستضيء ببعض سيرته، ونتنشّم نفح عطره؛ ونحن نتحدّث عن الاحتفال بمولده الشّريف عَبْرَ ما خلّفه لنا شعراؤنا في المغرب العربيّ، وما احتفظ لنا به الزّمان من خطابهم في تخليد هذا اليوم الذي أشرقت فيه الظّلمات، وارتجّت في إيوان كسرى الشُّرُفات.

ولِمَنْهَجَة هذه المداخلة وحصْر أفكارها نتناول ثلاثة عناصر نحسبها تتكامل فيما بينها، وتتظاهر لتقريب هذا الموضوع من المتلقّي الكريم؛ فقد ارتأينا أن نقف عند كلّ من :

- البدايات الأولى للاحتفال بالمولد النّبويّ في المغرب .
- المولد النّبويّ في الشّعر المغربيّ القديم.
- البنية الفنيّة للمولديّة عند شعراء المغرب.

البدايات الأولى للاحتفال بالمولد النّبويّ

لعلّ أصعب ما يواجه الدّارس أو الباحث في مختلف العلوم هو التّأريخ الدّقيق لفنّ من الفنون، وهذا الأمر لم يخلُ منه هذا العرْض؛ حيث إنّ المظانّ التي عُنيت بالحديث عن المولد النّبويّ تضاربت آراؤها واضطربت أحكامها بسبب الغموض الذي طَبع الكتابات السّابقة. وتخلُّصاً من هذا الإشكال، فقد عمدت المصادر التي عُنيت بهذا الاحتفال إلى الغوْص البعيد في المديح النّبويّ، فوقف بعضها مثل

عبّاس الجراري لدى شعر الأعشى في مدح الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، وإن لم يُسلم مثلما هو مشهر؛ قال :

ألمْ تَغْتَمِضْ عينـاكَ ليلـةَ أَرْمَـدا   وبتَّ كما بـاتَ السّليمُ مُسَهَّـدا

إلى أن يقول :

وآلَيْـتُ لا آوي لهـا مـنْ كَلالَـةٍ   ولا من وَجَى حتىّ تُلاقي محمّـدا
نبيّـاً يَـرى مـا لا تَـروْنَ وذِكْـرُهُ   أغـار لعمـري في البلاد وأنجـدا[1]

والقصيدة في الواقع لا تختصّ بالمولد النّبويّ، ولكن تورَد للاستئناس بها لا أكثر؛ لأنّ ما يهمّ الباحث في هذا المجال، هو محاولة التّعرّف على أوّل بلد إسلاميّ خلّد هذه الذّكرى، ومن الإسهامات التي حاولت التّدقيق في تثبيت ذلك، يتبادر إلى الذّهن رأيان بحثا هذا الأمر؛ وهما لعبّاس الجراري، وعبد الله حمّادي، فقد ذكر الأوّل أنّ المديح النّبويّ انتشر وذاع ونضِج أكثر بعد أن احتكّ أصحابه بالتّصوّف، وكان لابن عربيّ وأبي الحسن الشّاذلي وأحمد البدويّ إسهام في هذا الفنّ[2]. ولذلك فقد ظهرت البُردة للبوصيري (608 ـ 695هـ) بصورة جليّة لتنتشر عبر الأقطار الإسلاميّة ولاسيّما في المشرق والمغرب العربيّين ؛ علماً بأنّ البوصيريّ، وإن وُلد في مصر وذاع صيته فيها ، فإنّ أصله من صنهاجة واسمه محمد بن سعيد الصّنهاجي[3].

---

[1] ـ شعراء النصرانية قبل الإسلام: الأب شيخو، ط8 بيوت، ص 358، وهو يعُدّ هذا الشّاعر نصرانيّاً، على حين أنّ الدكتور عباس الجرار ي يعُدّه من طائفة شعراء الرّسول في كتابه « من أدب الدّعوة الإسلاميّة » ـ دار الثّقافة، الدّار البيضاء 1974م ، ص 36.

[2] ـ ينظر الأدب المغربيّ من خلال ظواهره وقضاياه، مكتبة المعارف، الرّباط، ج1 ص 143.

[3] ـ يراجع م.ن.ص 143.

ويكاد (حمّادي) يلتقي مع الجِراري حينما يؤكّد أنّ مدينة سبتة كانت السّبّاقة إلى تخليد هذه الذّكرى مُعتمداً على ما ذهب إليه ابن الخطيب من أنّ« رياسة آل العزفي لسبتة بدأت في سنة 647 هـ الموافق لـ 1249م حينما قامت بها الثّورة ضدّ الموحّدين، وانتهت باختيار قاضيها وكبير علمائها (...) محمد بن الحسن اللّخميّ العزفيّ رئيساً لها، واستمرّت رياسة أبي القاسم لسبتة، وأحياناً لطنجة وأحوازها، حتّى وفاته سنة 677هـ وهو الذي أَكملَ كتاب أبيه العلاّمة الورع الزّاهد أبي العبّاس العزفي (577 ـ 633هـ) : «الدرّ المنظوم في مولد النّبيّ المعظّم» [1].

وما يُستخلَص من قول ابن الخطيب، هو أنّ مدينة سبتة كانت السبّاقة إلى الاعتناء بالمولد النّبويّ، لأنّ ما يُقرّه الحكّام تتّبعه الرّعيّة بطبيعة الحال، والأدلّ على ذلك هذا المؤلّف المذكور الذي يخلّد مولد النّبيّ الكريم.

ويظلّ الجدال محتدماً في تاريخ السّبق بهذا الاحتفال ما في ذلك شكّ، لأنّ المدقّق المحقّق يُلفي ذكراً لرجل أسّس لهذا الفنّ في مطوّلة أوردها الدّارسون؛ وهي للشّيخ أبي محمد عبد الله بن يحيى الشّقراطيسي التّوزَري المتوفّى يوم الثلاثاء 8 ربيع الأول سنة 466هـ الموافق لـ 11 نوفمبر 1073م ومطلعها :

الحمدُ لله منّا باعثَ الرُّسُل   هُدىً بأحمدَ منّا أحمدِ السُّبُلِ

---

[1] ـ الإحاطة في أخبار غرناطة ـ تحقيق : عبد الله عنان ـ مكتبة ومطبعة الخانجي ـ القاهرة 1973 ـ 1978، ج3، ص11.

خيرِ البريّةِ منْ بَدوٍ ومنْ حَضرٍ   وأكرمِ الخلْقِ منْ حافٍ ومُنْتعِلِ[1]

وقد انتقلت هذه القصيدة إلى مختلف الأقطار المغاربيّة وإلى الأندلس عبرَ الرّحّالين على غرار العبدريّ الذي أثبتها كاملة في رحلته وأثنى على صاحبها، كما قام بالاهتمام نفسه الرّحّالة الجزائريّ ابن عمّار الذي أثبتها هو أيضا كاملة، وأطرى صاحبها وعدَّها قمّة في البلاغ والتّبليغ[2].

وإلى جانب الشّقراطيسي نظم أبو عبد الله بن أبي الخصال المتوفّى سنة 540هـ، وكان كاتباً لعليّ بن يوسف بن تاشفين بمرّاكش، قصيدة سمّاها «معراج المناقب ومنهاج الثّاقب» يقول في مطلعها :

إليكَ فهْمي والفؤادُ بيثْربٍ   وإنْ عاقَني عنْ مَطْلَعِ الوحْيِ[3]

إنّ تحديد التّاريخ بدقّة للاحتفال بالمولد النّبويّ في الدّيار المغاربيّة لا يمكن لأحد أن يجزم به، وإن كانت الإشارات التي ألمحنا إليها تُرشد إلى تقريب ذلك.

نماذج من هذا الاحتفال في قصر المشور

لا بدّ من التّأكيد، بأنّنا لم نعثر على دولة أو حكومة إسلاميّة أولت هذا الاحتفال مثلما أولتْه الإمارة الزّيانية، ولاسيّما في

---

[1] - والقصيدة طويلة تقع في 133 بيتاً، وقد قام بشرحها والتّعليق عليها كثير من الدّارسين لعلّ آخرهم الدكتور محمد طول الذي قدّم دراسة عنها في ملتقى وطنيّ نظّمه مخبر الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة في المغرب العربيّ سنة 2007م.

[2] - ينظر « دراسات في الأدب المغربيّ القديم» للدكتور عبد الله حمّادي - قسنطينة، ط1/ 1406هـ (1986م) ص239 - وقد استعرض في هذه القصيدة معجزات النبيّ (صلى الله عليه وسلم) والعناية الإلهيّة بشخصه في مناسبات مختلفة، وأبرز سمات خُلقه مع أعدائه، وهلمّ جرّاً...

[3] - يراجع: الأدب المغربيّ للجراري، ص 144.

عهد أبي حمّو موسى الثّاني (727 ـ 791هـ) إلى أن يثبت العكس.هذا أوّلاً، وأما آخراً، فإنّنا لا نتصوّر أن احتفلت أمّة من الأمم بهذا المولد مثلما احتفلت به هذه الدّولة الجزائريّة قلْباً وقالباً، فقد عظّمت مولده، وأفاضت الهدايا والتّكريمات على الحضور في قصر المشور، فتنافست الشّعراء، وتنافحت الأدباء، وسارع المؤرّخون والدّارسون عموماً إلى تسجيل ما كان يحصل في تلك الاحتفاليّة السّامية. وبما أنّ هذا المقام عظيم، والتّقرّب إلى الله كبير، فقد كان أبو حمّو « يحشر لهذه المناسبة الأشراف والسّوقة»[1].فالرّسول الكريم إنّما بُعث ليتمّم مكارم الأخلاق، وهذه المناسبة مواتية للتّعبير عن ذلك؛ بل وللتّطبيق العمليّ لتعاليمه (صلى الله عليه وسلم) إذ لا مناصَ من إزالة التّفرقة، وإبادة الطّبقيّة التي كانت في طليعة المثالب التي نخرت المجتمع العربيّ قبل الإسلام، والتي عمل النّبيّ على إبعادها ودفْنها برحمة رسالته السّامية.

وكان الاحتفال، مثلما يصفه التّنسي، عظيماً لا يمكن أن يتكرّر له نظير : يقول : « كان أبو حمّو موسى الثّاني يُقيم ليلة المولد النّبويّ، على صاحبه الصّلاة والسّلام، بمشوره من تلمسان المحروسة مَدْعاةً حفيلةً يَحشر فيها النّاسَ خاصّةً وعامّةً، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة، وبُسُط موشّاة، ووسائد بالذّهب مُغشّاة، وشمعٍ كالأسطوانات، وموائدَ كالهالات، ومباخرَ منْصوبة كالقِباب، يخالها المُبْصر من تِبْلا مُذاب، ويُفاضُ على الجميع أنواع الأطعمة، كأنّها أزهارُ الرّبيع المُنمْنَمة، تشْتهيها الأنْفس وتستلِذّها

---

[1] ـ نحلة اللّبيب باختيار الرّحلة إلى الحبيب: ابن عمّار (أبو العبّاس سيدي أحمد) مطبعة فونتانة ـ الجزائر 1902م، ص130.

النّواظر، ويُخالط حسْنُ ريّاها الأرواحَ ويُخامر. رُتّب النّاس فيها على مراتبهم ترْتيبَ احتفال، وقد علَت الجميعَ أُبَّهَةُ الوَقار والإجلال. بعَقِبِ ذلك يحتفل المستمعون بأمداح المصطفى عليه الصّلاة والسّلام، ومُكفِّراتٍ تُرغِّب في الإقْلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فنّ إلى فنّ، ومن أسلوب إلى أسلوب، ويأْتون من ذلك ما تطرب له النّفوس، وترْتاح إلى سماعه القلوب (...) هكذا خالهمْ إلى انْبلاج عَمود الصّباح، ونداء المُنادي : حيّض على الفلاح»[1].

لقد أَرّخ التّنسي (محمد بن عبد الله بن عبد الجليل) المتوفّى سنة 899هـ لهذه اللّيلة العظيمة، وعبّر عنها بكلّ عواطفه الصّادقة، وإحساساته المطلقة، وصاغ ذلكم كلّه بأسلوب دفّاق، وبعبارات مشرقة، تسمها تضمينات من القرآن الكريم، وتطبعها لغة جزلة تميل إلى العم والشّعريّة. فالنّصّ، وإن أتى نثْرا، فكأنّما هو منظوم في قصيدة مرموزة، يسودها الغموض الفني، ولكنّه لا يحول بين المتلقّي وبين إدراك ما اشتملت عليه، وما حوتْه من لطيف القيل، وجليل التّأْثير[2].

ووصف المقّري احتفال أبي موسى في قصر المشور بالمولد النّبويّ بما يقترب من وصف التّنسي فقال : «..ما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة، وشمع كالأسطوانات، وأعْيان الحضرة على مراتبهم. تطوف عليهم وِلْدانٌ قد لَبسوا أقْبية الخَزّ الملوّن، وبأيديهم مَباخر ومرشّات ينال كلّ منا بحظّه، وخزانة المَنْجانة ذات تماثيل لُجَيْن

---

[1] ـ نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب : أحمد المقّري ـ تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار صادر بيروت 1383هـ (1963م) ـ ج 6 : 513 ـ 514 ، وقد أثبت التّنسي هذا النّصّ في كتابه « نظم الدرّ والعُقيان»

[2] ـ يُنظر كتابنا «من أعلام تلمسان ـ مقاربة تاريخيّة/ فنية» ـ دار الغرب للنشر والتوزيع ـ وهران (الجزائر) 2004م ، ص243.

مُحْكَمة الصّنْع (...) ثمّ يُؤْتى آخر اللّيلِ بموائد كالهالات دوراً، والرّياض نوراً قد اشتملت من أنواع محاسن الطّعام على ألوان تشتهيها الأنفس وتستْحسنها الأعْين، وتلَذُّ بسماعها الأُذْن...»[1].

فهذا الوصف لليلة ميلاد الحبيب المصطفى يتناصّ مع ما أورده غيره من الدّارسين ولاسيّما التّنسي، مثلما أسلفنا، وهو يؤكّد ميزة وقيمة وسموّ هذا الاحتفال، إذ إنّ المُنْضوين جميعاً تحت لواء تلمسان كانوا يحجّون إلى قصر المشور علَّ أحداً منهم يظفر بمكان، فإذا لم يتحقّق وطرهم عَمَدوا إلى بيوتهم فأوْقَدوا الشُّموع، وهَلَّلوا بأصوات عالية مع أبنائهم مُصلّين على النّبيّ، وقائمين اللّيلَ مُتهجّدين، وقد تَجافَتْ جُنوبهم عن المَضاجع داعينَ ربَّهم خوفاً وطمعاً. ويمكن أن يُقال الشّيء نفسه بالنّسبة للمغاربة والتّونسيّين الذين كانوا يحتفلون بهذا المولد رسميّاً وشعبيّاً، وإن لم تشتهر حفلاتهم مثلما هو الشّأن على عهد بني زيان.

المولد النّبويّ في الشّعر المغربيّ القديم

إذا كان العرب قد بَجّلوا النّبيّ الكريم منذ هجرته إلى المدينة المنوّرة، وتغنَّوْا بمقْدمه عليهم بأجمل الألحان، وأشْجى الأصوات :

طَلَعَ الْبدْرُ علينا مِنْ ثَنِيّاتِ الوَداعْ
وجَبَ الشُّكْرُ علينا ما دعا للهِ داعْ
أيُّها الْمَبْعوثُ فينا جئْتَ بالأمرِ المُطاعْ
جئْتَ شرَّفْتَ المدينة مرْحَباً يا خيْرَ داعْ

[1] - أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض: أحمد المقري - تح: مجموعة باحثين، مطبعة فضالة - المغرب، د.ط/ 1978م، جاص 245.

فإنّ إخوتهم في المغرب الإسلاميّ لم يتشرّفوا برؤية الحبيب المصطفى. ومَن من المسلمين لا يتمنّى أنْ لو عاش في مكّة أو المدينة إبّانَ مبعثه (صلى الله عليه وسلم) حتى ينالوا رضاه، ويمتّعوا جوارحهم وحواسّهم برؤيته، ويُشنّفوا أسماعهم بتعاليمه وخطبه وأحاديثه. ولذلك كان هؤلاء المسلمون في الدّيار المغاربيّة، ولا يزالون، في شوق وتلهّف إلى لقائه، والعمل على تطبيق سنّته، والدّعوة إلى ما دعا إليه. وهذا الشّوق يتضاعف لدى من لم يقدر على زيارة قبره الشّريف إمّا صحّيّاً وإمّا مادّياً، فكثر التّغنّي بالرّسول، والإعراب عمّا يجيش في صدورهم من الوصول إلى البقاع المقدّسة[1]. ومن الذين ظلّوا مُشْرئبّين بأعناقهم ومتلهّفين بأفئدتهم إلى زيارة الحجاز، يرِد اسم القاضي عياض المتوفّى سنة 544هـ حيث امتلأت كتاباتهم بتفجير هذا الحبّ، ولاسيّما الدّراسات المطوّلة والقريض[2] : قال مُشاهداً بقلبه لا ببصره، لأنّ القاضي عياض لم يحجّ البيت لأسباب مجهولة :

قفْ بالرِّكابِ فهذا الرَّبْعُ والدّارُ لاحتْ علينا من الأحْبابِ أنْوارُ
بُشْراك، بُشْراكَ قدْ لاحتْ قِبابهمُ فانْزِلْ فقدْ نِلْتَ ما تَهْوى وتخْتارُ
هذا الحبيبُ الذي أَسْرى لخالقهِ ليلاً، وقدْ ضُربتْ باللّيلِ أَسْتارُ
هذا الشّفيعُ الذي تُرْجى شفاعتُهُ للمُذْنبينَ إذا ما اسْودّتِ النّارُ
إنْ لمْ تُعاينْ تراهُ العينُ يا أسَفي أو لم تَزُرْه، فإنّ الشّوق زوّارُ

---

[1] - ينظر كتابنا « الخطاب الشّعريّ عند فقهاء المغرب العربيّ » ، نشر: وزارة الثّقافة في الجزائر (بالاشتراك مع دار الأوطان) الجزائر 2009م خيث أوردنا مجموعة من القصائد في مدح الرّسول (صلى الله عليه وسلم) والاشتياق إلى زيارته في المدينة المنوّرة.

[2] - كتب جزأين في محبته واستعراض سيرته سمّاهما :« الشّفا بتعريف حقوق المصطفى»

يا أهلَ طَيْبةَ لي في رَبْعكمْ قَمَرٌ ... ببَرٌّ عَطوفٌ لفعْل الخيرِ أمّارُ[1]

ومن أجمل قصائده في مدح الرّسول (صلى الله عليه وسلم) واشتياقه إلى زيارة قبره ما قاله متغنّياً في نشْوة الفرح بعد أن ظفر بمبتغاه معنويّاً بطبيعة الحال :

بُشْراكَ يا قلبُ هذا سيّدُ الأُمم ... وهذه حضْرةُ المختارِ في الحرَمِ

وهذه الرّوضةُ الغرّاءُ ظاهرةٌ ... وهذه القُبَّةُ الخضْراءُ كالعَلَمِ

ومِنْبَرُ المصطفى الهادي وحُجْرتُهُ ... وصحبُهُ والْبَقيعُ دائرٌ بهمُ

فطبْ وغِبْ عنْ هُمومٍ كنتَ تعرفها ... وسلْ تنلْ كلَّ ما ترْجوهُ منْ كَرَمِ

يا سيّدي يا رسولَ اللّهِ خذْ بيدي ... فالْعبدُ ضيْفٌ، وضيفُ اللّهِ لم يُضَمِ[2]

المولديّات في الجزائر

إنّ ذِكْرنا للقاضي عياض الذي توفّي بعد بضع وسبعين سنة من وفاة الشّقراطيسي لا يعني نسياننا للسّابقين عليه، وإنّما ذكَرْنا له من قبيل إثْراء البحث من وجهة، والإشادة بدور القاضي عياض في التّأسيس للمديح النّبويّ عند المغاربة من وجهة أخرى.والقصائد هذه هي التي كانت لبنات وَضَع صرْحَها هؤلاء للاّحقين من شعراء بني زيان، فكان التّنافس بينهم شديداً والطّموح إلى التّجديد والإبداع قائما، حتّى إذا حلّ الحول، أقبلوا على قصر المشور صدّاحين بأنغام شعرهم، وكلّ واحد منهم يرجو التّفوّق، ويأمل الفوز؛ وكان في طليعة الشّعراء أبو حمّو موسى الثّاني المتوفّى سنة 791هـ الذي كان يفتتح الاحتفال بقصيد كلّ سنة، ومن شعره في ها المجال قوله :

---

[1] - القاضي عياض الأديب: د. عبد السلام شقور، دار الفكر المغربيّ، ط3/ 1983م، ص 331 - 332.

[2] - بغية الرواد : 339.

قفا بـينَ أَرْجـاء القِبـابِ وبالحـيِّ وحـيِّ ديـاراً للـحبيبِ بهـا حـيِّ
وعرِّجْ على نجْدٍ وسلْعٍ ورامَةٍ وسائل، فَـدتْك النّفسُ، في الحـيّ عن حيِّ
يُعـذِّبُني شـوقي ويُـضنِعفُني الهـوى وقلبي على جمر من الشّوق مَحْمـيّ
وصرْتُ إذا هبّتْ نُسيْماتُ أرْضِهِمْ على شجرات البانِ أَوْ قَصَبٍ نسري
أميـلُ بهـا شـوقاً إلـيهمْ وأَنْثَـني كما يَنْثَني قدُّ الحُسام الفِرَنْـدِيِّ
وأصْبو إلى أرضِ الحبيبِ ومَنْ بها متى ما سَرى عَرْفُ النّسيمِ الْحِجازيِّ
أُعلّـلُ نفـسي بالنّـسيم إذا سـرى وبالبرْقِ إذْ يَسْري، وسَجْعِ القُماريِّ
فيا أهلَ نجدٍ أَنْجدوني على الهوى فـإنّيَ في بحـرٍ مـن الـشّوقِ لُجِّـيِّ
مُقيمٌ بأقْصى الغربِ أَشْكو به الجَوى وحالي على حُكْم النَّوى غيرُ مخْفِيِّ
فيـا ليـتَ شِـعْري والـدّيارُ قَـصيَّةٌ متـى تَـسْمحِ الأيّـامُ لـي بلِقا الحـيِّ[1]

إنّ هذا النصّ طافح بالعاطفة الجيّاشة، ومُتْرَع بآيات الصّدق والتّوسُّل والاشتياق إلى حِمى نجد، حيث قبر الرّسول (صلى الله عليه وسلم)، وهو يُعْرب عن ألمه، ويكشف عن حنينه، ويشكو بعاده ونأيه عن ديار الحبيب المصطفى، ويجْأر صُراحاً بأنّ مشكلته كبيرة، وعوائقه جليّة، لأنّه يُقيم بالدّيار المغاربيّة وهي قاصية ممّا يحول بينه وبين إدراك وطره.

ثمّ يحتم قصيدته بأنّ له رجاءً عظيماً وأملاً عريضاً في الفوز بشفاعة الرّسول محمد (صلى الله عليه وسلم) مع الوصول إلى تخصيص جزء من قصيده هذا لمولده الشّريف :

---

1 ـ نظَم أبو حمّو هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بذكرى مولد النّبيّ الكريم سنة 761 هـ، والقصيدة أوردها يحيى بن خلدون في «بغية الرّوّاد» 2: 65/ وتاريخ بني زيان، ملوك تلمسان، حقّقه وعلّق عليه : محمود بوعياد ـ نشر: المؤسّسة الوطنيّة للكتاب/ المكتبة الوطنيّة الجزائريّة 1405هـ (1985م) ص 164 ـ 167.

وما أَرْتَجي إلاّ شفاعةَ خيرِ منْ أتى بالهُدى يَهدي لدينِ حنيفيٍّ
فمولِدُهُ قدْ أشرقَ الكونَ كلَّهُ وكلُّ سَنا شمسٍ وبدرٍ ودُرّيٍّ
سلامُ مَشوقٍ أثقلتْه ذُنوبُه وأُخِّرَ عنْ سيرٍ وقُيِّدَ عنْ سَعْيِ
فيا ليتَ شعري هلْ أزورُ محمّداً وأُمْنَحُ ما أهواه من منزل الوحْيِ
لئنْ أَخَّرتْني عنْ زيارة أحمدٍ قلائدُ أمرٍ قَيَّدَتْني عنِ السَّعْيِ
فَربِّيَ أرجو أنْ يمُنَّ بقُربه قريبا ، وشوقي لا يُقابَلُ[1]

ثمّ يعدّد معجزاته الكبرى من وصوله إلى سِدْرة المنتهى وانشقاق البدر له نصفين، وجريان الماء من بين أصابعه الشّريفة، وهذا قبل أن يصل إلى مخاطبته راجياً شفاعته مثل القصيدة آنفة الذّكر، فيقول :

ألا يا رسولَ اللهِ دعوة شيّقٍ يؤمّل آمالاً لديك فِساحا
مُقيمٌ بغرب كاد من فَرْط حُبّهِ يَطيرُ اشْتياقاً لو أُعيرَ جَناحا
وما لي سوى حُبّي إلَيك وسيلةٌ أمدّ بها نحو الشّفاعة راحا
عُبيْدُك موسى يرجو منك شفاعةً ينالُ بها يومَ الحسابِ نجاحا
عليكَ سلامٌ طيِّبُ النّشْرِ عاطرٌ يَروحُ ويَغْدو بُكْرةً ورَواحا[2]

ذلك، وكان لأبي حمّو موسى الثّاني قصائد عديدة تمثّل ديواناً كاملاً في مدح النبيّ (صلى الله عليه وسلم) كان يُلقيها في

---

[1] - أُنشدت هذه القصيدة غَداة الاحتفال بمولد النبيّ سنة763هـ - أبو حمّو موسى الثاني - حياته وآثاره: د.عبد الحميد حاجيات، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع 1394هـ (1974م) - ص 345 - 347 (بتصرّف في حذف بعض الأبيات).

[2] - بغية الرّوّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد: يحيى بن خلدون، مطبعة فونتانا الشّرقيّة - الجزائر 1903م - تحقيق: ألفريد بل (Alfred Bel) - تحقيق: عبد الحميد حاجيات ، ط. المكتبة الوطنيّة - الجزائر 1400هـ (1980م) ص 14 وصفحات أخريات.

محفل الاحتفال بمناسبة المولد النّبويّ الشّريف.وما كان لكاتب ديوانه وأمين سرّه يحيى بن خلدون لتفوته هذه المناسبة دون أن يصدح هو أيضاً بقصيد يتغنّى فيه بشِيَم النّبيّ وصفاته ومعجزات وخلقه النّبيل، يقول ابن خلدون بعد أن يتحسّر على الأطلال الدّارسة، ويقدّم بنسيب رقيق على دأْب أهل عصره عبر تسعة عشر بيتاً ليخلص بعد ذلك إلى مدح النّبيّ(صلى الله عليه وسلم) :

لم أُقـدّم وسيـلةً فيـه إلاّ　　حبُّ خيرِ الورى الشّفيع الماحي

سـيّدِ العـالمينَ دُنْيـا وأُخـرى　　أشْرفِ الخلْقِ في العُلا والسّماح

سـيّدِ الكـونِ مـن سمـاءٍ وأرضٍ　　سِـرُّهُ بـينَ غايـةٍ وافْتتـاح

ثمّ يصل بعد ذلك إلى تَعْداد صفات النّبيّ وتَشبُّث المسلمين بأمل شفاعته فيهم :

مَنْ يُجيرُ الورى غداً يومَ يُجزَى　　كـلُّ عـاصٍ وطـائعٍ باجْتـراح

مَـنْ إلى حوضِـهِ وظـلٍّ لِـواهُ　　يَلْجـأُ النّـاسُ بـينَ ظامٍ وضاحِ

ومن التّساؤلات التي يطرحها على نفسه مُرشداً بها الضّالّين أو المشكّكين في سَنَد الرّسول وشفقته على أمّته؛ راح يستعرض معجزاته الكبرى والصّغرى فيقول :

إنّ في النّجْـم والنّبـاتِ لآيـاً　　بَهَـرَتْ، والجمـاد والأرواح

مُعْجـزاتٍ فُتْنَ المَـدارِكَ وصنْـفاً　　وحساباً كالزّهرِ أو كالمصباح

يـا رُواةَ القـريض والشّعرِ عجْزاً　　مـا عسى تُدر كـون بالأمداح

إنّمـا حسْبُنا الصّلاةُ عليـهِ　　وهـيَ الفـوزُ آيـةُ استفتـاح

يـا إلهـي بحـقّ أحمـدَ عفـواً　　عـنْ ذُنـوبٍ جَنَيْـتُهنّ قبـاح[1]

---

[1] - بغية الرواد: 13 ـ 15.

ولم يغفل الشّعراء الجزائريّون الحديث عن إظهار حبّهم والكشف عن وجدانهم والتّصريح بمشاعرهم نحو النّبيّ الكريم ؛ يقول التّلاليسي في ذلك :

نبيٌّ كريمٌ شرّف الله قدرهُ ... وفضلَه في القبْل والبَعْد والحالِ
نبيٌّ به سُدنا على كلّ أمّةٍ ... فلا أمّةٌ إلاّ لنا تحت إذْلالِ
هو المصطفى سادَ الأنامَ وقدْرُهُ ... على كلّ مخلوق ،نطقَتَ به، غال
حليمٌ رحيمٌ مُؤْثر متفضّلٌ ... رؤوفٌ عَطوفٌ مانحٌ دونَ تَسْآلِ[1]

فالشّعراء الجزائريّون أبْدعوا في خطابهم وتغَنَّوْا بشيم الرّسول،وتعرّضوا للحديث عن معجزاته الكثيرة التي عدّوا طائفة منها؛ ومن هؤلاء ما أنشده (القيسي) مُتحدّثاً عن معجزاته الكبرى قائلاً :

نبيٌّ رآه الله أفضلَ خلقِهِ ... فأرسله بالحقّ للخلْق هاديا
وأسرى به ليلاً إلى حضرة العُلا ... فشاهدَ فيها كلَّ ما كان خافيا
سَرى راكباً ظهر البُراقِ كرامةً ... وبين يديه سار جبريل ساريا
دنا فتَدلّى قابَ قوسيْنِ رِفْعةً ... وقُرباً، فأمسى للحبيب[2]

وقال محمد بن يوسف التّغريّ :

تذكّرْتُ صحْباً يمّموا الضّالَ والسِّدْرا ... فهاجَتْ لي الذّكرى هوىً سكنَ الصَّدرا
وإخْوانَ صدقٍ أعْملوا السّيْرَ والسُّرى ... إذا ما بدا عُذْر لهم قطعوا العذْرا
سَرَوْا في الدُّحى يَفْلونَ ناصيةَ الفَلى ... وعندَ صباحِ القومِ قد حَمدوا المسرى
غَدَتْ نُكراتُ البيْنِ معْرفةً بهم ... وآهلةً تلكَ المَجاهلَ لا قَفْرا

---

1 - م.س.ص : 140 ـ 141.
2 - بغية الرواد: 190.

لقد أودعَ التّوْديعُ في كَبِدي جَمرا وتوْديعَهُمْ أذْكى الجَوى في جَوانحي
كواكبُ تسري للحِمى كيْ ترى البدرا يضيءُ الدُّجى من عزهم فكأنّهم

إنّها مقدّمة تمهيديّة جمع فيها بين الذّكرى والتّذكّر، والحدي والحديث عن الرّفاق الذين شدّوا الرّحال بعيداً فتركوا خُرقة في فؤاده عميقة لا يعفو عليها الزّمان، ولا يقدر على نسيانا ما حَيي؛ وهي ضرورة فنّيّة بلا ريب، كانت تسود بنية القصيدة بعامّة، والمولديّات بخاصّة، لأنّه من البيت الأخير في مقدّمته الطّلليّة ينتقل إلى الحديث عن الأحداث التي صاحبت ليلة مولد الرّسول (صلى الله عليه وسلم) فيقول :

أجلّ بدور الرّسْل نوراً وبهجةً وأجمل خلْقٍ ريءَ في حُلّة حمرا
وأصدقَ مَنْ في عالَم الكونِ لَهْجةً وأكرمهمْ فِعْلاً، وأشرفهمْ ذكرا
وأطْهرهمْ قلباً، وأكملهم تُقى وأشرحهمْ صدراً، وأرفعهم قَدْرا
وأفصح مَن بالضّاد والظّاء ناطقاً إذا فاهَ نُطْقاً خِلْتَهُ يَنْثُر الدّرّا
تلألأَ نوراً يَفضَح الشّمس في الضّحى فليس له ظلٌّ لدى الشّمسِ يُسْتقْرا
ويَبْسِمُ عنْ حَبّ الغَمامِ كأنّما جواهرُ نورٍ أُودِعتْ ذلك الثَّغْرا
فَما الرَّوْضُ مَطْلولُ الأَزاهرِ باسماً بأَذْكى أَريجاً منه ولا زهْرا
ولا المسْكُ مَفْضوضُ النّوافِحِ ضاحكاً بأطْيبَ منْ رَيّاهُ عَرْفاً ولا نَشْرا

ومن ذكر المحاسن الخَلْقيّة للرّسول(صلى الله عليه وسلم) وما وهبه الله له من كمال جسميّ ونور إلهيّ وجمال لا نظير له، وصفات حَيّرت العقول؛ ينتقل إلى التّعبير عمّا في وليجته فيصرّح بحبّه الكبير للنبيّ الرّحيم، ويكشف عن اشتياقه إلى زيارة قبره، ممّا جعل تلك المحبّة تقيّده في حركاته، وتَميدُ مع سكناته، فيقول :

أزَيْنَ الحَلى[1] وقْفٌ عليكَ محبّتي إذا رُمْتُ صبْراً عنكَ لمْ أستطعْ صبرا
يُمثّلُ لي مرآك في كلّ لحظة ويحضر لي ذكراكَ ما جَرت الذّكْرى
إذا فُهْتُ لم أَنطق بغير حديثِكُمْ وإنْ غِبْتُ لم يَعمُرْ سواكمْ ليَ الذّكْرى
وما ليَ أَطوي عنك سرَّ الهوى وقدْ تَملّكَ منّي حبُّك السرَّ والجَهْرا
أَبيتُ إذا ما اللّيلُ أَرخى سُدولَهُ أُسامرُ من شوقي لك الأَنْجم الزُّهْرا
عَقَدْتُ بها جَفْني وأطْلقْتُ أَدمعي فلا عَبْرةٌ ترقى، ولا مُقْلة تَكْرى[2]

وبعد هذا الإعراب عن حبّه الشّديد للرّسول الكريم والجهر بما يسيطر على حواسّه كلّا ليلاً ونهاراً، وسرّاً وجهاراً إلى درجة أن غدا يسهر اللّيل، لأنّ جنبه لا يطاوعه على الاضطجاع، فلا يملك إلاّ أن يُهَيْرق الشّؤون ساحّاً إيّاها على خدّيه؛ ينتقل إلى توضيح مقوّمات المحبّة الصّادقة، والإيمان الخالص بهذا الرّسول الكريم، فيقول :

أ تَزْعُمُ حبّاً للحبيبِ ولم تَخُض له في سبيل الحبّ بَرّاً ولا بحْرا
وكلُّ اعْتذارٍ قدْ يسوغ ولا أرى لمثْلي مُقيناً تحلُّفه عُذْرا
وأخْطرُ ما يلقى المحبّ به الرَّدى وكلٌّ مجبٌّ لا يرى للرّدىُ خُطْرا[3]
وليس عجيباً أن يَنال مَشوقهمْ على البُعْد منهم ما يسُرّ به الصّدرا
ففي سَعَة الأَلْطافِ ما يُفرج الأسى وفي كَنَف اليُسْرَيْن ما يُذْهِب العُسْرا

وهو هنا يقف ليتضرّع إلى المولى سبحانه وتعالى أن يعفو عن سيّئاته التي اجترحها ويغفر له ما أسلف منها؛ متشفّعاً برسول الله (صلى الله عليه وسلم) مُتمنّياً أن يزور الأماكن المقدّسة التي هي مسقط رأس الرّسول، وموطن الوحي إليه، ومدفنه (عليه الصّلاة

---

[1] - الحلى ج. حِلْية(على غير القياس) : ما يُزيّن به من مصوغ وأحجار كريمة.
[2] - كَرِيَ يَكْرى كَرىً الشّخص: نَعَسَ/نام ـ فهو كَرٍ.
[3] - جمع الخَطر : أخطار، وجمع الجمع: خُطْر.

والسّلام) يعود إلى معجزاته العظيمة مُعدّداً كثيراً منها، موازناً بينها وبين معجزات الأنبياء السّابقين عليه؛ فيقول :

لئنْ كانَ فَلْقُ البحرِ قبلك آيةً — لموسى، فإنّ اللهَ شقَّ لك البدرا
وإنْ كان فاض الماء من حَجَر له — فَمنْ كفّكَ الماءُ الزُّلالُ جَرى نهرا
وإنْ وقفتْ شمسُ النّهار ليوشَع — فقد وقفَتْ للمصطفى تارةً أُخرى
لكَ اللهُ ردَّ الشّمسَ بعدَ غُروبها — فأدْرَكَ إذْ صلّى عليٌّ بها العصْراوإنْ
كان مع داودَ سبّحَت الصُّوى — فقدْ سَبَّحتْ في راحتيْكَ الحصى جهْرا[1]
وإنْ حَملتْ قِدْماً سُليمانَ ريحُهُ — تَروحُ به شهراً وتغْدو به شهْرا
ففي ليلةٍ أَسْرى بك اللهُ راكباً — بُراقاً يفوقُ البَرْقَ في سُرْعة الإسْرا
منَ الفُرْشِ نحوَ العرْشِ أسْرى بعبده — إلى الحضْرة العُليا، فسُبحانَ مَنْ أَسْرى
وعاد إلى مَثْواهُ والصّبحُ لم تَشِبْ — ذوائبه، والصّبحُ ما فَجّر الفجرا
وإنْ لسليمانَ الشّياطينُ سُخّرتْ — فلم تك في التّسْخير تَعصي له أمرا
فإنّ رسول الله قدْ سُخّرتْ له — ملائكةُ الرّحمنِ تنصُرُه نصْرا
ملائكةٌ قدْ قاتَلَتْ معه العِدى — بغَزْوةِ بدْرٍ حينَ حلَّ العدى بدْرا
فجاهدَهمْ في الله حقَّ جهادِه — فمنْ لم يَدِنْ طَوْعاً أتاه الرّدى قَهْرا
وإنْ خَمَدتْ نار الخليلِ كَرامةً — فألْقَوْهُ إذْ ألقوْهُ في روضة خضرا
فقد خَمَدتْ للمصطفى نارُ فارسٍ — لمولدِهِ من بعدِ ما أُضْرمتْ دهرا
وكمْ لرسول الله منْ آية سَمتْ — على الألْف، والقرآنُ آيتُهُ الكُبرى[2]

وبعد أن يُنهي الحديث عن معجزات النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) يخلص إلى مدح أبي موسى الثاني على مدى أربعة وعشرين بيتاً.وهذا

---

[1] - الصُّوى ج. الصّوة: حجر يكون دليلاً في الطّريق (والمعنى هنا ينصرف إلى الحصى الذي سبّح الله في كفّ الرسول).

[2] - بغية الرّوّاد، ص 15.

التّشكيل للقصيدة المولديّة يكشف عن منهج فنيّ كان يسلكه كلّ الشّعراء الذين طرقوا موضوع المولد النّبويّ؛ فهنالك مقدّمة في النّسيب، ثمّ الانتقال إلى مدح الرّسول (صلى الله عليه وسلم)..وفي هذا القسم يعرب الشّعراء عن اشتياقهم إلى الرّسول، ويكشفون عن حُرقة التّطلّع إلى زيارة قبره الشّريف، والطّمع في شفاعته يوم الدّين؛ لينتقلوا بعد ذلك إلى تعْداد معجزاته ومحاولة إحصائها؛ ليختموا في النّهاية بمدح الأمير الزّياني.

ولم يقتصر أمر الاشتغال بالمولديّات لدى الشّعراء الجزائريّين الذين ذكرناهم، بل كان هنالك آخرون لم يدّخروا جهدا في تخليد ذكرى مولد النّبويّ، وإن لم تحتفظ لنا الأيّام بكلّ آثار شعرائنا القدامى؛ ومن الذين أسهموا شعراً أو دراسةً أو شرحاً للمولديّات يرد اسم الشّاعر الموسوعيّ ابن مرزوق الحفيد (842هـ) فقد ألّف شرحاً للشّقراطيسيّة سمّاه «المفاتيح القِرطاسيّة في شرح الشّقراطيسيّة»، كما قام بشرح البُرْدة للبوصيريّ (695هـ) ضمن ثلاثة أنواع من الشّروح : كبير ومتوسّط وصغير، وذلك ليتلاءم كلّ شرح مع مستويات المتلقّين المختلفة، كلّ واحد يعثر على ضالّته بحسب فهمه ومستواه.

ومن الشّعراء الذين أبانوا عن عاطفتهم الجيّاشة وآلامهم من التّقصير في زيارة قبر المصطفى (عليه الصّلاة والسّلام) ابن سيّد النّاس اليَعْمُري[1] الذي قال بالمناسبة :

---

[1] - هو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعْمُريّ الأشبيلي أسلا، وكان راوية للحديث، عارفاً بأصوله، وحافظا لرجاله «وكان إذا قرأ الحديث يَسْنُده إلى أن ينتهي إلى النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) ...» - (عنوان الدّراية: 247) - ولد سنة 600هـ وتوفّي يوم الثلاثاء 23 جمادى الثّانية سنة 659هـ .

أيا سائراً نحو الحجاز وقصْدُهُ إلى الكعْبة البينِ الحرامِ بلاغُ
ومنهُ إلى قبر النّبيِّ محمّدٍ يكونُ له بالرّوْضتيْنِ مَراغُ
فبلغْتَ ما أمّلْت كم ذا أراغَهُ أُناسٌ نَسُوا قصد السّبيلِ فَراغوا
فيا أسفي كم ذا تمنّيْتُ قصْدَهُ فأدفعُ عن قصدي له وأُراوغُ
وقصَّرَني جِدّي إذِ الأمرُ في يدي جميعٌ، وعندي ثروة وفراغُ
فالآنَ وقدْ خَطَّ المشيبُ بمفرِقي وكَلّلَ رأسي منْ حُلاهُ صِباغُ
أُعلّلُ نفسي بالمُنى وتَصُدُّني ذُنوبٌ لها عند الفراقِ مَصاغُ
إذا ما أجلْتُ الدّهر فيهِ فكيف لي يسوغُ شرابٌ أو يَلَذُّ مَساغُ
عسى توبةٌ قبل المماتِ وزوْرةٌ فيَنْضَح من شَيْن الذّنوبِ رِداغُ[1]
وألقى شيوخاً يؤْنسُ المرءَ منهمُ أحاديثُ صدقٍ تُجْتَلى وتُصاغُ[2]

المولديّات في المغرب

لقد كانت ظاهرة الاحتفال بالمولد النّبويّ قائمة في الأقطار المغاربيّة مجتمعة، ويذكر سالم لغزالي أنّ عدد الأبيات التي قيلت بمناسبة المولد النّبويّ الشّريف على عهد السّعديّين وحدهم بلغت زُهاء 977 بيتاً[3]، فإذا أضفنا إلى هذا العدد الممالك السّابقة على عصر

---

[1] ـ الرِّداغ: الطّين والوحل.

[2] ـ عنوان الدّراية في من عُرف من العلماء في المئة السّابعة ببجاية: أبو العبّاس الغبريني ـ تحقيق: رابح بونار ـ الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر 1981م، ص 248 ـ 249.

[3] ـ ذكر ذلك في بحث له نال به دبلوم الدّراسات العليا عنوانه: « أصول الإبداع الأدبي في العصر السّعدي » سنة 1977 ـ 1978 بجامعة الرّباط تحت إشراف الدكتور عبّاس الجِراري ـ رسالة مرقونة بكلية الآداب.

السّعديّين واللاّحقة لهم عبر القرون والحقب، فإنّ ذلك يعني أنّ هنالك دواوين شعريّة نُظِمت في المولد النّبويّ، ولو جُمعت هذه الأشعار كلّها لصار لدينا الألوف من الأبيات ؛ علْماً بأنّنا لم نتمكّن من إثبات نماذج من دول المغرب العربيّ الأخرى، ليس تجاهُلاً ولا إهمالاً، ولكنْ لانعدام الوصول إلى المظانّ التي جمعت بين دفّاتها هذه الأشعار؛ ومن الشّعر المغربيّ الذي أُنشِد احتفالاً بذكرى المولد النّبويّ ما صدح به الشّاعر محمد بن مجبر المساري :

حدِّثْ حديثَ أُصيْحابي وسُمّاري ... وجيرتي، حالتيْ يُسْرٍ وإعْسارِ

القادحينَ بزِنْد البيْن نارَ أسى ... بين الجَوانحِ من شوقٍ وتَذْكار

ركْبٌ سرى، وظلامُ اللّيلِ مُعْتكِرٌ ... يؤمُّ بيداءَ لا يسْري بها سارِ

بانوا، فما زلتُ أبكيهمْ وأندُبُهمْ ... أُناشدُ الوجْد آصالي وإبكاري

وخلّفوني صريعاً في ديارهِمُ ... نِضْوَ ضَنىً في أُسَيْحاقٍ وأطْمار[1]

وألْثم الرّبع من شوقي ومن حَزَني ... أبيتُ حِلْفَ صباباتٍ وأفكارِ[2]

فالأبيات فيها تأسّف وتأثّر على فراق الأحبّة الذين لم يتركوا الشّاعر ضجراً منه ولا ضيقاً به، ولكنْ لأنّهم توجّهوا إلى البقاع المقدّسة سالكين فِجاجاً ووهاداً ونُجوداً مُتمنّياً أن يكون وجوده معهم.

أمّا الشّاعر محمد بن عليّ الفشتالي فينحو منحىً آخر حين يُعاهد نفسه ويُشْهِد القوم على أنّه لو بلغ مراده وأدرك مبتغاه بوساطة امتطاء تلك النّاقة لحرَّم لحمها ونحرها، ولتركها حرّة طليقةً، ولأغْدق عليها إكراماً وتقديراً؛ يقول :

1- النّضْو: المهزول الدّقيق/ الضّنى: الضّنى: المرض/ الأسيحاق والأطمار: الثّياب البالية.

2- أشعار سعديّة(ملحق مناهل الصّفا) تحقيق: عبد الله كنّون، المطبعة المهديّة - تطوان1384هـ (1964م):297 - 298/ عن : دبلوم لغزالي:262.

يا حادِيَ البُزُلِ النِّجابِ بمَهْمَهٍ	ضلَّ الظّليمُ به ونسرٌ قشعَمُ[1]
أغوالُهُ وقفٌ على أرجائهِ	فالرّيحُ إنْ مرّتْ به تترنَّمُ[2]
ألِفَ اغتيالَ السّالكينَ بقفرة	بطشاً، فليس تكاد نفسٌ تَسلَمُ
صِفْرُ البسائطِ والذّرى مُتهَيِّبٌ	بالآلِ عن دَرَك الحَيا يتلثّمُ[3]
تطفو النَّجائبُ فوقه فكأنّها	سُفُنٌ يُدافعُهنَّ يَمٌّ خِضْرِمُ
رفقاً على قلبي الذي ذهَبتْ به	تلك النّواجي في النّوى تتحكّمُ
هنَّ القِسيُّ لرمي أهداف المُنى	أوتارُها الحُدا، ونحن الأسهُمُ[4]
وإذا المَطيُّ بنا بَلَغْنَ محمّداً	فظُهورُهنّ على الرّجال تُحَرَّمُ
ولها المراعي الخضْرُ حولَ مناهلٍ	زُرْقٍ ببيضِ أزاهرٍ تتنعَّمُ
بلغتْ بنا شمسَ الرّسالةِ والهُدى	سيف الأُلوهيّة الذي لا يُكهَم[5]

وإذا كان محمد بن علي الفشتالي قد عاهد نفسه على أن يُحرّر النّاقة التي أوصلتْه إلى البقاع المقدّسة أو توصله في هذا النصّ، فإنّ قريبه (من عائلته، على ما يبدو) عبد العزيز الفشتالي في النّصّ الآتي يُعرب عن اشتياقه، ويعبّر عن عواطفه المتأجّجة نحو البقاع المقدّسة؛ مُتطلّعاً إلى الوصول؛ وآملاً في لثْم ثرى تلك الأرض الطّيّبة التي تختزن في أحشائها جدث الحبيب المصطفى؛ يقول :

1 - المهمه: المفازة لا ماء فيها ولا أنيس/البزل ج. بُزول: وهو البعير في السّنة الثّامنة أو التّاسعة.

2 - أغوال ج. غَوَل: الحية (والمراد هنا التّهلكة والضّياع).

3 - الآل: السّراب/ الحيا: المطر.

4 - الحُدا : سَوْق الإبل والغناء لها.

5 - مناهل الصّفا - تحقيق: كنّون، ص 233ت 234./ كهَم يَكهُم فو كهام، أي: لا يقطع/ ولا يُكهم: لا يفلّ.

أَحِـنُّ إلى تلـك المعاهـدِ إنّهـا معاهِدُ راحاتي ورَوْحي ورَيْحاني
وأَهْفو مع الأشـواق للوطن الـذي به صحَّ لي أُنْسي الهَنيُّ وسُلْواني
وأهفـو إلى أعـلام مكّـةَ شـيّقاً إذا لاحَ بـرقٌ مـنْ شَـمام وشَـهْلانِ
أُهَيْلَ الحِمى دَيْني على الدّهر زَوْرَةٌ أحُثُّ بها شوقاً لكم عزميَ ألواني
مَتى يَسْتفي جَفْني القَريحُ بنظْـرةٍ يُـزجُّ بهـا مـنْ نـوركمْ عـينُ[1]

والقمين بالإشارة أنّ الشّعر المغربيّ عُني بالمولديّات من جوانبه المختلفة، فوظّفَ ألفاظاً دينيّة تَسِمه بخصوصيّة متميّزة، حيث تناول في مضامينه حبّ الرّسول الكريم والتّطلّع إلى زيارة الرّوضة الشّريفة، ولوم النّفس التي كثيراً ما تتقاعس عن الزّيارة، فتُسوّف وتزعم أنّ العمر مديد، والشّيخوخة قاصية، والوصَب غائب؛ ومن القصائد التي تسترعي الاهتمام ما تغنّى به الشّاعر عبد الواحد الحسني في الغرض نفسه، فقال :

ألا حـيِّ نجْـداً والمعاهـدَ مـنْ نجْـدِ وسائلْ بها مَنْ حلَّ أَكْنافَها بَعْدي
معاهـدُ أُنْـسٍ لا تـزالُ عِراصُـها مصارعَ عُشّاقٍ ومَسْلىً لذي وجْدِ[2]
نَعِمْنـا بهـا والعـيْشُ فَيْنـانُ مـورِقٌ وجُرْدُ الهوى مِلْءُ العِنانِ بنا تَرْدي[3]
أَحِـنُّ إلى تلـك المعاهـدِ والرُّبـى وما ذا الذي يُغْني حنينيَ أو يُجْدي ؟
ليالِيَ أَلْهو بالكواكب كالدُّمى ويَـنْعَم طَـرْفي في معاطفهـا المُلْدِ

---

[1] - شعر عبد العزيز الفشتالي - جمع وتحقيق ودراسة :نجاة المريني، مكتبة المعارف الجديدة ، الرّباط 1986مص 423/ عن لغزالي في دبلومه..
[2] - العِراص- مفردها عَرَصَة: وهي كلّ بقعة واسعة ليس فيها بناء.
[3] - تَرْدي: تعدو- يقال: ردى الفرس: إذا عدا ورجِم الأرض رجْماً.

وكلّ هضيمِ الكَشْحِ أغْيدَ ناعمٍ ... فللّه منْ عِقْدٍ عليه ومنْ قَدٍّ
إذا هزَّ عضْبَ اللّحْظِ ثمّ سطا بهِ ... فَرى فوقَ ما يَفْري المجرَّد منْ غِمدٍ[1]
أُغازِلُهُ فوق الكَثيبِ سُحَيْرةً ... ويُبْدي منَ الأشواقِ فوق الذي أُبْدي
فَبِتْنا على رغْم الحسودِ وبيْنَنا ... أحاديثُ أَحْلى منْ أَمانٍ ومنْ شَهْدِ
أُطارحُهُ الشَّكْوى وأخْضَعُ ذِلّةً ... وأُشْفقُ منْ هَجْرٍ يُتاحُ ومنْ صدٍّ
إذا ما رمى طَرْفي إلى روض خدّهِ ... فما شئْتَ من زهر جَنيٍّ ومنْ وردِ
فللّهِ عينا مَنْ رآنا وبيْنَنا ... تُدارُ كؤوسٌ منْ وِصالٍ ومنْ وَعْدِ
هو العيشُ لو أنّ الشّبيبة ساعَدَتْ ... ببُقْيا، وما إنْ منْ بقاءٍ ولا خُلْدِ
وقدْ نَسخَ المَشيبُ حُكْمَ شبيبتي ... فما أنا منْ ليلى، ولا أنا منْ هنْدِ
ولكنْ إلى الأُخْرى سَموْتُ بهِمّةٍ ... تُباري نَجائباً لخير الوَرى تَخْدي[2]
عِمادِ العُصاةِ المُذْنبينَ ومَنْ به ... يَلوذُ ذوو الآمالِ طُرّاً ولا يُكْدي[3]

ولا بدّ من التّأكيد، بأنّ المقدّمات الغزليّة للمولديّات كانت شيئاً عادياً، لأنّ البنية الفنيّة للمولديّة كانت تستدعي الالتجاء إلى هذه الخاصّية.ولذلك كان شعراء هذا الفنّ لا يستنكفون من التّغنّي بمحاسن المرأة قبل الخلوص إلى المديح، وإن لم يكن التّغزّل بطبيعة الحال صريحاً، وإنّما هو عبارة عن نسيب لا أكثر.وهذا الذي أتاه الشّعراء جعل صاحب خزانة الأدب[4]، مثلما يذكر لغزالي،[5]، يضع

---

[1] - العضب: السّيف القاطع الحادّ/ فرى: قطع.
[2] - خدى البعير يَخْدي خدْياً وخدَياناً: إذا أسرع وزجّ بقوائمه.
[3] - مناهل الصّفا - تحقيق: كنّون، ص 225 - 226. / لا يُكْدي: لا يقطع عطاءه.
[4] - خزانة الأدب ونهاية الأرب:تقيّ الدين بن أبي بكر ابن حجّة الحموي - ،دون تاريخ ولا مكان الطّبع، ص14..
[5] - المرجع السابق، ص 269.

شروطا للقسم الغزليّ الذي تُستَفتَح به المولديّة، فأشار إلى ضرورة التّضاؤل والتّعْريج على ذكر سلْع، ورامة، وسفْح العقيق، والعذيب، والغوير...والابتعاد عن ذكر محاسن المُرْد والتّغزّل في ثقل الرِّدْف ودقّة الخصْر، وبياض السّاق...

ومن النّماذج التي تمثّل هذه المقدّمة النّسيبيّة ما تغنّى به محمد بن عبد الواحد الحسني قائلاً :

أَ مُـذابُ تِبْـرٍ راقَ أم صَـهْباءُ ... تَـسْعى بهـا غانيـةٌ حَـوْراءُ
فَتّانَـةٌ مـنْ فَرْعهـا وجَبينِهـا ... يبـدو الـصّباح، وتنْشَأُ الظّلْمـاءُ
مـنْ قَدّها الْمَيّاسِ مـعْ لحظاتها ... خَجَلـتْ غُـصونٌ مُـيَّسٌ وظِبـاءُ
يَـثْني الـصِّباءُ قَوامهـا فإخالهـا ... غُـصْناً رطيبـاً رنَّحتْـهُ صَـباءُ[1]
يَحكي وميضَ البرقِ ليلاً ثَغْرُهـا ... وحكـتْ شِهاباً عينُهـا الحـوْراءُ
لا عيبَ فيهـا غير سُقْمِ لـواحظٍ ... تُـنسي الظّبـاء، وأنّهـا هيفـاءُ
إنّـي شُغفْتُ بهـا كأنّـيَ عُـرْوةٌ ... في حبّهـا، وكأنّهـا عفْـراءُ
مـا أَبْصَرتْ عيني عجيبـاً مثلهـا ... غُـصْناً مـن البـان علاهُ ذُكـاءُ
مـنْ للبُـدور بحـسنها وبهائهـا ... ولقـد علاهـا مـن سَناه بهـاء
هـي الدّواءُ لما أُعاني مـن ضَنى ... أبـداً، ومنهـا كـان ذاك الـدّاء
سَكَنتْ فؤادي فلسْتُ أنْسى ذكْرها ... مـا هَـزَّ غُـصْناً شَـمْألٌ وصَـباءُ
إلاّ بمـدحي صفْوةَ الأرسـال مَـنْ ... مِـن نـوره تتكـوّن الأضْـواءُ[2]

---

[1] . الصِّبا (بكسر الصّاد بالهمز وبدونه):الفتوّة والشّباب/ والصَّبا (بفتح الصاد بالهمز وبدونه):الرّيح الرّخْوة التي تهبّ من الشّرق.

[2] . أشعار سعدية: 292 . 293/ وصاحب هذه القصيدة هو نجل عبد الواحد الحسني المتوفّى سنة 1009هـ مثلما أبان عنه صاحب روضة الآس: 192.

وزبدة القول إنّ الدّارسين والباحثين في المولديّات كادوا يتّفقون على الخطْوات التي يقْتفيها الشّعراء في هذا الفنّ، ولم نجد لهم اختلافاً بيّناً إلاّ في بعض الهوامش؛ وممّا صار عليه شعراء المولديّات في المغرب العربيّ هو أنّهم كانوا يستفتحون بمقدّمة نسيب، ثمّ ينتقلون إلى كرم أرومة الرّسول (صلى الله عليه وسلم) ونسب، وينتقلون بعد ذلك إلى تَعْداد المعجزات التي صاحبت مولده، أو معجزاته الكبرى التي يعرفها معظم المسلمين، ولاسيّما العظيمة منها التي تهزّ كلّ ضعيف إيمان، أو ملحد كافر. ومن هذه المكوِّنة يقفز إلى استعراض آثار الدّعوة المحمّدية وما خلّفتْه من صور مشرقة، حتّى إذا أنهى ذلك كلّه انتقل إلى مدح الأمير أو السّلطان[1] الذي يكون قد قام بتنظيم هذا الحفل البهيج على شرف المدعُوّين لليلة ذكرى مولد الرّسول الكريم[2].

كلمة ختاميّة :

لا بدّ من التّنويه، بأنّ المولديّات نالت حظوة، ولقيت اهتماماً من دارسين عديدين، وقُدّمت بشأْنها بحوث جامعيّة منها بحث أحمد موساوي بعنوان : «شعر المولديّات في العصر الزّياني» ناقش به دكتوراه الدّولة ستة 2003م ونشره فيما بعد كتاباً مُحوّراً عنوانه إلى

[1] ـ يراجع أصول الإبداع في العصر السعدي:270 ـ274/ وينظر كتاب الدكتور أحمد موساوي الموسوم:« المولديّات في الشّعر الجزائريّ القديم».

[2] ـ لم يكن الأمر يختلف ما بين شعراء الزيانيين وشعراء السّعديّين وشعراء المرينيّين، فإنّهم جميعا كانوا ينهجون نهْجاً مُماثلاً، ولعلّ النّموذجات التي أوردناها من قبل تكفي أمثلة لذلك كلّه.

«المولديّات في الأدب الجزائريّ القديم»[1]، كما كتب في هذا الموضوع دارسون وباحثون آخرون في دوريّات مختلفة.

وبعد، فهل استطاع هذا البحث أن يوفّي الموضوع حقّه ويُغطّي جوانبه ونقائصه ؟.. إنّنا نكون مغالين إن زعمنا أنّه كذلك، لأنّ المولد النّبويّ كان وسيظلّ مُلهماً للشّعراء، وباعثاً للأفكار النّيّرة لدى الأدباء، وشاهداً لهِمَم الدّارسين والباحثين. ولكنّ البحث، على إيجازه، أظهر مدى العناية التي أحاطها شعراء المغرب العربيّ بهذا المولد العظيم، وكثرة تنافُسهم في الاحتفال به، كلٌّ بطريقته، وبحسب القدرة المادّية، والملَكَة الأدبيّة.بيد أنّه تجلّى لنا أنّ الزّيانيّين فاقوا غيرهم في تمجيده وتبجيله، في طليعتهم أبو حمّو موسى الثّاني الذي يشهد له التّاريخ بتأصيل هذا الاحتفال، وتكريم هذا المولد بما كان يقوم به من توزيع للهدايا، وتكْريم للمُنْشدين، وتقْريب لرعيّته في تلك اللّيلة المشْهودة؛ ليلة مولد النّور.

---

[1] - نشر: موفم للنّشر 2008م - الجزائر.

فنّ المديح النّبويّ في العهد العثماني

- مقاربة لمضامينه وأشكاله -

أوّلاً- افتتاحيّة :

القرن التّاسع الهجريّ جسراً ما بين الزّيانيّين والعثمانيّين :

لن نلج إلى موضوع المديح النّبويّ في العهد العُثمانيّ قبل أن نُلقي إضاءة بسيطة على هذا العصر الذي يُعدّ بمثابة جسر عَبَر عليه الإنتاج الأدبيّ والفكريّ بصورة عامّة إلى العهد العُثمانيّ مُنْطلقاً من الخلفيّات الثّقافية والتّاريخيّة التي أسّست لهذا العصر ومنحتْه زاداً مُعْتَبَراً اعتمده في بناء صرْح ثقافة الفترة المذكورة؛ يقول سعد الله : «فإنتاج القرن التّاسع كان في الواقع خاتمة لإنتاج فترة امتدّتْ ثلاثة قرون، مُبْتدئةً بعهد الموحّدين»[1].

وما كنّا لنقوم بهذه التّوطئة، لولا أنّ ما أبداه الدّارسون من اجتهادات وإحصاءات دفعت بهم إلى أن يُقرّروا بأنّ القرن التّاسع يُعدّ بدون مجازفة أو مبالغة من أخصب القرون التي عرف فيها الإنتاج الأدبيّ الجزائريّ ازدهاراً وتنوُّعا، وذلكم ما تنبّه إليه سعد الله أيضاً الذي يقول : « يُعتبر إنتاج القرن التّاسع (...) من أوْفر إنتاج الجزائر الثّقافي ومن أخْصب عهودها بأسماء المثقّفين (أو العلماء) والمؤلّفات. وفي إحصاء سريع أجْريْته لأسماء العلماء المُنْتجين خلال القرن التّاسع يفوق أعدادهم في القرون الباقية مُتفرّقة، ولاسيّما القرن العاشر الذي عَرَف نقصاً كبيراً في عدد العلماء وفي المؤلّفات لأسباب سنعرفها»[2].

وقد ازدان هذا القرن بأشهر الأسماء التي صنعت التّاريخ الثّقافي للجزائر؛ هؤلاء الذين لم يقصروا علومهم عل وطنهم الضيّق،

1- تاريخ الجزائر الثقافي 1 : 27.

2- نفسه 1 : 27.

بل آثروا الارْتحال والإقامة في بلدان المشرق العربيّ ولاسيّما مصر وسورية؛ ومن أشهر الأسماء التي هاجرت بلدها رغبةً في نشر العلم والمعرفة، أو لأسباب أخرى وأدركها الأجل المحتوم في الغربة : عبد لكريم المغيلي الذي انتقل من تلمسان إلى السّودان، والونْشريسي الذي انتقل من تلمسان إلى فاس غُرّة محرّم سنة 874هـ حاملاً معه خزائن علْمه الكامنة في صدره ليبُثّها خارج وطنه؛ ذلك أنّ موقف الونشريسي من الحكّام كان يتّسم بالصّرامة وعدم التّزلّف إليهم، وذلك ما دعاه إلى أن يثبت مقولة للعالم المجتهد القاضي محمد المقري (ـ 795هـ) فحْواها أنّ «شرّ العلماء علماء السّلاطين»[1]، ومن العلماء المهاجرين أيضاً هناك أبو الفضل محمد المشدّالي، وأحمد بوعصيدة البجائي، وأحمد بن يونس القسنطيني، وابن صعد التّلمساني[2]، وعبد الرّحمن الثّعالبي، وأحمد بن عبد الله الزّواوي، ومحمد بن يوسف السنوسي.

وممّا لا نغفل ذكره هاهنا، هو أنّ المدن الجزائريّة في هذا القرن عرف بعضها تميّزاً خاصّاً في الأُسر العلميّة ورجالات الفكر كتلمسان (العقبانيّون والمقريّون والمرازقة وأبناء الإمام ...)، وقسنطينة (أسرة الفكون) وبسكرة التي اشتهرت بشاعرها أبي محمد عبد الله (في

---

[1] ـ ينظر «البستان» لابن مريم التلمساني ، ص 155.

[2] ـ هو محمد بن أحمد المعروف بابن صعد صاحب كتاب «النّجم الثّاقب فيما لأولياء الله من مفاخر المناقب»، تُوفي بمصر سنة 901هـ .وله قصيدة أنشدها في مدح الرّسول (صلى الله عليه وسلم) في كتابه المذكور، كما يُعْزى له كتاب آخر في التّراجم، وعنوانه:« روضة النّسْرين في مناقب الأربع المتأخّرين» اقتصر فيه على ثبْت لسير كلّ من : محمد لهواري، وإبراهيم التّازي، والحسن أبركان، وأحمد الغماري...بيد أنّ هذا العنوان يتشابه مع عنوانٍ كتابٍ للشيخ محمد السّنوسي (وهو أستاذ ابن صعد) مما أثار جدلاً وأحدث شكّاً لدى الدّارسين ؟!ـ يراجع: تاريخ الجزائر الثّقافي 1 : 65.

المديح النبوي)، ومدينة مازونة التي كانت عَلَماً على الفكر والفقه، حتّى كان الشّخص الذي يملك قدرة استيعابيّة على التّحصيل، ويشتهر بإدراك فنون شتّى في العلم يُمدح بالقول: «كأنّه تعلّم في مازونة»، ومن علمائها يومئذ الفقيه موسى بن عيسى[1] الذي كان علما من أعلامها هو وابنه يحيى[2]، كما كان لمدينة وهران حظّها من المفكّرين والعلماء من أمثال الوليّ الزّاهد محمد الهواري، وتلميذه إبراهيم التّازي، وكان الشّأن نفسه لمدينة الجزائر العاصمة التي ذاع قدْرها وعلا كعبها بوليّها الصّوفي عبد الرحمن الثعالبي[3].

ومثلما أوضحناه آنفا، فإنّ كثيراً من هؤلاء العلماء كانوا يتجنّبون الاحتكاك بالسّلاطين والأمراء تنْزيهاً لأنفسهم عن متاع الدّنيا وزينتها الزّائلة؛ ومن أبرز هؤلاء الشّيخ محمد بن يوسف السّنوسي الذي آثر العُزْلة والتّفرّغ للعبادة ولتّدريس والتّأْليف، ومثله الونشريسي إضافةً إلى القاضي محمد المقري الذي سبق الحديث عنه. ولكنْ للحقّ، فإنّ علماء الجزائر في القرن المذكور، لم يكونوا يُحارَبون من الحكّام وحدهم، وإنّما قد طالهم التّضييق والتّعسّف والإهمال إلى درجة النّبْذ من بعض طبقات المجتمع إلى درجة أنّهم كادوا لهم ومكروا وأسمعوهم ما لا يرضَوْن؛ يقول سعد الله موضّحاً دسائس المجتمع لهم: «لم يكونوا يشْكون من ظلْم الحكّام فقط، بل كانوا يشْكون من ظلم النّاس أيضا، فقد اشتهر الجزائريّون منذ القديم بأنّهم لا يُقيمون وزْناً لعلمائهم ولا

---

[1] - من مؤلّفاته: «ديباجة الافتخار»، و «حلْية المسافر»

[2] - من آثاره: «الدّرر المكْنونة» في علْم النّوازل.

[3] - لتفاصيل إضافية، يراجع: تاريخ الجزائر الثقافي 1: 34.

يعترفون لهم بحُرْمة أو عهد؛ وهي ظاهرة كانت أقسى على هؤلاء العلماء من ظلم الحكّام وظلْم العصر»[1].

وبعد أن أدرك هؤلاء العلماء أنّ مجتمعهم لم يأْلُهُمْ المكانة التي يستحقّونها، وأنّ حظوتهم عنده أدنى بكثير من ذوي الجاه والمال، آثروا المُهاجَر، ورأوْا أنّ البقاء في وطنهم لا يزيدهم إلاّ ازدراءً وتهميشاً؛ قرّروا الاتّجاه نحو المشرق والمغرب عساهم أن يظفروا بتقدير لهم في غير بلدهم، فكان لهم ما أمّلوه غاباً، بيد أنّ الجزائر كانت هي الخاسر الأكبر بتركهم لها ونزوحهم عن أهلها.

وعلى الرّغم من الطّمس الذي تركه شُحّ المرجعيّة عن هذا القرن، فإنّ ثمّة بعض الأسماء التي انفلتت من مقصلة النّسيان على غرار الشّاعر محمد بن عبد الرّحمن الحوضي التّلمساني، والشّاعر أحمد بن الخلوف القسنطيني[2] ومن قبلهما الشّاعر محمد بن محمد العطّار الجزائريّ، وغيرهم.

لقد رأينا إذاً، كيف أنّ القرن التّاسع الهجريّ كان مميّزاً فكراً وثقافة وأدبا، وأنّ العصر العثمانيّ اتّكأ على كثير من أعمدته التي شادت له معالم هدتْه إلى المزيد والتّراكم لا سيّما في المديح النّبويّ، أمّا الجانب الفنّي فلا مقام له هاهنا، لأنّ ذلك يتطلّب وقفة متأنّية شاملة، وليس موضوعنا كذلك.

---

[1] ـ تاريخ الجزائر الثقافي 1 : 49.

[2] ـ يشكّك سعد الله في نسبته إلى قسنطينة إو إلى النّسبة الجزائريّة (م. س. 1: 70) ولكنّ معظم المصادر والمراجع التي احتفلت بالشّاعر لم تطرح أيّ إشكال بخصوص جنسيّته، ممّا يعني أنّ المؤرّخ الجزائري كان قد كتب كتابه منذ فترة، وربما لم تُسعفه المظانّ يومئذ بما يزيل شكّه.

ثانياً - المديح النّبويّ في العهد العثماني :

لقد تنوّعت الأغراض الشّعريّة في العهد العثمانيّ تنوّع الجنسيّات، وتمازج الثّقافات، وهذه الأغراض، وإن لم تعرف تطوّراً، فإنّها سجّلت قضايا عصرها وأسهمت في خزائن الجزائر بما أنشده شعراؤها وتغنّوا به ولاسيّما في المديح النّبويّ الذي نظم فيه معظم شعراء هذا العهد، ممّا يعني أنّ هؤلاء كانوا في شوق إلى زيارة قبر الحبيب المصطفى، ولا يُلتفَت لم يزعم أنّ كثرة هذا المديح كان ناتجاً عن الضّعف الذي أصاب هذا العصر، فالجزائريّون مشهورون بتمسّكهم الشّديد بدينهم وبمحبّتهم العارمة لنبيّهم/ وحرْصهم على المديح النّبويّ منذ القرن السّادس الهجريّ، وذكر ابن عمّار أنّ الشّعراء الجزائريّين كانوا يَنْبَرون للتّغنّي بهذه الذّكرى العطرة كلّما حلّ شهر ربيع الأول، حيث يشرعون في نظْم القصائد والموشّحات النّبويّة، ثمّ يُلحّنونها بالألحان المُعْجبة، ويقرؤونها بالأصوات المطربة، ويتغنّوْن بها في المجالس المُقامة خِصّيصاً لهذه المناسبة التي كان يشهدها العلماء والرّؤساء وأجلّة القوم، وكانوا يستعدّون لهذه اللّيالي بالطّاعات وارتداء الملابس الفاخرة، وهم في كلّ تصرّفاتهم يسيطر عليهم الفرح، ويهزّ أريحيّتهم الاحتفال المخلّد لهذه المناسبة العظيمة[1].

وما لا بدّ من تأكيده أنّ ابن عمّار نفسه كان أحد المسْهمين في هذه الاحتفالات، وأنّه، مثلما يُبين عنه، كان من بين ثلاثة شعراء

---

[1] - تنظر «رحلة ابن عمّار» ص 27/ عن «تاريخ الجزائر الثقافي» 2: 255..

اشْتهروا بنظْم الموشّحات والقصائد المديحيّة في هذه المناسبة، وقد أنشأ موشّحاً مع حلول شهر ربيع الأول عام 1166هـ يقول فيه :

يا نسيماً باتَ منْ زهْر الرُّبى يقْتفي الرُّكْبانْ
احْملنْ منّي سلاماً طيّباً لأُهيْل الْبانْ

ويُخبر هذا الرّحّالة عن نفسه بأنّ له ديواناً كاملاً في المدائح النّبويّة، بعضه موشّحات، وبعضه قريض[1]، ولم يكتف ابن عمّار بإبراز نتاجه وحده في المديح النّبويّ؛ بل إنّه عزّز ذلك ببعض النّماذج لغيره، على غرار الشاعر أحمد المانجلاتي الذي أشاد بمستوى شعره، ووضعه في منزلة واحدة مع كلّ من ابن الفارض (ـ632هـ) والبوصيري (ـ695هـ) فقال عنه إنّه : «مجلى هذه الحلبة، ومقدّم الجماعة، ونائل الجعبة، وإمام الصّناعة، ركّاب صعابها ومذلّلها، ومُسيل شعابها ومسهلها، عاشق الجناب المحمّدي ومادحه بلا معارض، ومثلّث طريقة البوصيري وابن الفارض»[2]. ثمّ استشهد بأبيات لأحمد المانجلاتي في موضوع الحديث النّبويّ، وهي :

باللّه حادي القطار قفْ لي بتلك الدّار واقْرِ السّلامْ
سلّمْ على عُرْب نجْدٍ واذْكُرْ صَبابةَ وجْدي كيفَ يُلامْ
منْ بادَرَتْهُ الدّموعُ شوقاً لتلك الرُّبوع مع الْمقام[3]

---

[1] ـ تنظر رحلته، ص 27.
[2] ـ نفسه، ص 27.
[3] ـ نفسه، ص 27.

ومن شعراء المدح النّبويّ في هذا العصر أيضاً، يرد اسم الأكحل بن خلوف[1]، واسم أبي عبد الله محمد المغوفل الذي وصفه أبو راس بأنّه «أحد أُعْجوبات الدّهر في عمله وورعه وكراماته؛ يشهد لعلْمه قصيدة مدح بها رسول اللّه (صلى اله عليه وسلم) فيها سبعون بيتاً، وليس فيها حرف يستحقّ النّقط؛ بل كلّها عواطل من النّقط، وكفى به حجّة»[2].

هذا، وقد أسهم معظم الشّعراء الجزائريّين في تطوير غرض المديح النّبويّ من أمثال الشّاعر المعروف بالمستغانمي الذي نظم بدوره قصيدة في هذا المجال عُرفت بهائية المستغانمي وهي من المطوّلات استفتحها بالنّسيب، وأنهاها بمدح الرّسول (صلى اللّه عليه وسلم)، وكانت الأبيات الغزليّة وحدها تبلغ العشرين[3]؛ ومطلعها :

هـامَ الجَـوى بهـوى ليلـى فحيّاهـا   قلبٌ تعاطى من الأشْواق أعْلاهـا
ناداهُ سرٌّ هَواها منْ كَوى شَغَفٍ   وعنـد طـور نِـداها اللّـبُّ لبّاهـا

---

[1] - ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله (تاريخ الجزائر الثقافي 2: 237) أنّ هذا الشّاعر ذاعت شهرته كثيراً في فنّ المولديّات إلى درجة أنّ قصائده صارت تُغنّى وتُروى حتّى بعد عصره.

[2] - عجائب الأسفار: مخطوط المكتبة الوطنيّة، الجزائر، رقم: 1632/ عن: تاريخ الجزائر الثّقافي2: 257.

[3] - هذه القصيدة مقسّمة إلى عناوين هي: باب التّغزّل وحسْن التّنزّل، وباب رجوع وانصراف وإقرار واعتراف، وباب التّعْداد وحسْن الإمداد،(وكلّها في وصف الرسول وأخلاقه وأيّامه وصحابته) - يراجع: تاريخ الجزائر الثقافي2: 258.

وهو، وإن خصّص هذه القصيدة للمديح النّبويّ، فإنّه لم يغفل تعلّقه بوطنه وبمسقط رأسه، لأنّ الأمرين متكاملان، والمؤمن حقّاً إنّما هو الذي يتشبّث بدينه، ويَقْتفي آثار رسوله الكريم منهجاً وإيماناً، ثمّ يشفع ذلك باعتزازه بوطنه وذوبانه في حبّه الذي لا ينتهي؛ ولذلك ختم هذه القصيدة السَّنيّة بالحديث عن مدينته مستغانم والدّعاء لها، فقال:

قصيدةُ الْها بها والوصّلُ مُرْدفةٌ   لسيّد الخلق فكرُ العبدِ أهْداها

لطيفةُ النَّسْجِ منْ لُطْف الإله بَدَتْ   بمستغانيمَ مذْ حلّتْ بعَقْواها

واللّهُ يرْزقُها أمْناً ويحْفَظُها   حفْظاً، ويكلؤها دأْباً ويرْعاها

وكان حبّ الشّعراء الجزائريّين للرسول (صلى الله عليه وسلم) عارما، مثلما هو شأنهم في ذلك عبر كلّ العصور، فعزم كلّ واحد منهم على أن يُعطّر اسمه بالمديح النّبويّ على غرار كلّ من ابن سحنون، والمفتي محمد بن الشّاهد الذي يقول في مطلع إحدى قصائده:

بأسمائك الحسنى فتحْتُ توسُّلي   ومنك رجوْتُ العفْوَ أسْمى[1]

وللشّاعر الجزائري محمد بن سليمان أيضاً نصيب في تطوير هذا الجنس الأدبيّ، وقد نصَّ في كتابه «كعبة الطّائفين»[2] على أنّ له شعراً في هذا المضمار[3].

---

[1] عن: تاريخ الجزائر الثقافي 2: 259.

[2] - هذا الكتاب أصلاً هو شرح لقصيدة «حزْب العارفين» الملْحونة التي نظمها موسى بن عليّ اللاّلتي.

[3] - ينظر كتاب «أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر» ج1 ص 162 - 175

وللأديب الشّاعر (أبو عصيدة البجائي) قصيدة في مدح الرّسول بلغت أبياتها خمسة وتسعين (95) سنقف عد بعض ابياتها أدناه، لأنّنا نروم في بادئ الأمر أن نعرّف بهذا الرّجل[1] الذي كان كثير التّرْحال والظّعَن، وخالص النيّة في محبّة الرّسول الكريم، وعارم الشّوق إلى زيارة قبره الطّاهر. وهو لم يقتصر على المدّة المقرّرة في تأدية فريضة الحجّ عادةً ثم يقفل راجعاً إلى أهله، ولكنّه آثر المُكوث بالحجاز ليجاور الرّوضة الشّريفة سنينَ عَدَداً. ومن ثمّ، فقد كانت قصيدته في مدح الرّسول حُبلى بالصّور وبالوصف، وإن لم ترْقَ فنّيّاً إلى بعض القصائد التي قيلت في هذا الغرض لشعراء جزائريّين آخرين؛ بيد أن مضمونها شدّنا إليها وجذبنا صدقها، فارْتأيْنا إثبات بعض أبياتها؛ يقول مُفْتتحاً في إيقاع جليّ، وفي بحر رويّ طالما اعتمده الشّعراء ووظّفوه في قريضهم :

[1] - على الرّغم من المؤلّفات التي خلّفها وراءه، وعلى الرّغم أيضاً ممّا بذله شيخ المحقّقين سعد الله، فإنّ كثيراً من جوانب حياته تظلّ غامضة، إذ إنّنا لا نعرف تريخ ولادته ولا تاريخ وفاته، وكلّ ما وصل إلينا عنه أنّه عاش في القرن التّاسع الهجريّ (15م)، وأنّه هو أيضاً من (مشدّالة) القريبة من بجاية، وأنّه بعد أن هاجر إلى تونس ثمّ مصر، التقى هنالك المشدّالي.. وبعد أن أدّى فريضة الحجّ مرّتين عاد إلى تونس تارة أخرى، وفي هذا القطر راح يسأل عن عائلته ببجاية، وكلّما ذَكَر اسم واحدٍ من أفرادها للمسؤول أُجيب بأنّه انتقل إلى عالم الخلود، فضاقت نفسه وقرّر الأوبة إلى الحجاز عبر مصر.

من مؤلّفاته: «رسالة الغريب إلى الحبيب»، و«أنس الغريب وروض الأديب»، و «تعليقة سنيّة في حلّ ألفاظ الجرومية»، وغيرها... تنظر: « رسالة الغريب إلى الحبيب»: أحمد أبو عصيدة البجائي، تعريف وتعليق وتلخيص: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت (لبنان) - ط1/ 1933م - ص 18 - 30.

سَلوا مَنْ سَلا ذكْرَ الحبيبِ وما دنا   ولم يـدْر أنّ القلـب أولى لمنْ دنـا
أ هـل في سُـلُوٌّ عنـه قمْـت بحجّــة   أمِ الشُّغْلُ في الدُّنيا لَهاكَ أم الْـوَنى
أظُنُّـك قـدْ أهملْتَـه مُتَناسيـــاً   فلسْنا كَما إيّاكَ عندي فخلّنـا[1]

فالأبيات الأولى التي تحمل استفساراً وتطرح تساؤلاً في فحْواه العجَب من قوم شُغلوا عن زيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلّم)، وما كان ذلك إلاّ لإهمالٍ منهم وتَوانٍ وتكاسُل؛ ثمّ يتابع مديحه النّبويّ قائلاً :

حـرامٌ علـى قلـبي سُـلُوٌّ هوائـــه   وكيف سُلُوّي، وهْو لي غايةُ المُنى
ظفِرْنا بساعات الوِصالِ فَصادَفَتْ   سـحائبَ جـودِ اللّهِ فانْهَملَتْ لنـا
فللّــه حمْــداً دائمــاً مُتَواتِـــراً   على ما لنا أوْلى، وشُكْراً لربّنـا
وقفْتُ وقدْ أوْقفْتُ بالباب مُهْجَتي   وآلَيْـتُ أنّــي لا أُفـارق ذا الْفِنـــا
وأقـسمت أنّــي لا ألــوذُ بغيـــره   وأنْ لا أُرى إلاّ علـى البـاب هاهُنا
رضـيتُ بفقْـري والإقامـةُ عنــدهُ   غَنائي قرْبَ المصطفى فليَ الْهَنا[2]

وما ذا عسى النّقد أن يقول في الأبيات التي استشهدنا بها؟ إنّه لن يُلفي فيها شيئاً ذا بال إذا استثينا قداسة الموضوع وسموّه؟!..إنّه لا يستنكف في أن يُدرجها ضمن النّظم العادي، أو الشّعر التّعليميّ الذي لا يبحث عن الصّور، ولا يجري وراء الخيل، وإنّا يحرص على

[1] - يبدو من الافتتاحيّة أنّ الأبيات تتّسم بالرّكاكة والضّعف، ولكنّ الشّاعر يُخالفنا الرّأي حين يذكر في (رسالة الغريب إلى الحبيب : 66) أنّ قصيدته صادفت محلّ قبولٍ وإقبال، وغمرتْها غوامر من الفضل والكمال (!).

[2] - رسالة الغريب إلى الحبيب، ص 67.

أن يُسجّل حقائق يسعى من ورائها إلى أن يُبيّتها ويُرْسيها، وهذه الأبيات تفتقر إلى الجانب الفنّي وتخلو من الشّعريّة التي هي أساس كلّ قريض. بل إنّ جملها الشّعريّة مُسفّة، والبنى اللّفظيّة سطحيّة، وإلاّ، فهل من الشّعريّة أن تندسّ عبارات مثل :

- لا أفارق ذا الفِنا

- على الباب ها هنا

- غنائي...فلي الهَنا؟!!

إنّ مثل هذه البنى التّركيبيّة عادية جدّاً ما ينبغي لها أن تتطاول إلى مجال الخطاب الشّعريّ الذي يعصر صاحبه ويؤرّقه أيّاماً وليالي من أجل أن يظفر ببنية إفراديّة واحدة، ويجعله يمزّق شرْنقة اللّفظ، وتنميق الخطاب بصور مُتنامية في مبناها، متجدّدة في معناها. أمّا إن اعتبرْنا هذا النّوع شعراً فإنّنا سنسترجع تهكّم الجاحظ على مثل هؤلاء، حين ذكر منذ قرون، أنّ الشّعر لا يتمّ بالوزن والقافية وحرف الرّويّ فحسب، وإنّما بشروط أخرى يحذقها النّقّاد والأدباء، لأنّنا لو طبّقنا هذه الخاصية وحدها لكان في كلّ أمّة ملايين من الشّعراء يتمثّلون في الخضّارين وبائعي السّمك والسّائلين، وهلمّ جرّاً.

ونمضي مع الشّاعر الذي ما يزال يبُثّ وجده وتعلّقه بالرّسول الكريم وسنّته الطّاهرة، وهذا قبل أن يتخلّص من المديح النّبوي لينتقل إلى مدح السّلطان الحفصيّ أبي عمرو عثمان الذي كان

ملكاً على تونس، مع الدّعاء له بالتّمكين والنّصْر، مثلما ينصّ على ذلك محقّق الكتاب[1]، وهذا قبل أن يختم قصيدته قائلاً :

وناظمها العبْدُ الْبِجائيُّ أحمدُ رجاكَ بأنْ يَلْقاكَ يا ربّ مؤْمنا[2]

ويبدو أنّ مديحيّاته النّبويّة الأخرى أجمل وأكمل وألطف من الأبيات التي أوردناها من قبل، فقد أنشد الشّاعر مديحاً نبويّاً آخر يقول فيه :

بفيض فضْلك حقّقْ سيّدي أملي ولا تكِلْني إلى علْمي ولا عملي

فما سوى حسْن ظنّي فيك ينْفَعني وإنْ يخبْ فيك هذا الظّنُّ وا خجلي[3]

ويُعرف عن الشّاعر الفقيه (أبو عصيدة) أنّه أطال المُقام بالحجاز مُجاوراً قبر الرّسول الكريم، فعزّ عليه أن يفارق هذه البقاع المقدّسة على الرّغم من شوق أهله وصحبه إليه، قال ،يردّ ضمنيّاً، على منْ رغب في ظعنه عن المدينة المنوّرة، والأوْبة إلى وطنه؛ فذكر أنّه كان من قبل مُتشوّقاً إلى الدّيار، مُتلهّفاً على لقاء الأحباب؛ قال : «لي فيه من الأمر ما لا يُطاق، حتّى كنت أتعلّل بالرّياح وإيماض البروق في الغُدُوّ والرَّواح، وكانت الذّكْرى لذلك تُقلقني وإلى المعاهد المألوفة في كلّ وقت تُشوّقني، وأمّا الآن فلا تحرّكني ولا تُطْربني ولا تُهيّجني ولا تُعْجبني»[4].

---

[1] - خصّص الشّاعر للسّلطان نصف القصيدة، ممّا يعني أنّ مدح الرّسول كان مطيّة إلى مدح السّلطان، وأنّ الشّاعر مزج بين الغرضيْن على ما بينهما من فرْق جليّ، وبوْن شاسع، إذ لا يمكن الجمع بين الغرضين في موطن واحد احتراماً لقداسة النّبيّ الكريم، ورفْعة لشأنه، وتعظيماً رسالته.

[2] - الرّحلة، ص 69.

[3] - تتألّف المقطوعة من سبعة أبيات فقط - تُراجَع الرّحْلة، ص 69..

[4] - نفسه، ص 72.

ثمّ أنشد بيْتيْن قائلاً :

إذا كنْتُ جار المصطفى ونزيلَهُ فيقْبُح بي شوقي لأهلي وجيراني
أ أرْغب عن دارٍ بها الخيرُ كلُّه وفيها هَوى القاصي وأُمْنيةُ الدّاني

ويملأه الافْتخار بمجاورة الرّوضة الشّريفة، ويشْمله الاطمئنان، ويعمّه الارْتياح والسّكينة بعد أن لم يرض عن غيره من البقاع مُلْتحَدا، وحينئذ، لم يملك نفسه إلاّ أن يُعْرب عن حُبّه للمصطفى وتمسُّكه بسُنّته الطّاهرة؛ يقول :

فررْتُ من الدُّنْيا إلى ساكن الحِمى فــرارَ مُحــبٍّ لائــذٍ بحبيــب
أنــا اليــومَ جــارٌ للنّبيّ بطَيْبَــة فــلا طيــبَ في الــدُّنيا يُقــاس[1]

وحين نتغلّغل في جران الأدب الجزائريّ القديم، ولاسيّما الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ نستنتج أنّ بعض الجزائريّين خَصَّص ديواناً كاملاً للمديح النّبويّ وحدَه مثْل عبد الكريم بن الفكّون(-) الذي نظم ديواناً مستقلاً في المديح النّبويّ؛ علْماً بأنّ هذا الشّاعر كان أميراً للحجّ، وكان يقوم بإمارة القافلة المتوجّهة إلى تأدية مناسك الحجّ سنويّاً حتّى بعد أن وهن العظم منه واشتعل الرّأس شيباً[2]، وقد نظم هذا الدّيوان مُرتّباً بحسب الحروف الهجائية[3]، ويبلغ عدد أبياته : 700.

---

[1] - الرّحلة، ص 75.

[2] - تنظر «رحلة العياشي » 2: 392 - 396.

[3] - قام بنظْم هذا الدّيوان الخاصّ في أثناء مرضه الذي استمرّ حولاً كاملاً وهو قعيد بيته بعد أن أُصيب بشللَ نصفيّ في الجهة اليسرى من جسمه سنة 1031هـ .وبعد أن انتهى من آخر بيت هذا الدّيوان شفاه الله اللّطيف الخبير- يراجع «منشور الهداية» ، ص 243 - 244.

وكان ابن عمّار (المتوفى بعد سنة 1205هـ) من المقتدرين البارعين في مختلف الأغراض الشّعريّة، حيث نظم في الغزل، وفي المدح، وفي وصف الطّبيعة، وفي الخاطرة، وزكّى أولئك كلّه بمديحيّاته النّبويّة التي بلغت درجة من الاقتدار والنُّضْج، وهو، وإن لم تصلنا عنه قصائد شخصيّة له في الموضوع، بل آثر أن يُعرّف بغيره من الشعراء الذين أبدعوا وأجادوا في المديح النّبويّ، فإنّ ثمّة بعض الأبيات التي انفلتت من أيدي النّسّاخ فاشتهرت وذاعت، منها البيت :

الرّكْبُ نحو الحبيبِ قدْ سارا   يودّ شوقاً إليه لو طارا

وكان الشّعراء الجزائريّون، على صدق وإخلاص للنّبيّ الكريم، وللْمقامات المقدّسة التي وطئتْها قدماه الشّريفتان، فتغنّوْا بكلّ ما يمتّ بصلة إلى أولئك كلّه : مدحوا مكّة المكرّمة، ولمدينة المنوّرة، ورغّبوا في ارْتشاف ماء زمزم، والتّبرّك بالكعب الشّريفة، وتقْبيل الحجر الأسود، وهلمّ جرّاً... بمعنى أنّهم تلهّفوا على زيارة الأماكن المقدّسة، واشْتاقوا في حرارة وإيمان إلى الحلول بها والانتشاء بمشاهدتها حِساً ومعنى، ومن ذلك أنّ الشّاعر الصّفيّ أبا محمد عبد الله بن عمر البسكري[1] خَصَّص قصيداً مطوّلاً للتّنْويه بالمدينة المنوّرة، ومدْحها مُتعرّضاً في غضون مدْحه إيّاها للرّسول الكريم وسيرته العطرة؛ يقول :

---

[1] - هو من الشّعراء الذين تُجوهلت سيرتهم، ولا نعرف عنه إلاّ أنّه كان معاصراً لإبراهيم بن عليّ بن فرحون صاحب كتاب (الدّيباج المذهّب) - ينظر: نحلة اللبيب لابن عمّار، ص 9.

دارُ الحبيـب أحـقُّ أنْ تَهْواهــا ونحـنُ مـنْ طَـرَبٍ إلى ذكْراهـا
وعلى الجُفون متى هممْتَ بزَوّرةٍ يا ابنَ الكرامِ عليك أنْ تَغْشاها
فلأنْـت أنـت إذا حللْـتَ بطيْبـة وظلِلْـتَ تَرْتَـعُ في ظِـلال رُباهـا
معْنى الجمالِ مُنى الخَواطرِ والّتي سَلَبَتْ عُقولَ العاشقينَ حلاها
لا تحْسب المِسْك الذّكيَّ كتُرْبها هيهات! أيـن المسْكُ مـنْ رُباهـا
طابتْ، فإنْ تبْغ التّطيُّب يا فتى فأدمْ على السّاعات لَثْم ثَراها[1]

وممّا أنشده الحوضي (-) في مدح الرّسول (صلّى الله عليه وسلم) قوله من قصيدة طويلة تبلغ واحداً وأربعين بيتاً :

لا تسلْ عـنْ غَـرام قيسٍ وليلى واسْتمعْ سورةَ الهُدى كيف تُتْلى
آيـةُ الحـبِّ في المُحبّينَ وجْـدٌ معـه لا تـرى الحيـاةَ بـأولى
أنـا صـبٌّ مُتيَّـمٌ مُـسْتهامٌ لم يـدعْ لـي مـنْ أُحبّـه عقـلا
قدْ سرى حُبُّه بكلّي وبعضي كيـف أسْلو، وكيـف لـي[2]

وثمّة شعراء كثيرون من الجزائر في الفترة المذكورة تناولوا فنّ المديح النّبويّ، بل وتفوّقوا فيه؛ منهم الأكحل بن خلوف، وأبو عبد الله محمد المغوفل «وكلاهما قد اشْتهر في هذا الباب، ولاسيّما الأوّل، حتّى أصبحت قصائده تُغنّى وتُرْوى على مختلف العصور، وكلاهما أيضاً من رجال الصّوفية»[3].

وقد أرّخ أبو راس للشّاعريْن مُثْنياً عليهما ومُبجّلاً إيّاهما ومقدّراً عبقريّتهما، وقد وصف المغوفل بأنّه « أحد أُعْجوبات الدّهر

---

[1] - نحلة اللبيب، ص 9.
[2] - تاريخ الجزائر الثّقافي 1: 71.
[3] - نفسه 2: 257.

في عمله وورعه وكراماته؛ يشهد لعلْمه قصيدة مدح بها رسول الله (صلّى الله عليه وسلم) فيها سبعون بيتاً، وليس فيها حرف يستحقّ النّقط، بل كلّها عواطل عن النّق"، وكفى به حجّة»[1].

وإذا كان هذا حال الشّعراء الذين لم تذع شهرتهم كثيرا، فإنّ ثمّة شاعراً وناقداً وباحثاً لا يجهل اسمَه تاريخُ الأدب، ولا يتجاهل أعمالَه الدّارسون شرْقيُّهم وغربيُّهم، وهذا العلَم البارز في مجال البحث والتّوثيق والنّقد هو المقري (ـ 1041هـ) الذي كان من أرز أدباء عصره ونقّادهم، والذي حجّ أكثر من خمس مرّات، وألّف بعض كتبه في المدينة المنوّرة، وله قصائد عديدة في المديح النّبويّ، كما كان من الشّعراء الذين نظموا في المديح النّبويّ المفْتي محمد بن الشّاهد الذي له قصيدة في هذا الغرض انطلق بها من التّوسّل برسول الله (صلّى الله عليه وسلم) لقضاء الحوائج، وللشّفاء من العِلل، والوصول إلى الدّرجات العُلا يوم القيامة، وهي منزلة أهل الحُسْنى؛ فقال في هذا الصّدد :

بأسمائك الحسنى فتحْتُ توسّلي ومنك رجوْتُ العفْوَ أسْمى مطالبي

كلمة ختاميّة :

لقد اتّضح لنا من النّماذج التي أتينا على ذكرها في هذا البحث أنّ شوق الشّعراء الجزائريّين العارم للرّسول الكريم جعلهم يُنشدون مطوّلات وقصائد ومقطوعات؛ بل إنّ منهم من خصّص ديوان كاملاً لهذا الفنّ مثلما قام لبه الشّاعر ابن الفكّون الذي أربى مديحه على 700بيت، والذي عكف على إنشائه في أثناء مرضه وإصابته بالشّلل النّصفيّ، واستطاع هؤلاء الشّعراء أن يجدّدوا هذا الفنّ في العهد العثماني بعد أن سبقهم إلى ذلك أقرانهم في العصر الزّيانيّ.

---

[1] - نفسه 2 : 257.

ملحق

المحلّية والعالميّة وأثرهما على الإنتاج الأدبيّ المغاربيّ الحديث

مدخل :

إنّ البحث في هذا الموضوع بصورة مفصّلة يقتضي وقتا طويلاً ويتطلّب حجماً كبيراً للإلمام له إلمامة شاملة، وتغطية ملابساته المختلفة تغطية كاملة، لذلك ارتأيت ،من الأيسر للقارئ، أن أقصر القول على جانب واحد من أجزاء هذا الموضوع المتشعب باعتبار أنّ محاور هذا الملتقى تشمل كلّ الأجناس الأدبيّة التي لها صلة بالعصر الحديث في هذه الأقطار المترامية الأطراف من روسو، عجرود، السعيديّة، وبنغازي مرورا بساقية سيدي يوسف إلى طنجة.

ويلاحظ القارئ أني اجتزأت بأجناس أدبيّة دون أخرى في التطبيقات، حيث استشهدت بنماذج لبعض أقطار المغرب العربيّ قد لا تكون كافية بالنسبة للمغرب، أو منعدمة بالنّسبة لليبيا وموريتانيا.. وعذري هي هذا التقصير أنّ العمل المتكامل مستحيل، وأنّ هذا الانقطاع الثقافيّ المفتعل بين أقطارنا حال دون أن تصل الكلمة إلى أسماع بعضنا بعض، مما نتج عنها جهل كلّي مركّب بما يجري في هذه الرقعة أو تلك، فلا يصلنا شيء إلى الجزائر، ولا يصلكم شيء عنا، وليس هذا بالنسبة للمغرب والجزائر فحسب، وإنما حتى بالنسبة لإنتاج سائر الأقطار الأخرى، أليست مأساة ثقافية ما ينبغي أن تسيء إلى سمعة شعوبنا، في الوقت الذي نجد فيه الأوروبيّين كلّهم يحتفلون بما يطيع أو ينتج عندهم في هذا القطر أو ذاك، وهذا على الرغم من التصارع الكبير الذي بطبعهم أيديولوجية وأحزاباً وديانات مختلفة، وظائفية بينة.

وثمّة سبب آخر حال دون أن نوفّي هذا الموضوع حقه، وهو الإقبال الهائل لشباب المغرب العربيّ على الثّقافة والنّهل من منابعها

الفياضة النيّرة، إذ إنّ تعداد هؤلاء الأدباء مستحيل مثلما يستحيل إحصاء النجوم عدّاً. وحسبنا أنّ هذه المدينة العريقة في شرق المغرب، والتي تحتضن ملتقانا هذا، تعجّ بمجموعة من الأدباء تكوّن وحدها دراسة مستفيضة في أجناس أدبيّة مختلفة، وهذا شيء يسعدنا ويثلج صدورنا، بل ويسعفنا في هذا التقصير.

واسمحوا لي قبل أن ألج الموضوع في التقديم له بأنّ مثل هذا الملتقى سيزيد أدبنا المغاربيّ ثراء ويدفع أدباء هذا الإقليم الذي يعتبر بوّابة إفريقيا وأوروبا والعالم العربي إلى المضيّ قدماً نحو تأسيس أدب للمغرب العربيّ يوحّد توحيداً كاملاً شاملاً بين شعوبه كما كان الحال عليه في العصور المزدهرة، ولقد جاء هذا الملتقى في إبّانه، جاء ليبعث روحاً قويّة، ويبرز أفكاراً جديدة، ويحثّ نفوساً كسلى على العمل الموحّد. ولقد كان الأدب ولا يزال قويماً في دعوته، صادقاً في عاطفته، قويّاً في أحكامه. وليس المجال مجال تحديد هذا الدور فذلكم عالم آخر، وأظننا في غنى عن التأكيد، بأنّ التّضافر بين أدباء المغرب العربيّ حتميّ سواء علينا أرضينا بذلك فأسرعنا إلى العمل به، أم أبينا فنكون حينئذ قد تجاهلنا الأصوات العديدة التي تدعو إليه : صوت الضّمير، وصوت التّاريخ، وصوت المحن القاسية التي عاشها شعبنا في وطننا الكبير، ولاسيّما أنّ الدّراسات النّقديّة أثبتت بأن أدبنا المغاربيّ إن لم يكن بأفضل مما يُكتب في المشرق العربيّ فهو ليس بأقلّ منه قيمةً؛ لأنّه يحمل من الجدّة والصدق والنكهة المغربية ما يبوّئه مكانة يغبط عليها في العوالم الأخرى.

وأقترح أن تتناول هذه المداخلة الموضوعات الرئيسة الآتية :

- المحلية وقيمتها، وتطبيقات من الإبداع المغاربيّ عليها.
- العالمية وشروطها.
- مدى مسايرة الأدباء المغاربة لهذه العالمية.
- أثر العالمية على الأدب العربي المغاربيّ الحديث.
- كلمة الختام.

ونلاحظ بأن هذا الفصل الذي اصطنعناه بين كلّ نقطة وأخرى لا نروم به وضع حدود قسْريّة تمنع الاتصال، أو تكرّس الانفصال؛ وإنما رمينا به إلى منْهجة المداخلة لتتيسّر المتابعة، ويتأتّى التّلخيص.

المحليّة

بادئ ذي بدء، وبمجرد ما تُذكر هذه الكلمة ينصرف المعنى البسيط لتفسيرها بأنها تعني الإنتاج الأدبيّ الذي يُؤلّف محلّيًا حيث يعبّر الكاتب عما يجري في بيئته وحدها... وهذا تعريف عام ساذج بلا ريب، لذلك لابدّ من البحث عن تعريف أقرب إل العلميّة وأكثر تعبيراً عن هذه الكلمة التي لاكتها الألسنة كثيراً في زمننا هذا، وإذاً، فكيف نعرّف المحلّيّة ؟

ذهب عدد من الدّارسين إلى أنّ العمل الأدبيّ أو الفنّيّ بصورة عامّة، نحكم على قيمته بقدر أصالته، ويقدر تمثيلة لبيئته، ولكنّ الأصالة هنا لا يفهم منها أنّنا نميل إلى المحلّيّة الضيّقة التي تمجّد لهجة، أو تخلّد حميّة إقليمية محدودة، وإنما نرمي إلى أنّ "المحلّيّة" هي - كما يقترح عبد الله شقرون- توضيح صورة تبدو من خلالها

شتّى التقاليد والعادات، ومختلف أنواع الأفراح والأتراح، كما يمكن أن يحمل العمل الأدبيّ الذي يتسم بطابع المحليّة دعوة صريحة إلى إيديولوجيّة مجتمعه كالأخلاق والتّوجيه ونحوهما[1].

وتفسير "المحلّيّة" يتمّ بطريقة أكثر جلاءً حين نربطه بالأجناس الأدبيّة :

فالمسرحيّة «المحلية» مثلا معناها أن تطعّم بالفلكلور، ويوظّف فيها التّراث الشّعبيّ، أو تؤلف باللّهجة العاميّة كما هو الحال عليه في معظم المسرحيّات التي تُعرض على مسارحنا وعلى شاشاتنا الصغيرة وهذا هو السّائد الأهمّ، ولكنْ ثمّة مسرحيات أخرى تتناول قضايا أدبيّة وتاريخيّة تتعلّق بالبيئة المحلّيّة، ومع ذلك تُكتب بالفصحى، مما يجعلنا ننبّه بأنّ اللغة ليست شرطاً في هذه المحلّية أو عدميّتها. ويجدر التّنويه بما تقدّمه حلق الذكر والفرق الصوفية والحفلات الموسيقية، والقصائد الشعبية من خدمة وتطعيم لهذه المحلية.

وفي الشّعر يستعصي على الدّارس أن يعثر على أثر "المحلّيّة" واضحاً مكشوفاً، لأنّ طبيعة الشعر الإيحاء، وطريقة إنشائه ترتكز على الرّمز والومض والإيماء، وهذا يجرّ إلى سؤال كبير هو : كيف نلمس أثر المحلّيّة على الشّعر المغاربي؟ والجواب يحتاج إلى شيء من التفصيل.

فالشاعر الجزائري مثلاً تُستشفّ محليته من خلال ذكره لأماكن كثيرة من وطنه الشّاسع، وتصريحه بأسماء مدن شهيرة

---

[1]- مجلة "الفكر" التونسية- السنة 17ع. 9جوان1972م، مقالة للأديب المسرحي المغربي عنوانها: المسرحية العربية بين القومية والمحلية، ص28.

قديما وآنياً فندرك تلقائيّاً جنسيّته وأصله، إذ هو لا ينسى المراتع التي تقلّب فيها، ولا الشّواطئ التي ارتادها، ولكنّه ليس محلياً بحتا، لأنّه أصيل محافظ على عروبته ولغته، فهو ابن بيئته من غير تحيّز إقليميّ باعتباره يتّخذ من التغنّي ببيئته سبيلاً إلى التغنّي بالعروبة والمجد؛ يقول (محمد العيد) مدافعاً عن الأصالة، ومحدّداً محاسن الأجداد[1] :

لا تَقُولوا هَانَ الْجُدُودُ فهُنّا سَاءَ نَشْءٌ بهم به سوء ظنٍّ

ويعيش الشّاعر الشّهيد (الربيع بوشامة) حوادث الثامن ماي 1945م فيسجّلها في شعره من غير أن تظهر عليه المحلّيّة الصّارخة؛ يقول[2] :

تلك المنازل أوحشت جنباتُها وبدا بها شبح الرّدى المغتال

قد فرّ منها أهلها واستبدلوا سُكْنى الخيام وعيشة التّرجال

وهوت على سكّانها في وهْدة وتعانقوا تحت الثّرى المُنهال

ما بين مجروح بئنّ وميّت ومفجّع قدْ لاذَ بالأعوال

إنّها مأساة الشّعب الجزائريّ مع الاستعمار البغيض، بل مأساة كلّ الشّعوب المضطهَدة مع الظّالمين القاصطين.

وعندما تفجّرت ثورة الفاتح من نوفمبر، اهتزّت المشاعر، ونشطت القرائح، فقال (صالح باويه) حاثّاً الثّوار، متوعّداً الاستعمار[3] :

---

[1]- ديوان محمد العيد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- مطبعة البعث- قسنطينة 1987 ، ص108.

[2]- الشعر الجزائري المعاصر ملحق مجلة "آمال" منشورات مجلة آمال، دون تاريخ- 1: 66.

[3]- م. ن. ص. 226 .

دمْـدَم الرّعـد وهزّتنـا الريـاحْ حطّموا الأغلال وامضوا للسّلاحْ
حطّموهـا واهتفـوا مـلء الأثـيرْ يـا فرنسـا اشـهَدي اليـوم الأخيرْ

وممّا لا مِرْية فيه، أنّ الاستعمار الفرنسيّ هو القاسم المشترك بين كلّ شعراء المغرب العربيّ الّذين لاقوا منه الويلات، وعانوا مع شعوبهم الملمّات، وهكذا ينتفض الشّابّي صارخاً في أبناء بيئته ليغدو شعره خالداً مطبوعاً بملمح المحلية وملتذّاً بها؛ مُطلقا زئيراً في وجه الاستعمار البغيض قائلاً :

إذا الـشّعب يومـاً أراد الحيـاة فلابـدّ أن يـستجيب القـدرْ
ولا بـدّ للظُّلْـم أنْ يَنْجلـي ولا بـدّ للقيـد أن ينكـسر

وواضح أنّ اسم الشاعر «الشّابّي» قد ارتبط باسم (تونس) الخضراء، إذ إنّ أحداً لا ينكر قيمته ودوره في توعية شعبه، ودعوته إياه إلى الثّورة الكبرى على الاستعمار، وتحريضه على التمرّد الشّامل إن أراد الحياة حقيقة، وهو الّذي تغنّى بطبيعة بلده، وصوّر جمال المراعي وأوْب الغنم إلى حظائرها مساءً وظعَنها منها صباحاً، إنه باختصار شاعر بيئة محلية تجاوزت الحدود الضيقة إلى بقاع أخرى من العالم.

وهذه "المحلية" يستغلّها الشاعر المغربي (محمد علي الرباوي) ليفجّر عاطفته نحو وطنه ككلّ، أو مسقط رأسه الذي يحنّ إليه ويعتزّ به (وجدة)، ولكنْ من خلال التغنّي بهذا الإقليم يعبّر عن آماله

التي يتوخّاها لوطنه بصورة عامّة، أيْ إنّ "المحلية" ليست إلا خيطاً يشدّه نحو بلده، يقول في قصيدة "الأسوار"[1] :

«..إنها نظرة الشاعر إلى الذات، قراءة أسرار الأوجه التي لا تستجيب، تلك الماضية في سبيلها دون احتفال بما يشحن فؤاده من أحزان مرّة تجاه كلّ المناظر التي لا يشتهي حصولها وهو يتمنّى أن يلقى شفاها تفترّ عن ثغورها، ووجوها تُبدي بشائر على صفحاتها، وأكفّا تسارع إلى التمدّد للتحيّات والمصافحات، وأذرعا تتطاول للحضن والعناق، لكنّ القوم غير القوم، فالشّاعر غريب وإن لم يمخر عباب يمّ أو يستقلّ جناح جوّ.

ويتضح ذلك أكثر حينما يخاطب مدينة فاس متسائلا[2] :

«هل أحد يا فاس بكى وتوجع من ألم إنّه تساؤل مشروع لشاعر يهفو إلى الحنان، ويتوق إلى الدّفء والاطمئنان في هذه المدينة المشجّرة ذات الحدائق البهيجة، والبساتين النضيرة، هو يخاطب (فاس) وخياله مجنّح، ولسان حاله يقول : ما أحلى (وجدة)!... عروس المغرب الشرقي التي لا ينساها بل يمزجها مع (فاس) مذكّراً إياها بأنها شقيقتها وجارتها لا تفصلهما إلا مسافة قليلة ليست شيئاً مذكوراً بالنسبة لعصر المواصلات السّريعة[3] :

«إنّي في عينيك تساءلت مراراً ماذا يفصل وجدة عن
ربواتك يا فاس المغلقة المفتوحة بينكما حبل من مَسَد
لا يتعدّى إذْ يمتدّ مدى الآه...»

1- ديوان الأعشاب البريّة، المطبعة المركزية- وجدة، ط1/1985م- ص11.
2- المصدر نفسه، ص12.
3- الرباوي: م. ن. ص12.

وعلى الرّغم من الحسن الذي يكتنف أرجاء فاس، فإنه لا قيمة له إذا قيس بالمدينة التي نشأ فيها أو القرية التي ترعرع بين أحضانها، لذلك فالجمال مجرداً لا وزن له ما لم يكن مشفوعا بنظرة هادئة، ومقدّرا بعاطفة نفسيّة مطمئنّة[1] :

«إنّي منذ دخلت سراديبك يا فاس أذِنْتُ لأنفي أن يسرح
في كل شوارعك المورقة الأشجار فلم أعثُر فيه على رائحة الأحبابْ
ولا رائحة الأعشابْ ولا رائحة الأمطارْ...»

إنّ الحنين إلى مسقط الرأس هو الذي جعل هذه الرائحة متغيّرة، فحتى المطر له رائحة متميّزة ومذاق خاصّ دأب عليه وألفه.. ولن نذهب بعيداً في تفسير ما يريده الشّاعر، وإنما نكتفي بالإشارة إلى ذكر هذه الأماكن التي لها في القلب وزن خاصّ، وهي تبرهن على تشبّث الشّاعر بجمالية المكان، لأنّ المكان رمز لحبّ عارم مرتبط أصلا بجذور الوطن، وهذا ما يجعل "المحلّيّة" تكتسب شرعيتها بصورة بارزة حين تكون بهذا المستوى.

ويحكي الشاعر نفسه في قصيدة أخرى عن الغربة المادّية، غربة فراق المحبّين : الأب للوطن، والوطن للأب، فالوالد يرحل عن مدينته الحالمة (وجدة) إلى أرض الغربة ليقضي بها شطراً من عمره في أقسى عيش، وأردأ جوّ، وأبأس عمل وأشقاه[2] :

«ها أنت تودّع وجدة

تتركها تتثاءب عند طلوع الغبش الساقط من تنهيدة إبليس التائه.

1- م. س. ص13، 14.

2- م.س.ص4، قصيدة:« السّندباد في الألزاس ».

تترك بوّابتها خلفك.
يتفجّر ظلّك قدّامك.
يركل طنجة بحوافره...»

في ذكر هذه الأماكن تغنّ بها وتعريف للأجنبي بأسمائها... فوجدة ونهر «إيسلي» و«البوّابة» التي تعرف بها وجدة، ومدينة (طنجة) هي أسماء تغني عن كلّ سؤال.

وتظل (وجدة) الحبيب المفضّل للرباوي وليلاه المطلوبة وحق له أن يؤثرها على ليلى أو هند أو لبنى.. إنها رمز للأمان والصّفاء والطّمأنينة والهناء، حتى إنّ الدارس يلمس بأنّ الشّاعر قد امتزج بها وذابت هي فيه، إذا ذكر أحدهما ورد اسم الآخر آليا، يقول من ديوان (الرمّانة الحجريّة)ص30 :

"مارستِنِي شوارع وجدة هذا المساءْ فتسلقّني الحزن، مارست صفصافة
فتعلّمت كيف أموت مدلّى ولكنّ وجدة قالت : تعذّبْ
ففضّلت هذا العذابْ لتكشف الأرض ذاتي
وأكتشف الله في هذه الذّات...»

إنّ للمحليّة ما يبرّرها بالنسبة للشّعراء المغاربة بعامّة، وشعراء المغرب الشرقي بخاصّة، حتى إنّ الدارس ليشعر أنهم يشكّلون وحدهم خارطة جغرافية - كما ينبّه إلى ذلك الشاعر (محمد بنعمارة)- الذي يقول في حوار له مع جريدة (الجمهورية) التي تصدر بوهران ما يلي[1] :

---

[1]- الصادرة يوم الثلاثاء 9 جمادى الثانية 1409هـ/17/01/1989م.

«إنّ معظم الشعراء المغاربة تعاملوا مع عنصر المكان، ففي قصائد شعراء (وجدة) يحضر المكان بثنائية المدينة- القرية: (وجدة- بني درار)... وفي (فاس) تحضر هذه المدينة كمكان في شعر (محمد بنيس) و(رشيد المومني) كما تحضر (القنيطرة) في شعر (محمد الطوبي) و(محمد بن طلحة)، و(الدار البيضاء) كفضاء سياسيّ في شعر (محمد الأشعري)».

ورُكْحاً على الملاحظات السابقة من خلال الشواهد، يتضح أن "المحلية"، ليست انحصاراً واختناقاً ولكنّها مصدر للأخذ والعطاء، وهي أحد مصادر الفنّ الرائع الذي ألّفه مختلف المبدعين في العالم، مما يجر تاؤلا مشروعاً عن مبتدأ المحلية وعن منتهاها؟ ولو أني أتصور الأمر عسيراً وشاقاً على ادّارس، إذ إنه وعلى الرغم من بعض الاستشهادات التي أتينا عليها ذكْراً وزعمنا أنها محلية، فإنّ ذلك لا يمنع من أنّ هؤلاء الشّعراء هم كذلك يتّسمون بسمات تؤهّلهم إلى "العالميّة" فيما إذا تناولنا الأشكال أو المضامين، ويخيّل إليّ أنّ ما يقال عن المحلّيّة والعالميّة يكون جليّاً أكثر فيما إذا حاولنا أن نميّز هذا الشاعر من ذاك فننسب هذا إلى الرمزية ونعزو ذاك إلى الواقعيّة، ونحشر الثالث ضمن السوريالية، وهلمّ جرّاً... لأنّ المشكل هو أنّ هذا الشّاعر نلفيه رمزيّا هنا، وواقعيّاً هناك، وربما سورياليّا أو رومانسيا هنالك... أضف إلى ذلك أنّ من شروط "المحلّيّة" الأصالة، ممّا يعني أنّ الفنّ الساقط الفاقد للأبوّة، لا يمكن له أن يطمع في النّجاح عالميّاً.... والمحلّيّة التي نريدها إنّما تلك التي تتأثّر ببيئتها وبظروفها؛ يرى (أندري ميكايل) بأنّ (الطّاهر بن جلون)، «كتب ما يعجز كلّ الأدباء الفرنسيّين لسبب

واحد بسيط، وهو أنّ (الطّاهر بن جلون) يستثمر عالماً وُلد في كنفه، بينما هو وغيره وُلدوا في الغرب»[1].

من هنا تظلّ الظّروف التأثرية للكتّاب أروع ما يميز أدبهم ويمنحهم تأشيرة الدّخول إلى أغوار العالميّة، وهذه المحلية هي التي تقفز بالمبدع القدير إلى أن «يتخطّى إقليمه ليصبح شاعر الجميع، وكاتب الجميع، بغير تمييز ولا تفرقة »[2].

ومن هذا التّأكيد، تغدو أسماؤنا المغاربية أعلاماً شامخة في الأفق، ونجوماً ساطعة تجاور الثريا ، فتصير أسماء (علّوش) و(الخطيبي) و(بنعمارة) و(مصايف) و(صمّود) و(عمر بن سالم) عربية بل عالميّة يقرأها المشارقة والمغاربة والقارات الخمس... إنّ الوصول إلى ذلك اليوم ما يزال بعيداً ولكنه ليس مستحيلاً، فالأيّام كفيلة بتحقيق ذلك أو بعضه مع الجدّ، والسّهر والمواظبة، والتواضع، وتكاتف الأدباء في المغرب العربيّ، وتضافُر دور النّشر على إخراج ما بقبورها ودهاليزها ورُدّهها من مخطوطات، إنّها وحدها المسؤولة على هذا التّقوقع الذي يعيشه الأديب المغاربيّ، هي والمؤسسات الثقافية الأخرى التي تتجاهل الإنتاج المحلّيّ في الوقت الذي تحتفي بكلّ ما هو دخيل أو أجنبيّ... ومن عجب العجاب أنّ شاشات المغرب العربيّ تتلهّف على كلّ رواية شرقيّة أو غربيّة ولكنّها توصد الأبواب

---

[1]- في حوار أجراه معه (بدر الدين عرودكي) للمجلة الأدبية الفرنسية-ع.251- سنة 1988- ترجمة الحوار (محمد يحياتن) نشره بجريدة "المساء" الصادرة بتاريخ: 1988/12/07 ص11.

[2]- د. زكي نجيب محمود: ثقافتنا في مواجهة العصر ، دار الشروق- بيروت، ط3 / 1982م، ص27.

في أوجه المبدعين الوطنيّين أو المحلّيين، فلا تكلّف نفسها تصوير أيّ عمل أدبيّ، ولا تسمح لما يُكتب في بلدها بأن يشاهده المواطنون، وكأنّ الأدباء مجرمون يجب بتْر شرّهم من الوجود!...إنّها والله مأساة المثقّفين في المغرب العربيّ، نقول هذا والألم يعتصرنا، بعدما انتظرنا وطال الانتظار، ونخشى أن نظلّ كذلك ننتظر كما لو كان هذا الذي نترقّبه غراب نوح!

تبقى الإشارة في الأخير إلى أنّ "المحلّيّة" نلفيها مبثوثة في بعض الأعمال المغاربيّة ولاسيّما في الرّواية كما هو الشّأن بالنسبة لعبد الحميد بن هدّوقة في (ريح الجنوب) والبشير خريف في (إفلاس)[1] وعبد الكريم غلاّب في (المعلّم عليّ) هذا الأديب الذي - كما نعلم- رفض كلّ تقليد أو مجاراة لأدب الغرب، لأنّ ذلك لن يطوّر أدبه في شيء[2].

وقد خاب من أعاب على (نجيب محفوظ) تشبّثه بالمحليّة ووصفه لبيئته، بعدما تربّع على عرش الرّواية العالميّة، واعتُرف له بالسّبق والتّطوير فيها، وهذا على الرّغم مما يذهب إليه (الطيب صالح) من أنّ (نجيب محفوظ) مرتبط بمحليّته، وذلك لن يسمح له بتطوير فنّه الرّوائيّ أبداً - حسب قوله[3]- .

1- رواية (البشير خريف) استُعملت فيها العامية المحليّة بصورة غريبة، حتى غدا من العسير أن يفهمها ويستكنه غموضها غير التونسيين- انظر مجلة (قصص) ع.63 جانفي 1984م- ص34 وما بعدها.

2- الرواية العربية: واقع وآفاق "تجربة ذاتية في كتابة الرواية" لعبد الكريم غلاب، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، - ط1981/1م، ص331.

3- ينظر كتاب: الطيب صالح (عبقري الرّواية العربية) مجموعة من الكتّاب العرب، ، دار العودة- بيروت، ط3/ 1984م، ص214.

وأحسب أنّنا في المغرب العربيّ مؤهّلون لكتابة أدب يعرّف بلداننا وينقل أحاسيسنا واهتماماتنا، ويصف مناظرنا الطّبيعيّة السّاحرة في فصل الرّبيع فوق الأطاليس، و(عصفور) في الغاب، وصيفاً على الشواطئ، وفي غير هذا وذاك في اكتظاظ مدننا وحركات شوارعها، وأصوات باعتها... وقد يتّفق معنا (عزّ الدين التّازي) الّذي يرى أنّ الإنتاج المغاربيّ ما ينبغي له أن يكون نباتاً طفيليّاً زرع في أرض خلاء، بل عليه أن يكون منطلقاً من أصالته، ممجداً ماضيه، ومتحاوراً مع العالم الخارجيّ من منطلقاته الذاتية والنرجسيّة[1].

العالميّة

وبعد هذه النّظرة عن المحلّيّة والتّعريف بها من غير تحنيط ولا دعوة إليها وحدها، إخال أنه بمستطاعنا أن ننتقل إلى العنصر الثاني الذي يُسهم في تخليد الأدب، ونعني به العالميّة، حيث يكون أدبنا أكثر رواجاً في غير بيئتنا، ومتداولاً عند الأجانب ملتصقاً بأسماعهم، شاغلاً إياهم في ندواتهم الفكريّة، وحلقاتهم الدّراسيّة وملتقياتهم المختلفة.

ولكن ماذا يُقصد بالعالميّة؟ إنّها بتعريف مختصر تعني أن يصل أدب مّا في بلد مّا إلى مصافّ العالمية، فيصير ذا طابع عالميّ يكتسح المكتبات بدون استثناء، ويقرؤه القرّاء بمختلف اللّغات، ويغدو حديث الخاصّة من المثقّفين في العالم. وهذه الصّفة، وإن بدت برّاقة يطمح إليها إن لم أقل يتلهّف عليها معظم الكتّاب في العالم، فإنها لم تخدع المبدعين العرب، من أمثال الرّوائيّ (الطيب صالح) الذي يرى أنّ العالميّة فكرة سخيفة نحن شاغلون أنفسنا بها!... ويوضّح بأنّ

---

[1] ينظر م. س. ص231.

هذه الكلمة انطلقت أول الأمر بمصر، لأنّ «الانتلجانسيا» المصرية، كانت تعتقد بأنّ أيّ عمل أدبيّ لا يكتسب شرعيته العالميّة إلا إذا اعترف به الأوروبيّون ولاسيّما الفرنسيّون والإنجليز بصفتهم أهل حضارة[1]... إنّ العالمية معناها أن تكتب بلغة الغرب، أو تترجم أعمالك إلى اللغات الأجنبية، هذا ما يتوهّمه أو يتخيّله كثير من اللاّهثين وراء هذه الفكرة الخاطئة.

وأودّ أن أثير نقطة هامة، وهي أنّ مشكلة أدبنا المغاربيّ هو أنه مهمل من العالم العربيّ حالياً، فليس ثمة عناية به، أو الاحتفال بقيمته، ويحزنني أن أذكر أو أسجّل بمرارة أنّ عشرات الكتب التي تطرّقت لتاريخ الأدب العربيّ لم تعرّج على مئات الأدباء في المغرب العربيّ، بل ظلت خرساء صمّاء، تكتب في كل صغيرة وكبيرة، وتضخّم أسماءً نكرةً في المشرق... ومهما تكن الأعذار المختلفة، أو التّهم المتبادلة، فإنه من العار أن نزعم بأننا عرب نهفو إلى وحدة عربيّة ونحن لا نكلّف أنفسنا معرفة ما يُنشر في المغرب أو تونس أو ليبيا. ويظلّ التّساؤل المؤرّق قائما؛ وهو : إذا كان أدبنا العربيّ في هذه الأقطار لم يفرض نفسه حتى على السّاحة العربيّة فهل في مكنته أن يصل إلى العالم؟... أقول بكل تأكيد : أجل!..لقد قرأ العالم هذا الأدب المغاربيّ قبل أن يقرأه المشارقة وهو نقص يسجّل عليهم لا علينا.

وتختلف تعاريف "العالميّة" تبعاً لطبيعة المثقف نفسه، مما يعسر معه أن نخرج في النهاية بتعريف جامع مانع. إذ إنّ كثيراً من

---

[1]- في حوار له مع جريدة "الشعب" ع.7819 الصادرة بتاريخ 16 جمادى الأولى 1409هـ/26 ديسمبر1988م.

الدّارسين يرون أنّ الدّعاية لأدبهم واستيلاءه على ألباب الآخرين وأفكارهم - يغدو آليا- عالميّا، ومن هؤلاء (جوزيف تيكست) الذي يقول ما معناه : في اليوم الذي يتكوّن فيه ذلك الأدب الأوربيّ سيصبح بالطبع كل نقد أدبيّ عالمياً[1] وهذا له تفسير واحد، وهو أنّ "العالميّة" تظلّ حلماً بعيد المنال لا تتحقق غالباً إلا إذا توافرت لها عوامل، وتضافرت دواع لإنجاحها. بينما يرى دارسون آخرون أنّ عالمية الأدب تعني «خروجه من نطاق اللّغة التي كُتب بها إلى أدب لغة أو آداب لغات أخرى»[2].

والعالميّة - إذا تحققت في أي عمل أدبيّ- لاشك في أنها تحقّق قفزة نوعية رائعة في هذا الأدب كما حدث لكثير من الآثار الأدبيّة العالميّة التي نُقلت إلى مختلف اللغات، إذ ليس في العالم من الأدباء من لا يعرف مثلا (دون كشوط) أو (همنجواي) أو (مكسيم جوركي) أو (ماركيز)، ولكنْ نادراً من يعرف عبد الكريم غلاب في «دفنّا الماضي»، أو (محمد مصايف) في «النقد الأدبيّ في المغرب العربي الحديث» أو محمد زفزاف في «المرأة والوردة» أو مبارك ربيع في «الريح الشتوية»، أو فاطمة الراوي في «غداً تتبدّل الأرض»، أو عبد الحميد بن هدّوقة في «الجازية والدّراويش»، أو محمود السعدي في «السدّ»، أو محمد الصالح الجابري في «ليلة السنوات العشر»، أو عمر بن سالم في «أبو جهل الدّهاس»، وهلمّ جرّاً.... بل إني أكاد أجزم بأنّ هذه الأسماء مجهولة في معظم الأقطار

---

[1] الأدب المقارن: د. محمد غنيمي هلال، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط5، دون تاريخ.

[2]- م. ن. ص105 وما بعدها.

العربيّـة، وأحـوّم بعيـداً حتـى لا أصـوّب سـهام الجهـل إلى أقطارنـا المغاربيّـة نفسها.. ومـا يحـول دون ظهـور هـذه الأسمـاء أو آثـارهم في أقطارنا هو أزمة النّشر والإشهار، إذ إنّ ما يُطبع في المغرب الأقصى بعـد جهـد جهيـد لا يقـرؤه إلا المغاربـة، ومـا يطبـع في الجزائـر بعد عمليـات قيـصريّة لا يقـرؤه إلا الجزائريـون ومـا يكـادون. وهـذه - لعمـري- معـضلات مجتمعـة لا معـضلة منفـردة يعانيهـا الكاتـب المغاربيّ، فـأنّي لـه أن يحلـم بالعالميّـة وهـو لم يفـرض نفسه حتى على بيئتـه ووطنـه؟.. إذ كلّنـا يعـرف بـأنّ المحلّيّـة هـي الـتي تكـون مطيّـة للعالميّة، وليس العكس !

ثـم إنّ "العالميـة" هـذه كـثيراً مـا تكـون وراءهـا إيـديولوجيات تـشجّعها أو تقـف دون تحقيقهـا، فمعظـم الـذين تـرجمت أعمـالهم مـن العربية إلى اللغـات الأخـرى لم يتحقّـق لهم ذلـك لأنهـم أفـذاذ عـصرهم ولا فـضلاء بيئـتهم، وإنمـا كـان ذلـك في أحـايين كـثيرة بـسبب اتجاهـاتهم أو خضوعهم للضغوط الخارجيّة، أو تطبيقهم هذا المذهب أو ذاك في كتاباتهم !..

ومن هنا تظلّ "العالميّة" غرضاً بعيد المنـال، بـل هـي مستحيلة أن توجـد، إذ إنّ الآداب تتكامـل مـع بعـضها، فـلا الأدب الغربـي بقـادر وحده علـى أن يستحوذ، ولا الأدب الـشرقي يـستطيع أن ينسينا قـراءة بعض الآثار الرائعة التي كتبها ألبانيّ أو صينيّ أو ألمانيّ. وعن طريق احتكـاك هـذا الأدب بـذاك، وبواسـطة الاطّـلاع علـى آثـار الآخـرين، يـصير بمقـدورنا أن نطعّـم مـا هـو محلّـيّ مغـاربيّ بتطعـيم عـالميّ في الـصّور، والأشـكال، والقوالـب، ولـيس في المـضمون بـلا ريـب، لأنّ المضمون مختصّ بـأدب كـلّ بيئـة علـى حـدة. ولـكي تكـون العالميّة

متوفّرة في أدب ما، لابدّ له من أسس يرتكز عليها ويسير على منهاجها لتثبت ركائزه، وترسو دعائمه، كما أنه يحتاج فضلاً عن ذلك إلى عوامل يسمّيها الأدب المقارن عامّة وخاصّة[1].

ففيما يتعلّق بالأسس التي تكوّن "العالميّة" نجدها تتكئ على الاستمساك باللّغة الوطنية، والتقاليد الموروثة، أو ما نعبّر عنه الآن بالتّراث العربيّ الإسلامي، وهذا العنصر الذي نشدّد عليه، يعود إلى كون بهرج "العالميّة" قد يحلب أدباءنا فتغشى عيونَهم الألوان، ويجرون وراءها من غير أن يقفوا على سوقهم، وهو ما ينشده بعض الذين تغريهم هذه الحسناء بأصباغها متجاهلين أنّ تجميلها اصطناعي، فيؤْثرونها على الغادة الغنوج الطبيعية، إذ إنّ التأثّر بالعوامل الخارجيّة لا يتمّ قبل الإلمام على اللّغة الأمّ، والتّعريف بالبيئة، وتشريح ما يحيط بها ويكتنفها من جوانبها كلّها، فالأدب العربيّ في أقطارنا المغاربيّة لا يتطوّر صعدا نحو القمّة المأمولة إلا إذا أحاط علماً بكل ما يكوّن شخصيته، ويخدم مقوّماته الأساسة، ولذلك يتعذّر أن نطلق صفة العالميّة على من انغمس حتى ذقنه في تقنيّات غربيّة بحت، وطلّس نفسه بطيلسان غربيّ رام من ارتدائه أن يُمسك بتلابيبها، مبتعداً عن أصالته وبيئته جملة وتفصيلاً... إنّه بكلّ اختصار سيكون شبيهاً بالغراب الذي أراد أن يقلّد مشية الحمامة.(والنتيجة معروفة!)

والأساس الثاني الذي يؤدّي بالأديب إلى تحقيق العالميّة هو الأصالة في ذاته وفي وطنه وفي إنتاجه، باعتبار أنّ الأصالة تعني أن يكون الأديب صادرا عن تجربته الذّاتية، ومحققاً جديداً أو إبداعاً.

---

[1]- ينظر J.MARIE- Carré Goethe en Angleterre PP. 124-129 Paris 1920

وتسمية ما ينتج بالإبداع ليس من قبيل التسلية، بل هو شيء أطلقه النقّاد عليه لأنّه في حقيقة الأمر عصارة أفكار، وزبدة آراء، وولادة مستعصية غالبا، فكيف يكون المولود ابن والده إن لم يكن من لحمه ودمه ؟!. وقد يُعاب علينا بأنّ هذا التمثيل ليس في محلّه، لأنّ الولد لا يقبل المنطق أن يكون مشوباً بأثر خارجيّ، بينما الإنتاج الأدبي لا يأبى ذلك ولا يرفضه، والحقّ مع هذا الذي يزعم ذلك، وإنما أردنا أن نوضّح بأنّ الأصالة لابدّ منها، لكنّ هذه الأصالة لا نبغي بها أن يقف الأديب سادراً حائرا إزاء العالم الخارجي، بل يطلب منه أن يثبت في الأسس ولا حرج عليه في التزيّن بالشّكل، بل لعلّه من المحتّم عليه ألا يوصد الأبواب حول نفسه ويضرب الأطناب على تطوّره، بل يفيد من المحيط الخارجيّ حتى يرفع من شأن ذاته، ويكمل إبداعه، ويطرّز نسجه.

وممّا لا ريب فيه أنّ بلوغ الأديب هذا الشّأن لا يتمّ من غير أن تكون له موهبة فذّة عن طريقها ينشئ ويبدع، ويعرف كيف يطوّر ما يمكن تطويره، ويحافظ على ما ينبغي أن يظلّ كما هو. ولو أنّنا ضربنا المثل لقلنا إنّ الأديب المغاربيّ في مكنته أن يطوّر شعره وقصته وروايته. ولكن من جانب آخر، يعتزّ بشخصيّته إذا أراد أن يبعث فنّ المقامات مثلاً ويفرضه على العالم الغربي، ذلك أنّ ذا الموهبة يقدر على قلب الموازين ويحول اتجاهها صوب مجتمعه ودينه وأخلاقياته وغيرها، كما حدث ذلك مع الأديب الانجليزي (توماس كاريل CARLYE THOMASS 1795 -1881) الذي فسر أدب (غوته

GOETHE الألمـاني : 1749- 1832م)[1] حسـب إيديولوجيتـه هـو، لا حسب مـا رآه (غوتـه) مـن جوانـب السّخريّة والإلحـاد والجحـود، والإنكـار، وغيرهـا، بـل غيّـر هـذه النظـرة بـأخرى ترنـو إلى التّديّن والخنـوع لمـا تبتغيـه القـيم، وتتطلّبـه المثل، قـال موضّحـاً رأيـه فيـه، ومقـرّراً نظريـة جديـدة لـه : «سمّـوا (غوتيـه) (فـولتير ألمانيـا) ولكنّهـا تـسمية خاطئـة تـصف بمـا لـيس فيـه... فلـيس (غوتيـة) بالـشّاك ولا بالمجدِّف، ولكنه المعلّم الذي يحترم الحقّ، إنّه ليس هـدّاماً بل بنّـاء، وليس رجل فكر فحسب، ولكنّه حكيم»[2].

ونحـن في المغرب العربـيّ يمكـن لنـا أن ننظـر إلى إنتاجنـا الأدبيّ الحديث على أنّـه عـالميّ مقارنـة بمـا سبق أن قام بـه مـن دور في الفكـر الحضاريّ العالميّ أثناء العصور الزّاهرة لحضارتنا العربيـة الإسـلامية من بغـداد إلى قرطبـة، ومـن فـاس إلى تلمسان. أريد أن أقـول إنّـه مـن غـير المنطق أن نضرب صفحاً عن إنتاجنـا الماضي، مُدّعين أنّ عالميّة أدبنـا لا تتمّ إلا في إطاره الحديث، بل علينـا أن نـربط هـذه العلاقـة بتلك حتـى لا نبتر تاريخـاً حـافلاً بمـا لا يجحـد أو ينكـر!.. ذلـك أنّ فـترة ازدهـار هـذا الأدب اتّـضحت وفرضـت نفـسها يـوم أن كـان أدبنـا العربـيّ في بجايـة وتيهرت ومراكش والقيروان، يحتكّ بالآداب الأجنبية فيؤثّر ويتأثّر.

ومهمـا يكـن، فللعالميّـة عوامـل عامـة وخاصـة؛ نفصّل الحـديث عنها في التالي :

---

[1] ينظر مقدمة رحلات عام 1827- عن الدكتور محمد غنيمي هلال- المرجع السابق- ص15.

[2] - غنيمي هلال. م.ن.ص111.

أ- العامّة

ونريد بها تلك «التي تكون سببا في وجود العالميّة، ولكنها ليست عوامل فنية»[1]، وهي كثيرة يتعذّر حصرها ونكتفي ببعضها في الإشارات الآتية :

1- ضرورة توفّر الاقتناع الذّاتي لدى كلّ أديب مغاربيّ بأنّ العالميّة لا توهب، ولكنّها تُنتزع وتُفتكّ، فيسارع بناءً على ذلك إلى إخراج أدبه من فوقعته الشّكليّة والمنهجيّة، فالأدب لا يصير عالميّا إلا إذا طعّمناه بديباجة بعض الآداب الأخرى، والتي تتمثّل فما يخدم أدبنا من غير أن يكشط عنه جلد شخصيّته أو يمحو آثار أصالته التي ألمعنا إليها منذ حين. فحبّنا لطفلنا مثلاً لا يمنعنا من أن نفرح لنموّه، ونصفّق لتطوّر فكره ونضجه.. فاعتزازنا بأدبنا العربيّ المغاربيّ لا نرضى له مع ذلك أن يتجمّد أو يتسطّح، وإنما نودّ له عكس ذلك أن ينضج في مناهجه وأشكاله، ليتسنّى له أن يقف على سوقه إزاء الإنتاج العالميّ، وهذا من غير أن نلقي ظهريّاً بمقوّماته المتواضَع عليها، وأعني بذلك أنّ العالميّة لا تعمينا عن التّسامح في لغتنا فننتج مثلاً بلغة أجنبية، بدعوى أنّها أقرب إلى العالميّة، وأسرع إلى القفز لتبلّغ إلى المتكلفين بها، كما أنّ الصّراع الذي لا طائل من

---

[1]- ينظر مثلا:

- فقه اللغة: الثعالبي- تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرون- - مطبعة الحلبي- مصر، ط2/ 1373هـ/1954م.

- البيان والتبيين: الجاحظ - تحقيق: هارون وشاكر- المطبعة الحلبيّة- مصر 1980هـ.

- تاريخ الأمم والملوك: الطبري:- تحقيق: أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف بمصر، 1966م.

- المزهر في اللغة: السيوطي- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

ورائه والذي تعرفه ساحاتنا الثقافيّة عادة من خصام وحوار بيزنطيّ فيما بين أنصار القديم والجديد يجب أن يختفي إلى الأبد، ولنتفق على أنّ عالميّة أدبنا تتمّ عن طريق تلقيحه بمناهج وبنظريات مبتدعة تسهم في تبييض صفحاته، وتدفعه إلى الأمام خُطوات عريضات.

2- الهجرات : كلنا يذكر الدّور الّذي أداه المهاجرون العرب في الأمريكتين، حينما عرّفوا بأدبنا العربي هناك، فقرأ الأجانب كثيراً من هذه الآثار، وأعجبوا بطائفة من الأدباء العرب المهاجرين، حتى كان بعضهم يقرأ أثراً فيمضي للبحث عن صاحبه ليتعرّف عليه أكثر، ويلتقي به فيزداد قربي بمؤلّف هذا الأثر القيّم، والشيء نفسه يحدث الآن في أوروبا ولاسيما فرنسا بالنسبة لأدباء المغرب، حيث إنّ أسماءً كثيرة تنافس الأدب الأوروبيّ في عقر داره مع ما يمكن أن نفهم به هذه المنافسة، فهناك (الطاهر بنجلون) و(محمد شكري) من المغرب، و(رشيد بوجدرة) و(محمد ديب) من قبل... لكنْ، هل هذا يخدم الأدب المغاربيّ أم لا؟ وهل يمكّنه من الوصول إلى العالمية؟... إن الجواب على هذا السؤال يقتضي منا أن نزن هذا الأدب الّذي ينتجه هؤلاء في ديار الغربة، وما هي المعايير التي يطبّقها الأوروبيون لقراءة هذا الإنتاج بل قبل ذلك لنشره وإذاعته بين القراء؟... إنهم بلا ريب لا ينشرون إلا ما كان متماشياً مع إيديولوجيتهم وسياسة بلدانهم إذ إن أيّ كاتب يأبى السير مع الطريقة التي رسموها له يخفق غاية الإخفاق، ويتوقّف أو يوقف في أولى الخطوات.

3- الغزو : لقد عرف المغرب العربيّ استعمارا مدمّرا شرساً أتى على الأخضر واليابس، وأهلك الحرث والنّسل، فلما سيطر عسكريا حاول أن يفرض لغته الأجنبية على شعوب المغرب العربيّ،

فأخفق بالنسبة للمغرب وتونس أو كاد، ولكنه أفلح في الجزائر... ومن مخاطر هذا الغزو اللّغويّ أنه جعل العربيّة تعاني وتحارب على كل الجبهات، وهو ما قامت به جمعية العلماء الإصلاحيّة في الجزائر، حينما تصدّت بكل قواها إلى أنصار الفرنسة، ومع ذلك فقد نجح الاستعمار في فرض لغته على المدارس الرسميّة، وكان نتيجة ذلك أن ظهر أدباء كتبوا بلغة المستعمر، وإن تناولوا مضامين جزائرية، وكثير منهم ما يبرح متشبثاً برأيه، منسلخ عن شخصيته ووطنيته لظروف أو لأخرى، ولكنّ الأسباب التي يتذرّع بها هؤلاء ليست في حقيقة الأمر سليمة، بل إنّ من ورائها الغرس الطفيليّ الّذي بذره الاستعمار فأمرع وأربع !.

ب- الخاصّة

تختلف العوامل الخاصّة عن العامة في أنّ الخاصّة تتوجّه بصورة أكثر مباشرة إلى الناحية الفنية الصّرف، على عكس العامّة التي لم تعْدُ الإشارةَ إلى ما يسهم في شهرة الأدب والإفضاء به إلى العالميّة، ويحصر هذه العواملَ كثيرٌ من الدارسين في أصلين هامّين هما الآثار الأدبيّة أو الكتب، ثم أصحاب هذه الآثار أنفسهم تتفرّع عنهما فروع لها علاقة وثيقة بعضها ببعض... ونبسط القول فيما يلي عن هذه الجوانب؛ ضاربين الأمثلة كلّما أمكن ذلك.

وأول ما نؤكّده هو أنّ الكتاب هامة من وسائل نشر الثقافة والتعريف بها وسيلة هامّة من الرّسالة عن طريق صفحاته، فهو نفسه الواسطة التي تفصل بين خيطين يمسك بطرف أحد هما المرسِل، وبالطرف الآخر المرسِل إليه، يلتقيان فيتّفقان إن كان

المنحى واحدا والهدف موحّداً، ويتوازيان فلا يلتقيان أبداً إن كانا مختلفي الاتجاه والهدف... وانطلاقاً من هذا الكتاب نتوصّل إلى تحقيق النّتائج التّالية :

1- احتكاك الآثار بعضها ببعض : وهذا المثل يمكن أن نتلمّسه بصورة أكثر وضوحاً فيما حدث للآثار العربيّة وما طُعّمت به من أفكار فارسيّة أو هنديّة ولاسيّما في الحكمة وفي المفردات اللّغويّة التي اختلطت بلغتنا حتى لم نعد نميزها من أصولها، هذا بالإضافة إلى المخلّفات التي تركها الاستعمار الفرنسيّ والإسبانيّ في دول المغرب العربيّ، لكن لحسن الحظّ لم تستشْرِ كلماته، وتنتشر مفرداته في لغتنا العربيّة، وإن لم تسلم تماماً من بعض الأساليب التي ترد على ألسنة الكتّاب كاستعمالنا لكثير ممّا يستعمله الفرنسيّون مثلا : «لعب فلان دوراً كبيرا في التوفيق بين وبين...» و«توجّه إلى سماء أخرى» و« من طرف فلان» وهلمّ جرّاً...

ولا داعي إلى أن أقف طويلاً عند احتكاك العربية باللغات الأخرى لأنّ ذلك معروف من وجهة، ولأنّ الموضوع يتعلّق بالمغرب العربيّ فقط لا بالعالم العربيّ كله من وجهة أخرى. وحسْبنا الإشارة إلى أنّ الأمّة حين تتأثّر ببعض العبارات، قد يكون ذلك راجعاً إلى غرض محدّد يُتوخّى ويُرمى من ورائه إلى النيل من لغة الأقوام الآخرين، أو يُقصد به إلى التفكّه أو الذّمّ، وحين ينتشر النقل يغدو شيئاً مألوفاً عادياً، والأمثلة على ذلك كثيرة في علاقة اللّغة العربيّة باللّغات الأخرى يمكن الرّجوع إليها في مظانّها.

2- التّرجمة : إنّ التّرجمة ذات أهمّيّة قصوى في زماننا هذا، بل لقد كان لها دائماً الأثر الأكبر في تطوّر الأدب العربيّ منذ العصور الزّاهرة لظهوره ؛ إذ بواسطتها يطلع كثير من النّاس على أدب أمّة أخرى. ونحن العرب عامّة والمغاربة خاصّة ما تبرح الترجمة لدينا محدودة، والسبب يعود إلى غياب المترجم المختصّ، ذلك أنّ مترجم الرواية مثلاً يُشترط فيه أن يكون روائيّاً، ومترجم القصّة القصيرة قاصّا وهكذا دواليك... ولا أقول الشّعر، لأنّ الشعر يصعب توصيله بغير لغته الأصليّة إلى الآخرين، وهو ما نفتقده حاليا مما يجعل أعمالنا المغاربيّة لا تصل إلى ما نأمل لها ونرتجيه. لهذا ألحّ على الترجمة في كسب أدبنا المغاربيّ تأشيرة إلى العالمية، لأنّ كثيراً من الأدباء أُهملوا في لغتهم لسبب أو لآخر، فلما وصلت آثارهم إلى الأمم الأخرى، عني بها أيّما عناية، ونالت حظوة لم تكن تحلم بها في لغتها وفي موطنها، وتحضرني بعض الأمثلة الّتي كثيراً ما يستشهد بما الأدباء المقارنون، فقد تجوهل "ديدرو DIDROU" في لغته، ولكنّه وجد ضالّته وحقق مكانته في الأدب الألماني بعدما تُرجم إليه، وكذلك الشّأن بالنسبة لشكسبير الّذي تنبّه الناس لقيمته بعدما تُرجمت أعماله إلى اللغات العالميّة وبعد وفاته بقرن أو يزيد. نلحّ على الترجمة ونحن مع ذلك ندرك بأن أيّ نصّ مترجم «يفقد، خلال عملية الترجمة علاقاته التركيبية، لأنّ النّظام اللّغوي للغة ما لا يتشابه بالضرورة مع النظام اللّغوي للغة أخرى» مثلما يذكر قاسم المقداد في (هندسة المعنى).

وللتّرجمة أهمية قصوى بالنسبة للآثار العربيّة ونقلها إلى اللغات الأخرى والعكس، ولهذا ندعو إلى ترجمة آثارنا الأدبيّة الإبداعية

إلى اللغات الأجنبية، وهذا ما تراه (سلمى الخضراء الجيوسي)[1] حين تقرر أنْ لا سبيل إلى فرض أنفسنا وإثبات وجودنا إلا بالترجمة والسينما، وإن ترجمة عمل واحد أفضل من إرسال عشرة محاضرين إلى بلد ما من بلدان الغرب[2] مع ذلك ،وعلى الرغم من قيمة هذه الترجمة، فإنها لن تلج بنا أبواب العالمية إلا إذا انطلقنا من أرضيتنا وعبّرنا بلغتنا العربيّة عن همومنا المحليّة.

3- الجرائد والدّوريّات والمجلاّت : بعدما حققت الطباعة ثورة في عالم النّشر، وأبعدت من طريقها التأخّر الذي كان يحصل في إيصال المعرفة، ظهرت دوريّات عديدة في مختلف الأصقاع، لأنّ العالم المثقّف استيقن بأن الكتاب أغلى ثمناً وأبطأ إعداداً وأكثر تأخّراً مما يجعله لا يكون دائماً مستعدّاً لتبليغ الشّيء في حينه، فكان أن تباينت العناوين، وتكاثرت الاتّجاهات، ولكنّها جميعاً تلتقي في هدف واحد، هو أنّ وصول الأخبار السّياسية والأدبيّة والثّقافيّة إلى القارئ ساخنة فور خروجها من الفرن. ثم رأى النقّاد بأنّه لابدّ من وجود وسائل نشر متخصّصة تُعنَى بمختلف الأجناس الأدبيّة، فكان أن ظهرت مجلاّت في القصّة، وأخرى فالشّعر، وثالثة في الأدب والنقد، ورابعة في المسرح، وخامسة في التاريخ والحضارة، وهلمّ جرّاً... وفي المغرب العربي استطاع الأدباء أن يفرضوا أنفسهم فيقوموا بتحرير مجلاّت تشمل القصّة، والشّعر، والنّقد، ولكنّها لم تبلغ المرام الذي يطمح إليه المثقّفون في هذه الأقطار، إذ إنّ هذه

---

[1]- في حوار لها مع جريدة الشعب الصادرة يوم الأربعاء 10 جمادى الثانية 1409هـ/1989/01/18م ع.7843 ص13.

[2]- ينظر (أحمد فرحات) أصوات ثقافية من المغرب ، الدار العلمية للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان- ط1/ 1404هـ/1984م، ص34.

المجلاّت تعاني في معظمها مصاعب مادّية مما عجّل باحتضار كثير منها وهي ما تفتأ في ربيع العمر! والشيء نفسه يقال عن قيمة الجرائد، لأنّها واسعة الانتشار، كثيرة الإقبال، وهو ما أفضى بها إلى أن تخصّص بعض صفحاتها للحديث عن الأدب، ممّا يقدّم خدمة جلّى للأثر الّذي يتحدّث عنه آنيا ومستقبليا.

أضف إلى ذلك أنّ ثمّة مسائل أخرى تشارك في دفع الأدب قُدماً نحو قمّة العالميّة، ويشارك فيها إمّا المترجمون أو وسطاء الأدب - كما يسميهم النّقاد- لأنّهم يكونون واسطة بين الأديب وبين القارئ في التعريف بالآثار، فقد قدّم الأجانب - وإن لم يشعروا- خدمة جلّى للأدب في المغرب العربي ّبوساطة الجرائد الفرنسيّة والإسبانيّة والمجلاّت والدّوريّات، كما أتاحوا الفرصة لهذا الأدب ليُدرّس في جامعاتهم، وهو شيء يسهم إلى درجة كبيرة في التّعريف به والدّعاية له.. ويؤسفنا أنّ مترجمينا الحاليّين لا يملكون الأناة والصّبر كما كان عليه حال أسلافهم الّذين ترجموا عن الفارسية والهندية كل ما كانوا في حاجة إليه.

بقي أن نوضّح بأنّ العالمية - حسب تصوّرنا - ليست مرتبطة بلغات أجنبية محدّدة كالفرنسية والانجليزية والإسبانية، وإنما هي ملتصقة بأثواب أخرى لعلّ أوّلها القيمة الأدبيّة أو الفنية التي يحملها طابع العمل الأدبي، إذ إنّ القيمة وحدها هي التي تخلّد هذا العمل أو تتلفه. ومن هنا يتضح أن صفة العالميّة لا يكتسبها الأثر الفنّي بمجرد ترجمته إلى لغة أجنبية، بل لابدّ له من عناصر أخرى من أمثال الابتكار، والصدق، وربّما الإنسانية.

أثر العالميّة على الأدب العربيّ المغاربيّ الحديث

إذا جاز لنا أن نقوم بتطبيقات خاطفة على ما بسطناه، فهو أننا نجد أصواتاً بل أعلاماً كبرى أفادت من الثقافة العربيّة الأصيلة ومزجتها بالثّقافة الأجنبية ولاسيّما في الميدان النّقديّ، فجاءت أعمالها رائعة قريبة إلى الكمال، وهذه الأسماء قد خدمت النّقد المغاربي بل العربيّ، لأنّنا نرى أنّ النقد الأدبيّ العربيّ لما يُكتبْ بعد، وأنّ أدباء المغرب العربيّ سيكونون الأوائل الّذين يرسون قواعده على مناهج ثابتة بعد أن مرّ بمناهج مهلهلة مرقّعة نسجت ثوبها الخلق برقع مختلفة، ونذكر في هذا المضمار (نجيب العوفي) من المغرب الذي ساهم إلى درجة كبيرة في تأسيس التّجربة النّقديّة المعاصرة في شكلها الجديد كما يذكر ذلك (إدريس النّاقوري)[1].

ومن الواضح أنّ سبب نبوغ المغاربة في ميدان النّقد يعود إلى اطلاعاتهم الواسعة، ونهلهم من الثقافات العالميّة ولاسيّما الفرنسيّة التي يجيدها معظمهم، فتأثّروا بناءً على ذلك بالبنويّة التي سادت الستّينيّات، والتي وصلت إلى المغرب العربي عن طريق المجلاّت والصّحف أول الأمر قبل أن تنتشر سريعا بين الباحثين في الجامعات كالنار في الهشيم، وقد بلغ هذا المنهج أوجه مع دراسات (إبراهيم الخطيب) حيث طبّقه على بعض الروايات المغربية من مثيلات "المرأة والوردة" لمحمد زفزاف، ثم جاءت دراسة (محمد بنيس) عن ظاهرة الشعر المغربي المعاصر التي وظّف فيها البنيوية التكوينية التي

---

[1] - أحمد فرحات : أصوات ثقافية...ص34، 35 (في حوار للمؤلّف مع الأديب إدريس الناقوري).

تزعمها (لوسيان غولدمان)[1]، كما ظهر في المغرب أسماء لها وزنها على السّاحة النقدية؛ من هؤلاء (إدريس الناقوري) و(سعيد علوش) و(أحمد المديني) وإن كان الناقوري أطولهم باعاً وأغورهم عمقاً.

وهذه البنيويّة وجدت لها صدى واسعاً في الدراسات التونسية أيضا، فانتشرت على أيدي كلّ من (المرزوقي) و(عبد السلام المسديّ) و(نور الدّين صمّود) فيما أثْروْا به المكتبة المغاربية خاصّة، والعربية عامّة.

كما لقي هذا المنهج الإحصائي أو الرّياضي الجديد احتفالاً من لدن المثقفين الجزائريين في الجامعة، فظهرت كتب مستقلّة عنها، ودراسات مختلفة في الصحف والمجلات الجزائرية[2].

ويبدو أنّ القصة الصغيرة قد بلغت مرحلة من النضج ليست بالقليل، فقد ظهرت عشرات الأسماء، وقُنّن لهذا الجنس الأدبيّ المحبّب إلى أفئدة كثيرة من القرّاء.. وقد تميّزت هذه النماذج أو التجارب بنضجها الفنيّ والفكريّ معاً، ولاسيما قصص (محمد برّادة، ومصطفى المسناوي، وخناثة بنونة) وغيرهم من المغرب، و(أبو العيد دودو، وعمار بلحسن، والزاوي أمين، وعمار يزلي، وأحمد منور، ومصطفى فاسي) من الجزائر، و(هند عزوز، وسمير العيادي، والطاهر

---

[1] - من الدراسات التي ظهرت وتعدّ لبنة جادة في وضع صرح النقد في الجزائر يمكن اعتبار: "النقد الأدبي في المغرب العربي الحديث" للدكتور محمد مصايف، و"النص الأدبي من أين وإلى أين؟"، و"بنية الخطاب الشعري" للدكتور عبد الملك مرتاض... وهناك أسماء أخرى بدأت تفرض نفسها على الساحة الثقافية... وهذا من دون أن ننسى طبعاً ما قدّمه الرعيل الأول كالدكتور أبو العيد دودو، والدكتور عبد الله ركيبي، والدكتور صالح خرفي، وغيرهم.

[2] - مجلة "الأنيس" ع.84 السنة 9 يناير 1954 ، ص15. وانظر أيضاً: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي: للدكتور محمد الصادق عفيفي ، مكتبة الرشاد- دار الفكر، ط 1/ 1390هـ/1971م، ص178.

قيقة، وفاطمة سليم، وعز الدّين) من تونس، و(زيدان موسى، ومنذر شراش) من ليبيا... كما بدأت في الظّهور بعض الموضوعات الجديدة التي تتوجّه بأفقها نحو التطوير والتجديد، ويخيّل إلينا أنّ (أحمد المديني ومحمد عز الدّين التازي) يمثّلان هذه الموجة الّتي قد تتكسّر حببها بفعل الاصطدام، وقد تقاوم قليلاً فتصل إلى الشاطئ، لكنّ المهم أنّ هذين الكاتبين يحاولان أن ينمْذجا للقصة ويؤسّسا لها، بيد أنّ المحاولات ليست دائماً تقابل بالرضا، ولاسيما إن كانت تحمل في كنفها تمرّداً وثورة على القواعد أو الأصول !.

ومن الطبيعيّ أن الّذين استطاعوا أن يقفزوا بأدبهم إلى مصافّ العالمية، إنّما هم الّذين نجحوا في تطويره من غير أن يتمرّدوا على أصالتهم أو يخونوا الصّدق في التعبير عن هموم أوطانهم، فجاء إنتاجهم منوّعاً منمّقاً ما بين تلوينه بالنّظريات الحديثة، وبين صبغة بسمة البلد وهواء الوطن، وليس أولئك الّذين ثاروا ثورة صاخبة على ماضيهم التليد، وألقوا به يميناً وشمالاً حتى تنكّروا لأوطانهم وأسلافهم فجاء إبداعهم لا شرقيّا ولا غربيّاً كما يصف ذلك (إبراهيم الألفي)[1].

على أنّ الذي لا نشكّ فيه، هو أنّ الأدب المغاربيّ لا يسمو إلى المكانة التي ننشدها جميعاً إلا إذا استطاع أن يمزّق شرايينه، ويكشف عن وجهه سائراً مع قوافل الآداب العالميّة، إذ إنّ صفة المغاربيّة التي تتطلب منا أن ننتج أدباً له خصائصه ومقوّماته الفكرية والشعورية والذّوقية، لا تمنعنا من التسامي به إلى مكانة العالمية؛ ذلك أنّ عالميّة هذا الأدب لا نطمع فيها إلا إن تناولنا في مضامينا ما يشغل الإنسانية وما يؤرّقها وليس ما يهمّ بلداننا فحسب، ومن النّماذج

---

[1]- محمد بنعمارة: ديوان "نشيد الغرباء"، مطبعة النور، تطوان، ط1/1401هـ/1981م ص31.

التي نحسب أن الإنسانية تتجلّى فيها، نذكر الشّعراء (محمد السرغيني، وأحمد بركات، ومحمد بنعمارة، وحسن الأمراني، ومحمد علي الرباوي، ومحمد الكنوني، وأحد المجاطي، ومصطفى المهداوي) من المغرب و(أبا القاسم خمار، ومصطفى الغماري، وأحمد حمدي، وربيعة جلطي، وسليمان جوادي، وعبد العالي رزاقي) من الجزائر، و(محمد الحافظ ولد أحمد) من موريتانيا، و(نور الدّين صمود، وجعفر ماجد، ومنور صمادح، وفضيلة الشابي) من تونس و(محمود مفلح) من ليبيا، والقائمة طويلة... وإنما هذه أسماء أوردناها على سبيل التمثيل فحسب.

ونورد فيما يلي نماذج لبعض الشعراء، ضاربين صفحاً عن ذكر كل ما خلناه يمثل هذه العالميّة، لأنّ الاستشهاد بكل الشّعراء يتطلب مؤلّفاً كاملاً... وننطلق من أمثلتنا من قصيدة (غنائيات النوارس الحزينة) التي تتجلّى فيها الإنسانية بكل أبعادها، لأنّها - في نظرنا- مشحونة بعاطفة تهزّ السامع والقارئ على السّواء، إنها قصيدة الإنسان المنفيّ عن بلده، أو الذي يعيش في وطنه لكنه شقيّ بما يرى ويحدث، ولا حول له ولا قوة[1] :

أنت لا تملك موطنك المنفيّ...
أنت لا تملك سحباً متجوّلة لك[2]
ولا تملك من شتاء العام رذاذا...

بيد أنه وعلى الرغم من هذا الغُلّ الّذي يطوّقه، فإنه لا يفقد الأمل، ولا يقطع الرّجاء، لأجل ذلك يكون الحلم منه قريباً فيناديه مستعملاً أداة "يا" ومجسّماً إياه كما لو كان حقيقة بل إنّه الحقيقة

1- م. س. ص32.
2- م. ن. ص32.

نفسها، لأنّ الواقع كثيراً ما يكون ناتجاً عن موطئة الحلم، ولاسيّما إذا كان هذا الحلم نابعاً من أحاسيس الشّاعر ومن رؤاه التي تستشر

"الوطن"!... ما ألذها كلمة وما أروعها نغماً!... وهذا التغني بالأماني والآمال لا يملكه كلّ فرد في العالم، إذ كثيراً ما أخمدت الأصوات، وخنقت الصّيحات وصودرت مثل هذه الأغنيات[1] :

من يتغنّى بهواك يجوع ويجلد حتّى الموت.
ومن يعشق فيك امرأة أسطورية العينين
وساحرة تشبه قمرا أورق فيه النّور فمتّهم..

في هذا المقطع من القصيدة توظيف للتراث، وتضمين للأقوال الخالدة التي تُعزى إلى السّلف الصّالح، والتي تحمل روح الثورة والتمرّد من أجل الحقّ ودرْء الجور، ودحر الضّنك إلى حيث لا يعود أبداً[2] :

...صاحبك الجوع
فواعجباً تقضي الليل ولا تشهر في الغد سيفا!.
"بات صحابتك أبا القاسم غرباء."
"طوبي للغرباء"
نحن نسينا أنك قلت :
الكفر يكاد يكون هو الفقر...

إنّ النصّ تضمين رائع لقبس من نور المصطفى محمد (صلى الله عليه وسلم) ولأتباعه من الخلفاء الراشدين الذين لكانوا لا

---

1 - م. ن. ص32.
2 - م. ن. ص32.

يبرحون يتفقّدون الجياع والمحتاجين في غسق الليل؛ والتّناصّ جليّ في قول الشاعر :

« فواعجبا تقضي الليل ولا تشهر سيفا!

طوبى للغرباء..

الكفر يكاد يكون هو الفقر..»

وتتجلّى الإنسانيّة بمختلف أبعادها واتجاهاتها فتتوحّد وتتألّف، وتبدأ هذه الإنسانية لتنطلق منا ، من أرضنا العربية الإسلامية، هذه الأرض التي كانت على الدّوام رمزاً للتحرر والانعتاق، والعدالة ونشر السلام، ولكنّ أصحابها فرّطوا في الرابط المتين الّذي يحقّق لهم ذلك، نبذوا تعاليمهم السّمحة وهجروا كتابهم وألقوا بأحكامه وراء ظهورهم، فصاروا يلهثون للحاق بمن تقدّمهم في الركب دون جدوى[1] :

نسينا منك جواداً تسرجه

ها نحن جياع../ وعراة../ وحفاة.

وتظلّ القصيدة على هذا النمط تنْزف حزناً وألماً وتتقطع من أجل الإنسان المسحوق في كل مكان، هذه الإنسانية الخالدة التي تتعالى على المذاهب والمناهج، والتي تفيض بها القصيدة من أول سطر حتى آخره، بل إنّ الدّيوان كلّه يمتلئ بمثل هذه النفحات التي تعبّق جوّ هذه الإنسانيّة بأريجها العطر، فيتبوّأ بذلك نتاجنا مركزه ضمن عالميّة الفكر، بل يتفوّق عليها بنكهة الشرق الخالصة التي تطبع أدبنا العربيّ الحديث في المغرب.

---

[1]- ديوان "مملكة الرماد"، منشورات المشكاة- المطبعة المركزية- وجدة، 1987م، ص23.

وفي ديوان (مملكة الرماد) للشاعر (حسن الأمراني) كثير من القصائد التي نحسب أنها تنافس هذه العمليّة إذ فيها الدّواء والماء والغيْض الّذي لا يفيض. من هذا الدّيوان وقع اختيارنا على قصيدة "العطش"... الظّمأ الذي يحسّ به غيره من الشعراء مثل (أحمد لمسيح) في ثنائيته عن هذا الظّمأ، أي ظمأ؟... الجواب في صدور الشعراء هم وحدهم يدركون كنهه البعيد - كما يلمّح إلى ذلك محمد بنعمارة- .

وقصيدة "العطش" يحسّ القارئ لها أنها تسرح في عالم جدب محلْ، يريد الشاعر أن يضفى عليه لوناً من ألوان الحياة، ويبعث فيه روحاً أروع من محاولات (سيزيف) التي باءت بالفشل على الرغم من تكرارها وإعادتها بدون كلل[1] :

ما أجدب هذا العمر !
مطرقة تتهاوى فوق الصدر
كنواقيس الكاتدرائية الدّكناء

إنها أبيات قوية لا تملك معها النفس إلا أن تستجيب، ولا يشعر الجَنان إلا وهو يعلو ويهبط متأثّراً بالأبيات المتتالية[2] :

سأشيّد لهذا الحزن الرابض في كل رواق
من قلبي المفتوح لكلّ الطّرّاق
عرشاً لا يفتح أبوابه
لمليك الجانّ...

إنّها المشاركة الوجدانيّة لكل الكادحين التائهين الفقراء الّذين يتألّمون ويتحسّرون ويتعذّبون ولا يجدون من يعيرهم اهتماماً أو يُعنى بمطالبهم... مطلب المحرومين في كلّ مكان : الفلسطينيّين مع

1- م. س. ص23.
2- م. ن. ص58.

الصّهاينة، والزّنوج في أمريكا وأفريقيا الجنوبيّة، والمسلمين في الفيليبين... ترجمة هذه القصيدة - مع التجوّز في كلمة الترجمة- إلى اللغات الأجنبيّة تجعل كثيراً من التجمّعات تهتزّ لسماعها وتقبل على قراءتها إقبالها على الرّغيف السّاخن في أيّام الشتاء.

وفي موطن آخر من الدّيوان نفسه، نجد الشاعر يشارك ذوي الهموم والآلام مشاعرهم، فيصير ذلكم الّذي يتغنّى به خير منفّس للشعوب المضطهدة في العالم[1] :

لك أن تعدّ السجن والسجّان
لك أن تعدّ لجثتي الأكفان
لك أن ترى ما لا يرى

إنه تحدٍّ للظلم حيثما وُجد، وبتْر له أينما كان. إنّه ثورة تحمل الوقود الّذي يفجّر النار، فيحرق الجسور والشرّ جميعاً فقد تساوى لدى الشّاعر الموت على الفراش ليدفن كسائر البشر، أو الموت في الخلوات ليدفن في بطون الجوارح كما حدث للشنفرى. ورجل تساوى لديه كل هذا، لم يعد يكترث لما يعدّه الظالم له من سياط ومن جهنّمية الجواري المنشآت التي تسير في البحر كالأعلام، فإيمانه أقوى، وتضحيته أسمى، وهو باق على عهده الذي قطعه لربه، وسيظلّ مستمسكا به شاداً عليه أو يهلك دونه[2] :

لك أن ترى قبري ببطْن الجارحات
لك أن تُعدّ المنشآت الجاريات
في البحر كالأعلام

---

[1]- م. س. ص 58، 59.
[2]- م. س. ص 60.

لن تستبيح حقيقتي
لن تهدم البنيان
بنيان ربّك خالق الإنسان

إلى آخر ما يعبّر عنه في هذه الصّور الثلاث، والتي يختمها بصورة أروع تدلّ على أنّ الشاعر قد أدرك تمام الإدراك بأنّ "العالميّة" لا يستتبّ أساسها إلا إذا حملت في جسدها طابع "المحلية"، وهذه المحلية وُظّفت بطريقة ذكيّة نستشفّها من خلال ما يبين عنه الشاعر من إيمان وعقيدة، موضّحاً اتجاهه وأصله الّذي لا تحدّه حدود، ومشيداً بالشّهيد الذي يقدّم روحه في سبيل الله دفاعاً عن وطنه، وذبّاً عن قيمه، وحفاظاً على شرفه، وهو يوصي الذين يصادفونه أن يذروه على وضعه الذي ألفوه عليه فيدفنوه في أثوابه مضمّخا بدمائه كما هو، لأنّ أولئك كله يكون له شهادة يوم القيامة[1] :

لا تسرقوا عرس الشّهيد
لا تأخذوا منه السّلاح تبرّكاً
لا تنزعوا عنه العمامة
لا تسلبوا دمه
...فتلك شهوده يوم القيامة

ونختم هذه الجولة في دواوين الشّعراء المغاربة بقصيدة (الغربة) للشاعر (محمد علي الرباوي) الذي تتجسّد غربته في كلّ مكان : غربة الفكر، والثقافة، والحضارة. وهذه الثقافة في التعبير، والقدرة

---

[1] ديوان البيعة المشتعلة، منشورات المشكاة- المطبعة المركزية- وجدة، 1986م، ص30.

العميقة في التفكير لا يحسّ بها إلاّ ذو العقل الذي يشقى في النعيم بعقله، على رأي أبي الطيب المتنبي.. يقول[1] :

في الشّارع أنت غريب
في الدّرب غريب
وغريب في العمل، في المتجر
في مقعدك المألوف وأنت هنا
تسمع أو تقرأ هذي الأشعار
غريب في البيت وأنت تجالس
شاشتك الفاجرة الصوت، الفاسقة الصورة.

قد يعترض معترض بأنّ الشاعر هنا لا يتوق إلى العالميّة، ولا يتناول قضية ذات ارتباط بها، باعتباره متقوقعاً على نفسه، يحنّ إلى ذاته، ويبحث عن نفسه في هذا العالم المائج المضطرب من حوله، هذا العالم الذي يسير في غير اتجاهه، ويسلّط عليه السّهام الظالمة من كل صوب، وأردأ ما في مفاسده هو أنه يحاول أن يسلخه من جلدته. ولكننّا نؤكّد بأنّ البحث عن الذات في هذا العالم الغريب، ومحاولة العثور على الأصل له ارتباط بالأصالة، وهذه الخاصيّة هي التي توصل إلى "العالميّة".. غربة الشّاعر تتجلّى أكثر في الثّقافة العربيّة التي لم تعد تدري ما تصنع، ولا تعرف ما تفعل إزاء تلاطم أمواج اللتْن والفرنسة واللّجْلزة، وليس العيب في هذه الضرّات اللواتي اكتسحن بكل نذالة وخساسة صاحبة البيت الأولى الأصليّة، ولكن في صاحب البيت الذي خطب الودّ وتلهّف على القران،

[1] - م.س.ص30.

وصرف اللآلئ والحليّ بغية الظفر بهن، ثمّ راح يُؤْثرهنّ على سيدة بيته، وأمّ أولاده[1] :

أنت غريب..
إمّا كنت قريبا
أو كنت بعيداً
من مذياع مبحوح الصّوت
غريب إن أنت استلقيت كطفل
في حضن جرائد تقطع أوصالك كل صباح
أنت غريب في حجرات الدرس
غريب حتى في ذاتك

أجل، لقد حكم علينا التأخّر أن نظل غرباء، ولن تتجلي هذه الغربة المعنوية والمادية جميعاً إلا إذا استطعنا أن نرتقي بذواتنا وبأدبنا إلى مصافّ العالميّة.

السّرديّات والعالميّة :

لعلّ أنّ السّرديّات تختلف اختلافا بيّنا عن الشّعر، لأنّه إذا تعذّر على معظم الشّعراء أن يجدوا لهم مقعدا بين الشّعراء العالميّين، فإنّ الرّوائيّين كانوا أكثر حظّا وأقرب إلى فرض النفس، وما من مراء في أنّ الرواية المغاربية تبوّأت مكانتها المرموقة ضمن الرواية العالميّة، بل يمكن القيل إنّها راحت تضايقها في متانة السّبك، ووضوح الرؤيا، وروعة التصوير، والدقة في توظيف البنى الإفراديّة، وانتقاء الألفاظ، وتقنيّة السّرد، ولعل هذا ما دفع نقّاد الغرب إلى القيام

---

[1]- د. نور الدّين صمّود: المسعدي وكتابه: "السدّ"- الدار التونسية للنشر، - تونس.، 1983م.

بترجمة طائفة من الأعمال السّردية العربية إلى لغات عالميّة على غرار بعض روايات وطار، وبوجدرة، وابن هدوقة من الجزائر، كما نالت الروايات المغربية والتونسية اهتماماً من قبل الدارسين والمترجمين الأجانب، ومن التي حظيت بقسط كبير في هذا المضمار؛ يجدر ذكر رواية «السدّ » التي قال عنها الطاهر الخميريّ : «يمكن أن تترجم اللغات الحيّة، وتروج رواج مؤلّفات الكتاب العالميّين، ولكن كل ذلك يحتاج إلى الدّعاية والتّعريف والتّقديم». والحديث قياس، فلتكن أيّة رواية أخرى نعمل مخلصين على تبليغها أمما أخرى عن طريق الترجمة والدّعاية والإشهار. بيد أنّ الحزازات التي نعاني منها كالغيرة من أفضلنا، والحسد والتنابز فيما بيننا هي التي تحول دون بلوغ مرامينا في منافحة الأدب العالميّ. وإذا ما أردنا أن نكون عالميين، فيجب أن نشمّر عن سواعدنا نحن الأدباء، ونوصل أعمالنا إلى الآخر عن طريق مختلف أجهزة التّبليغ من صحافة وإذاعة مسموعة ومرئية، ومجلاّت، ونواد، ومحاضرات، ورسائل جامعية وغيرها.

فقد علا نجم (ماركيز) بعد نيله جائزة (نوبل)، وتنافست وسائل الأعلام كلها شرقاً وغرباً للحديث عن (نجيب محفوظ) بعد حصوله على هذه الجائزة أيضاً.

ونحن في المغرب العربي - بحسب تصوّري- مؤهّلون بكل جدارة أن نهزّ النّظريّات النقديّة والأدبيّة في العالم ليس عن طريق التقليد كما فعل كثير من المثقّفين، ولكن بالتأسيس والتأصيل، إذ بهذين العاملين نبلغ مرامينا وندرك مبتغانا.

كلمة الختام :

وبعد ، فإنّنا نجتزئ بهذه الملاحظات العابرة التي تشبه الخواطر أكثر من التعمّق، معتذرين تارة أخرى عن التقصير الّذي قد يلاحظ على هذه الكلمة، ولاسيّما في الاستشهاد بالنصوص، لأنّ الكثرة تؤدي إلى التطويل المملّ، وهو ما تحاشيناه.

وعسى أن نعود إلى هذا الموضوع في فرصة أخرى هنا أو في أية مدينة مغاربية أخرى، يحدونا الأمل العريض، ويدفعنا حبّ البحث وسبر كُنه ثقافتنا في هذه الدّيار الغالية علينا جميعاً.

خاتمة

لقد كان البحث تجربة مثل سائر البحوث، ولاسيّما في العلوم الإنسانيّة، حيث تكون هذه البحوث تجارب متميّزة ومستمرّة، ومحاولات دائمة، وذلكم ما حصل معنا في هذا العمل الذي تحقّق نتيجة للغَيْرة التي طالتْنا بعد ملاحظتنا العنت الذي أصاب الأدب المغربيّ القديم، وبعد ما توصّلنا إلى نتيجة نهائية بلغة الرّياضيات تمثّلتْ في الازْدراء به وتهميشه ؛ بل وإهماله إهْمالاً تامّاً، بدْءاً ببرامج الثّانويّات والمتوسّطات، وانتهاءً بأبحاث طلبة الدّراسات العليا في الجامعات، فكان التّنكّر له من أهله في دياره قبل أن يكون من الأباعد الذين لا يلتفتون إليه إلاّ لِماماً، فإن فعلوا، فإنّهم لا يعْدون شخصيّة بارزة مع تقصير ونقص فظيعيْن !.

لذلك عدنا إلى البدايات الأولى لهذا الأدب ونحن وجِلون، وأقبلْنا على البحث وفكْرُنا حائرٌ مُتملْملٌ : ما ذا عسانا أن نقول عن هذا الأدب ؟ وهل في مِكْنتنا أن نُوفّي الموضوع حقّه من أصوله وفروعه المتعدّدة تاريخيّاً وأدبيّاً؟!.وأين المُسْعف لنا والمساعد لمعالجة هذا الإشكال؟. وكان من حسْن الطّالع أنّ ألفيْنا أمامنا مرجعيّة، على نُدْرتها وتقصيرها، أسْندتْنا وأمدّتْنا بمصابيح اهتدينا بها مع خُفوت أنوارها، ومع ذلك فقد دفعتنا قُدُماً لنمضيّ في هذه السّبيل.

ثمّ وقفنْا لدى قصيدة موريتانيّة عادت بنا إلى أزمنة النّوق والسمر فوق رمال الصّحراء، وذكّرتْنا بالمعلّقات والأصمعيّات ومطوّلات فطاحل الشّعر العبّاسي. وقد تعمّدْنا توظيف هذه القصيدة

لإطْلاع ناشئتنا على صورة من صور الأدب في تلك الدّيار التي هي من روافد هذا الأدب ومن أصنائه ؛ ووُكْدُنا دعوةُ المتلقّين، ولاسيما الباحثون الشّباب، إلى التّنقيب في المكتبات، والتّعمّق في مجالات الأدب العربيّ المختلفة مغاربيّاً كيْ تتكامل المعارف فتتلاقحَ فيما بينها وتكوّن رصيداً هائلاً للثّقافة العربيّة مغرباً ومشْرقا.

وقد تعرّضنا في هذا الكتاب أيضاً للمديح النّبويّ في المغرب العربيّ الذي عرف عنايةً كبرى من شعراء المغرب العربيّ، فخصّصْنا بحثَيْن لهذا الفنّ نشْأةً وتطوّراً، حيث كانت لنا وقفاتٌ فنية إزاء بِنْيته ولغته وأسلوبه، فتناول الأول منهما فنّ المولديّات في الشّعر المغربيّ القديم، وتطرّق الآخر للمديح النّبويّ في العهد العثماني، فوقفْنا لدى بِنْيته الفنية مع تعريفنا بطائفة من أعلامه في إيجاز بطبيعة الحال.

ومن ثَمّ، فقد تَجدّدَ جلد الأدب المغربيّ القديم، في تصوُّرنا، بما حاولْنا إيرادَه في هذا البحث لكيلا تظلّ موضوعات الأدب المغربيّ القديم تُراوح مكانها وتجتْرّ بَياتها ؛ مع أنّ موضوعات هذا الأدب ثريّة بألوانها المتباينة وزاهية بأجناسها المختلفة، والتي من شأنها أن تُثْري تاريخ الأدب الجزائريّ بخاصّة، والأدب المغربيّ بعامّة.

وعلى الله قصد السّبيل

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم (برواية ورش)

الحديث النّبويّ الشّريف

1ـ أبو حمّو موسى الثاني - حياته وآثاره : د. عبد الحميد حاجيات، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع 1394هـ (1974م

2 - الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق : عبد الله عنان - مكتبة ومطبعة الخانجي - القاهرة 1973

3 - الأدب المغربيّ من خلال ظواهره وقضاياه : د. عباس الجراري، مكتبة المعارف للنّشر والتّوزيع - الرّباط .

4 - الأدب المقارن : د. محمد غنيمي هلال، دار العودة ودار الثقافة- بيروت، ط5- دون تاريخ.

5 - أدب المناقب والكرامات في بلاد شنقيط (خلال القرنين 13 و14 هـ) - قراءة في مدوّنات القول وخوارق القوم : محمدنْ بن المحبوب (رسالة دكتوراه) نوقشت هذه الرسالة بجامعة وهران يوم 15 مارس 2004م

6 - الأدب في عصر بني حمّاد : د. أحمد بن محمّد أبو زراق، الشّركة الوطنية للنّشر والتّوزيع – الجزائر : ط1 / 1979م.

7 - أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض : أحمد المقّري (1 - 3) تحقيق : السّقّا - الأبياري - شلبي، ط. القاهرة 1939م - 1942م.

8 - أزهار الرّياض في أخبار القاضي عياض : أحمد المقري - تح : مجموعة باحثين، مطبعة فضالة - المغرب، د.ط/ 1978م

9 ـ الأزهـار الـرّياضيّـة : البـاروني، ط. القاهـرة 1324 هـ

10 ـ أشعار سعديّة(ملحق مناهل الصّفا) تحقيق : عبد الله كنّون، المطبعة المهديّة ـ تطوان1384هـ (1964م

11 ـ أصوات ثقافية من المغرب : أحمد فرحات، الدار العلمية للطباعة والنّشر والتوزيع- لبنان- الطبعة الأولى- 1404هـ(1984م).

12 ـ أصول الإبداع الأدبيّ في العصر السّعدي » سنة 1977 ـ 1978 بجامعة الرّباط تحت إشراف الدكتور عبّاس الجِراري ـ رسالة مرقونة بكلية الآداب.

13 ـ باقة السّوسان في التّعريف بحاضرة تلمسان ـ ديوان المطبوعات الجامعيّة ـ الجزائـر 1995 م

14 ـ البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان : ابن مريم التّلمساني ـ تحقيق : محمد بن أبي شنب، ط. المطبعة الثّعالبيّة ـ الجزائر د. ط 1326 هـ (1908 م)

15 ـ بغية الرّوّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد : يحيى بن خلدون، مطبعة فونتانا الشّرقيّة ـ الجزائر 1903م ـ تحقيق : ألفريد بل (Alfred Bel) ـ تحقيق : عبد الحميد حاجيات، ط. المكتبة الوطنيّة ـ الجزائر 1400هـ (1980م

16 ـ البيان والتبيين : الجاحظ، تحقيق : هارون وشاكر- المطبعة الحلبيّة- مصر 1980هـ.

17 ـ تاريخ ابن خلدون ـ ط. بولاق 1284 هـ

18 ـ تاريخ الأدب العربيّ : د. عمر فروخ ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1385هـ (1965م)

19 ـ تاريخ الأمم والملوك : الطّبري، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم- دار المعارف بمصر 1966م.

20 ـ تاريخ الجزائر الثقافي، د. أبو القاسم سعد الله – المكتبة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر1981م-

21 ـ تاريخ الجزائر العامّ : عبد الرحمن الجيلالي، دار الثّقافة بيروت ط4 / 1400هـ (1980م).

22 ـ تاريخ الجزائر في القديم والحديث : مبارك الميلي، مكتبة النّهضة الجزائريّة، الجزائر، د. ط / 1963

23 ـ تاريخ بني زيان، ملوك تلمسان، حقّقه وعلّق عليه : محمود بوعياد ـ نشر : المؤسّسة الوطنيّة للكتاب/ المكتبة الوطنيّة الجزائريّة 1405هـ (1985م

24 ـ تلمسان عبر العصور : محمد بن عمرو الطّمّار ـ المؤسّسة الوطنيّة للكتاب ـ الجزائر 1984 م

25 ـ ثقافتنا في مواجهة العصر : د. زكي نجيب محمود، دار الشروق- بيروت، ط3 سنة 1982م.

26 ـ جذْوة الاقتباس : ابن القاضي المكناسي ـ دار المنصور للطّباعة والوراقة ـ الرّباط د. ط / 1974م، ج 1 ص 97 / البستان، ص ص

27 ـ خزانة الأدب ونهاية الأرب : تقيّ الدين بن أبي بكر ابن حجّة الحموي ـ ،دون تاريخ، ولا مكان الطّبع،

28 ـ الخطاب الشّعريّ عند فقهاء المغرب العربيّ »، نشر : وزارة الثّقافة في الجزائر (بالاشتراك مع دار الأوطان) الجزائر 2009م

29 ـ دائرة المعارف : فؤاد أفرام البستاني، ط. بيروت 1960م.

30 ـ الدّرّ الوقّاد : من شعر أبي بكر بن حمّاد التّاهرتي – تقديم وجمع وشرح : محمّد بن رمضان شاوش – نشر : المطبعة العلويّة لمستغانم ـ الجزائر ط1 / 1385هـ (1966م)

31 ـ دراسات في الأدب المغربيّ القديم» للدكتور عبد الله حمّادي ـ قسنطينة، ط1/ 1406هـ (1986م

32 ـ ديناميّة النّصّ : د. محمد مفتاح ـ المركز الثّقافيّ العربيّ ـ الدّار البيضاء (المغرب) ـ ط 1 / 1987 م.

33 ـ ديوان المتنبي ـ شرح العكبري ـ تحقيق : مصطفى السّقا وصاحباهـ دار الفكر للنشر والتوزيع ـ بيروت، ط1/ 1418هـ.

34 ـ ديوان "مملكة الرماد : د. حسن الأمراني، منشورات المشكاة- المطبعة المركزية- 1987م.

35 ـ ديوان "نشيد الغرباء : د. محمد بنعمارة، مطبعة النور- تطوان، ط1/ 1401هـ/1981م.

36 ـ ديوان الأعشاب البريّة : د. محمد علي الرباوي، - المطبعة المركزية- وجدة، ط1- سنة1985م.

37 ـ ديوان ابن رشيق ـ جمعه وحقّقه وشرحه : د. محيي الدين ديب، المكتبة العصريّة، بيروت 1418هـ (1998م).

38 ـ ديوان أبي تمّام (1 ـ 4) تحقيق : محمد عبده عزّام ـ دار المعارف بمصر 1951 ـ 1965 م.

39 - ديوان البيعة المشتعلة : د. حسن الأمراني، منشورات المشكاة- المطبعة المركزية- وجدة، المغرب.1986-

40 - ديوان امرئ الفيس، دار بيروت للطّباعة والنّشر، بيروت - د.ط/ د.ت -

41 - ديوان امرئ القيس : تحقيق - محمد أبو الفضل إبراهيم.، دار المعارف بمصر 1958 م.

42 - ديوان محمد العيد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- مطبعة البعث- قسنطينة 1987م.

43 - رسالة الغريب إلى الحبيب : أحمد أبو عصيدة البجائي، تعريف وتعليق وتلخيص : أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت (لبنان) - ط1/ 1933م

44 - الرواية العربية : واقع وآفاق "تجربة ذاتية في كتابة الرواية" لعبد الكريم غلاب، دار ابن رشد للطباعة والنشر، بيروت، ط1- سنة 1981م.

45 - رياض النّفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية : أبو بكر عبد اللهه بن محمد المالكي، تحقيق : محمد البكوش/ محمد العروسي المطويّ - دار الغرب الإسلاميّ - بيرت (لبنان)

46 - الشعر الجزائري المعاصر ملحق مجلة "آمال" منشورات مجلة آمال، دون تاريخ .

47 - شعر الفقهاء في المغرب العربيّ : جمع ودراسة " - مخطوطة مرقونة - كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة (جامعة تلمسان) .

48 ـ شعر الفقهاء : د. حسني ناعسة، نشر : المكتبة العربيّة بحلب ـ سورية ـ ط 1 / 1399 هـ (1979 م) .

49 ـ شعر عبد العزيز الفشتالي - جمع وتحقيق ودراسة : نجاة المريني، مكتبة المعارف الجديدة، الرّباط 1986

50 ـ طبقات علماء إفريقية : أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، تقديم وتحقيق : علي الشابي/ نعيم حسن اليافي، الدّار التّونسية للنشر، تونس / والمؤسّسة الوطنيّة للكتاب ـ الجزائر، ط2/ 1985م.

51 _الطيب صالح (عبقري الرّواية العربية) مجموعة من الكتّاب العرب، دار العودة- بيروت- ، ط3/ 1984م.

52 ـ عجائب الأسفار: مخطوط المكتبة الوطنيّة، الجزائر، رقم : 1632/

53 ـ عنوان الأريب : محمّد النّيفر التونسية، تونس، ط 1/

54 ـ عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المئة السّابعة ببجاية : أبو العبّاس الغبريني ـ تحقيق : رابح بونار ـ الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر 1981م

55 ـ عنوان الدّراية فيمن عُرف من العلماء في المئة السّابعة ببجاية : الغبريني، تحقيق : رابح بونار، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع ـ الجزائر، د. ط / 1970م.

56 ـ فقه اللغة : الثعالبي، تحقيق : إبراهيم الأبياري وآخرون، مطبعة الحلبي- مصر، ط2/ 1373هـ (1954م).

57 ـ في النقد الأدبيّ الجزائريّ القديم : د. محمد طول – دار الغرب للنشر والتوزيع- وهران، د. ط/ د.ت.

58 ـ القاضي عياض الأديب : د. عبد السلام شقور، دار الفكر المغربيّ، ط3/ 1983م.

59 ـ ما الأدب ؟ : سارتر (جان بول) ـ ترجمة : د. محمد غنيمي هلال ـ دار العودة ـ بيروت (لبنان) 1984م، د.ط

60 ـ مجلة "الفكر" التونسية- السنة 17ع. 9جوان1972م.

61 ـ مجلة الثّقافة الجزائرية (شهرية) كانت تصدر عن زارة الإعلام والثّقافة، السنة2، ع.7 ـ محرم 1392هـ (مارس 1972م)

62 ـ مجلة الفضاء المغاربيّ، ع.3 / 205 ـ ص 85 ـ 118.، يصدرها دوريا مخبر الدراسات الأدبية والنقديّة وأعلامها في المغرب العربيّ ـ كلية الآداب، جامعة تلمسان.

63 ـ مجلة الفيصل الأدبيّة، مج5، ع.3 ـ 4 جمادى الأولى ـ رجب 1430هـ/ شعبان ـ شوال 1430هـ

64 ـ مجلّة المشكاة،ع .12 السّنة 3 ـ يناير، فبراير، مارس 1990،

65 ـ المزهر في اللغة : السيوطي- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة.

66 ـ المسعدي وكتابه : السدّ : د. نور الدّين صمّود، الدار التونسية للنشر- ديسمبر 1983م.

67 ـ المُسْنَد الصّحيح الحسن في محاسن مولانا أبي الحسن : ابن مرزوق الخطيب، ط. الجزائر 1401 هـ / 1981 م.

68 ـ المطرب من أشعار المغرب لابن دحية (ذي النّسبين أبي الخطاب عمر بن حسن المتوفّى سنة 633هـ - تحقيق : الأستاذ

إبراهيم الأبياري وأحمد بدوي وحامد عبد المجيد – راجعه الدكتور طه حسين – دار العلم للجميع – د. ط / د. ت

69 ـ معجم أعلام الجزائر : عادل نويهض، طبع : مؤسّسة نويهض، بيروت (لبنان).

70 ـ المغرب العربيّ : تاريخه وثقافته ": رابح بونار ـ الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع ـ الجزائر 1968 م .

71 ـ مفاهيم جمالية في الشعر العربي القديم : د. محمد مرتاض ـ نشر : ديوان المطبوعات الجامعيّة ـ الجزائر، ط1/ 1997م.

72 ـ مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول : الشريف التلمساني، منشورات المركز الثّقافيّ الإسلاميّ ـ الجزائر ـ سلسلة : المطبوعات الجميلة (Les belles Impressions).

73 ـ مقالات في النقد الإسلاميّ ـ تأصيل وتجريب : سعيد الغزاوي ـ الأحمديّة للنشر، الدار البيضاء ت ط1 / 1420 هـ (1999م).

74 ـ المقدّمة : عبد الرحمن بن خلدون، ط. الدّار التّونسيّة للنّشر / المؤسّسة الوطنيّة للكتاب ـ الجزائر ط 1 / 1984

75 ـ من أدب الدّعوة الإسلاميّة : د. عباس الجراري ـ دار الثّقافة، الدّار البيضاء 1974م

76 ـ من أعلام تلمسان ـ مقاربة تاريخيّة/ فنية : د. محمد مرتاض ـ دار الغرب للنشر والتّوزيع ـ وهران (الجزائر) 2004م

77 ـ المنتخب المدرسيّ من الأدب التّونسيّ : حسن حسني عبد الوهّاب ـ ط. بولاق بمصر 1944 م.

78 - نصوص من الأدب الموريتانيّ، تحقيق الأستاذ محمد ولد باباهْ - نشر : بيت الحكمة، تونس 1990م

79 - نظريّة القراءة، محمد مرتاض (مخطوط).

80 - نظم الدرّ والعقيان : التنسي، تحقيق : بوطالب محيي الدّين تحت عنوان « الجانب الأدبيّ من مخطوطة الحافظ التّنسي التّلمسانيّ» - منشورات دحلب - الجزائر، د. ط / د. ت .

81 - نظم الدرّ والعقيان في بيان شرف بني زيان : التّنسي، تحقيق : محمود بوعياد، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر 1985م.

82 - نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب - أحمد المقري، تحقيق : الدّكتور إحسان عبّاس - دار صادر بيروت د. ط / 1408 هـ (1988 م.

83 - النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي : د. محمد الصادق عفيفي، مكتبة الرشاد- دار الفكر- الطبعة 1- سنة 1390هـ/1971م.

84 - نيل الابتهاج بتطريز الدّيباج : أحمد بابا التّنبكتي، منشورات كلية الدّعوة الإسلامية، طرابلس.

85 - الوسيط في أدباء شنقيط : أحمد بن الأمين الشّنقيطي، ط3، القاهرة 1961م.

فهرس المواد

ملحق

طبع بمطبعة دار هومه – الجزائر 2016
34، حي لابروپار – بوزريعة – الجزائر
الهاتف : 021.94.41.19 /021.94.19.36
الفاكس : 021.94.17.75 / 021.79.91.84
www.editionshouma.com
email : Info@editionshouma.com

هذا الكتاب

يسعى هذا الكتاب إلى إماطة اللثام عن الأدب المغربيّ القديم من حيث النشأة والتطوّر، ويهدف إلى استقطاب الأنظار نحو هذا الأدب الذي طاله النّسيان، وأهملته الأقلام، فغاب ذكره في القراطيس، واختفى أثره في المكتبات العامّة.

والكتاب يحاول الأوبة إلى الجذور الأولى لبدايات هذا الأدب مُتكئاً على بعض النّصوص الشّعريّة والنّثريّة التي أمدّته ببصيص من الضّياء انطلاقاً من القرن الثّاني الهجري مع الاستشهاد ببعض النّموذجات التي كانت صورة مُشرقة له، ويُبرز بعض الدّارسين الذين كان لهم فضل السّبق في إزالة المطبّات وتذليل العقبات أمام الباحثين بما أنجزوه من بحوث جامعيّة، أو ناقشوه في ملتقيات ونشروه في دوريّات، كما يُعرّف بسيَر طائفة من الأعلام، ويتعرّض للوصف في الشّعر المغربيّ قديماً؛ محلّلاً بعض النّصوص بتفصيل، وفنّ المولديّات الذي كان له شأن عظيم، وميزة خاصّة في هذا الأدب عبرَ فترات مختلفة من تاريخ المغرب العربيّ...

ردمك: ISBN: 978-9931031857

9 789931 031857

دار هومه

للطباعة والنشر والتوزيع

34 حي لابروبار - بوزريعة - الجزائر

الهاتف: 021 94 17 75 الفاكس: 021 94 19 36

021 79 91 84 021 94 41 19

www.editionshouma.com

e-mail info@editionshouma.com

4/649